جامعـــــة الاسكندريـــــــــة

كليـــــة الآداب

(قسم الماجستير) العلوم اللغويـــة

٣٠١٠٢٠٠٠٠٠٠٦١٤

البحـث اللغـوى في لبنـــــــــــان

في القرن التاسع عشـــــــــر

٢٦٣٢

٦١٤

جامعة أم القرى مكتبة الدراسات العليا
UMM AL-QURA UNIVERSITY MAKKAH

باشراف الدكتورحســن ظاظـــا

اعداد ريـــاض قاســـــــم

١٩٧٢

المقدمـــــــــــة

١ ـ أهميـة الموضوع :

ماجعلني أسعى حثيثا لاختيار البحث اللغوى فى لبنان فى القرن التاسع عشر ، موضوع تخصص عال ، فى العلوم اللغوية ، مايعتور حاضر ثقافتنا اللغوية من لبس وتعمية يذهبـــان بالقارىء العربى عامة واللبناني خاصة مذهبا عاثرا . أما اللبس فناتج عن اعتماد قرائنا علـــى مؤلفات أو مقالات لكتاب توزعتهم الأهواء واندلحت ببعضهم على أرض التعصب فتغافلوا مـــن أسباب الحق ، ووافقوا يقيمون من الأرجح والمحتمل والتخمين شرعة ومنهلا لكل بحث آت .

أما التعمية فمردها الى ماشاب أبحاثنا اللغوية من أهواء طائفية حجبت عن القارىء موضوعات خطيرة أو حقائق لايمكن ـ بأى عـذر ـ رد انبثاقها .

وخير دليل على مانذهب اليه ، مايرين على انتاج مؤلف ضخم كأحمد فارس الشدياق مثلا حيث بقيت مؤلفاته الى يومنا هذا طى النسيان والغفلة فى البرامج الثانوية والجامعية علـــى حد سواء ، وماذلك الا لكونه مسيحيا (عاقا) ، فهو مارونى الأصل ، ثم صار بروتستانتيـا (انجيليا) ، ثم اعتصم بالاســـلام دينا وفكـرا ومعتقـدا .

هذه الصورة الدينية لم تحظ بعطف القيمين على مناهجنا التربوية ، مما حرم الكاتـب من حق تعرف الناس اليه ، وحق القارىء من التعرف اليه .

من هذه الجهة ، نكون قد رددنا فى بحثنا هذا جانبا منسيا ، فبيناه .

ونكون قد وضعنا للقارىء العربى ، واللبنانى خاصة ، ملامح رأى جديد ، كثيـرا ماحاولنا فيه الابتعاد عن الهوى والميل المذهبى . ايمانا منا بموضوعية البحث ، وتنزهها ، ابتغاء معرفة بعيدة عن شـــئون الذات .

ومن جهة ثانية أخذنا بأسباب التطور المرحلى للسياسة وأحداثها المتعاقبة فى القرن الماضى ، وماشهدته المنطقة من اضطرابات دامية ، كثيرا ماعصفت بأمن لبنان واستقراره وجعلت منه ريشة فى مهب ريح عتى . ثم تناولنا الاطار الثقافى محددين ملامح التطور الفكرى والدينى ، وماكان من ثم للحياة الاجتماعية والاقتصادية من أثر فعال فى ذلك كله .

هذا فى الباب الأول من البحث .

أما الباب الثانى فخصصناه لعلائق اللغة بالمجتمع من خلال المدرسة والكتاب والمعلم والمنهج التربوى . حيث رصدنا بحثا خاصا للارساليات الأجنبية ودورها فى تغيير ملامح المجتمع والفكر عند الانسان العربى عامة ، واللبنانى خاصة . جاعلين من التبشير خطة عملية انبثقت عن التخطيط الذى قام بوضعه المستشرقون .

لذا رأينا أن نفرد بحثا مقتضبا لبحث شئون الاستشراق من خلال قضية أثره على التبشير فى لبنان فقط . دون أن نتطرق الى تفاصيل ذلك ، وهو مما يخرجنا عن غايتنا فى البحث الذى نريد .

هذا ، وقد جعلنا لما أصاب اللغة من ازدواجية ، سريانية وعربية حينا ، وعربية وفرنسية أو انكليزية حينا آخر ، فصلا قائما بذاته ، أفسحنا فيه المجال لظهور صفحة جديدة تصور ذلك الصراع الخفى الذى عانته اللغة العربية فى القرن الماضى .

وقد جعلنا علاقة اللغة العربية بالمجتمع حجر الرحى فى كل ماذهبنا اليه ابتغاء تحديد ملامح التطور العام .

أما الباب الثالث فقد تناولنا فيه جوهر القضية التى نبحث جاعلين منه فصولا ثمانية توزعت على البحث اللغوى بكل علومه . فقد رصدنا اتجاهات الدرس اللغوى مبينين ملامح مساره العام عند كل من أحمد فارس الشدياق وجرجى زيدان وابراهيم اليازجى وسواهم مبتدئين بما كان من اعتقاد عندهم بالفكرة الصوتية ، ونظرية المحاكاة التى لعبت دورا فى نشأة اللغة حسب اعتقادهم ، ثم تناولنا نظرية الثنائية الصوتية فى علم الجذور اللغوية ، أو مادعى بالمضاعف الثنائى عند نجم القرن أحمد فارس الشدياق وذلك فى كتابه " سر الليال فى القلب والابدال " .

ثم تناولنا طريقة النقد المعجمى عقب دراسة الصوتيات لأنّ الشدياق بنى نقـــده على هذه النظرية • ولما كان البحث يدور فى فلك القضية المعجمية وجدنا من الضرورى اقامة دراسة منهجية لكل المعاجم الصادرة فى القرن الماضى • بـدءا بمعجم " محيط المحيط " ، ومختصره " قطر المحيط " لبطرس البستانى • ثم " أقرب الموارد الى فصـح العربية والشوارد " لسعيد الشرتونى • هذا وقد كنا فصلنا الكلام على معجم " سـر الليال " ، لأحمد فـارس الشدياق أثناء حديثنا عن النظرية الصوتية والثنائية لجذور اللغة عنده •

وبعد ، جاء الكلام على النقد المعجمى فدرسنا مناهج النقد عند لغويينا مبتدئيـن بأعمال رشـيد الدحداح فى " احكام باب الاعراب " الذى صحح به كتاب " باب الاعـــراب " لجرمانوس فرحات •

ثم تباسطنا فى الكلام على طريقة الشدياق فى عمله الكبيـر وهو " الجاسوس علـــى القاموس " ، حيث انتقد أعمال المعجميين القدامى وعلى رأسهم الفيروزبادى صاحـــب " القاموس المحيط " •

أما ختام البحث فكان لما جاء من نقد جزئى يتناول المادة ومشتقاتها عند الشرتونى فى " ذيل " أقرب موارده •

هذا الأمر جعلنا نخلص الى تسجيل كلمات كثيرة وضعها هؤلاء فى معاجمهم هذه أو أرادوا وضعها • لذا خصصنا الالفاظ المستحدثة وقضية التعريب بمبحث خاص ، بينـــا فيه أثر النزعة القومية عند هؤلاء الكتاب وماكان عندهم من غيرة على لغتهم وتراثهم •

أما البلاغـة فقد ألحقناها بالبحث اللغوى لانّها بقيت ضمـن العمل اللغوى العام عند هؤلاء فى القرن الماضـى • غير أنه لم يكتب لأبحاثها أى نجـاح فى النصف الاول من القـرن ومن الطبيعى ان لاتبقى الابحاث على انكماشها وجمودها ، فقد بدأت معالم الدرس اللغوى الجاد طريقها الى الظهور فى أوائل العقد الثامن من القرن ومالبثت أن انبثقت ساطعة على يد جهبذ ضوط

فى كتابى " خواطر الحسان " و " فلسفة البلاغة " . ولعل الكتاب الأخير يشكل حجر الزاوية فى كل الدرس البلاغى الذى نتج عن القرن الماضى . ولانحسبن أن هذا صنيع ضومط لوحده فالكتاب جلّه مقتبس من الكاتب الانكليزى " هربرت سبنسر " .

أما علومنا النحوية والصرفية فقد غشيها تأليف مدرسى ومنهج تقليدى جعلا الفكر اللغوى فى انحباس وخمول . ورغم محاولات ناصيف اليازجى فى أرجوزة جوف الفرا فقد بقيت محاولاته بائسة لم تنهض بالعمل النحوى درجة واحدة . كما أننا تناولنا مادار من مناقشات نحوية أو صرفية كانت تعقب صدور كتاب أو مقال ، كتلك المناقشة الحادة التى دارت رحاها بين الشدياق والأسير والأخدب من جهة ، وابراهيم اليازجى والشرتونى والبستانى من جهة أخرى .

وأخيرا ، قمنا بدراسة طرق النقد اللغوى ، ومراحل التطور النقدى العام من خلال بحثنا بالمذات . حيث رصدنا الانتاج الأدبى واللغوى معا ، ورتبنا اللغويين حسب مدارسهم فكان هناك تياران يتنازعان اتجاهات النقد ، كثيرا ماكان التيار المحافظ يسيطر على تفكير هؤلاء وأعمالهم مما جعله أكثر الابحاث أجراما تدور فى فلك القديم وأساليبه .

ولم نترك شوارد هذا النقد اللغوى على حالها ، بل أخذنا بضبطها وفق نسق موحد جرينا عليه منذ مبحثنا الأول . نعنى بذلك التناول الأفقى لأعمال اللغويين دون أن نذهب فى دراسة علم واحد أو اثنين أو ثلاثة بل الكل يندرج تحت مدارس عامة وضعنا لها أسماء أو غيّرنا بعض أسماء جاء بها باحثون قبلنا .

٢ — بيان مجمل بمراجع البحث وصلتها به :

تنقسم مراجع البحث الى قسمين رئيسيين : أولهما مؤلفات لغويى القرن أنفسهم . والثانى ماجاء من دراسات حول الموضوع .

أما مؤلفات اللغويين فقد صعب علينا كثيرا الحصول عليها وذلك لندرتها أو عدم وجودها أحيانا . واننا لنسجل هنا ما لمكتبة " جامعة بيروت الامريكية " من فضل فى الحصول على هذه الكتب النادرة ككتاب " ارشاد الورى فى تخطئة جوف الفرا " للشيخ يوسف الأسير ، وكتاب " رد الشهم للسهم " أيضا . وكتاب " رد السهم عن التصويب " للشيخ ابراهيم الأحدب . و " السهم الصائب " لسعيد الشرتونى . و " لسان غصن لبنان " لشاكر شقير . وغير ذلك من المراجع التى سهل علينا مطالعتها فى المكتبة المذكورة .

هذا ونشكر ماقدمه موظفو مكتبة " جامعة بيروت العربية " ، وموظفو " دار الكتب الوطنية " من خدمات جلى ورعاية مثلى .

أما الكتب التى عالجت شيئا من أبحاثنا فقد توفرت ، ووجدنا فيها قبس هداية استنرنا كثيرا بها . نخص بالذكر كتاب الدكتور / محمد أحمد خلف الله عن أحمد فارس الشدياق ، وكتاب الدكتور / حسين نصار " المعجم العربى " .

هذا وقد وقعت أيدينا على مجلات كثيرة تناولت بعض القضايا المهمة كمجلة المجمع العلمى بدمشق والمجمع اللغوى فى القاهره وبغداد .

وأخيرا ، لايسعنا الا تقديم وافر الشكر والامتنان لسيادة الدكتور ، الفاضل ، العلامة حسن ظاظا لما قام به من رعاية وخدمة أبوية لهذا البحث .

فعسى أن يكون هذا الكتاب أول زهرة نقدمها لصنيعه وأياديه البيضاء .

بيروت فى : ١٢ أيار (مايو) ١٩٧٢ م

الجمعة فى ٣٠ ربيع الأول ١٣٩٢ هجرية

الباب الأول

لبنان وبلاد الشام

زحلة
بيروت
جبل عاملة
توزيع
مدارس الارساليات
في
لبنان

الفصـــــل الاول

الحيـــــــاة السياسيـــــــة

لبنـــــــان مذ كان :

كرة ضربت بصوالجـــة فتلقفهـــــا رجل رجل

أو ((صخرة حطتها الطبيعة على طريق الشعوب المتوثبة الى الفتح [1])) حتـى كان على كل عابر ملكا كان أو قائدا ، أن يتسلق تلك الصخرة ، وأن يحتال لمروره بكـــل وسيلة ، اما واعدا واما متوعدا • الغاية هي المرور ، فالوصول الى عدوه عبر لبنان •

وما القرون السابقة لمرحلة القرن التاسع عشر الا صفحة من تلك الصفحات التـــي تؤلف هذا السفر الكبيـــر •

وعلى احدى هذه الصفحات خط انتصار العثمانيين عام ١٥١٦ في مرج دابـــق، ودخل لبنان تحت نفوذ بني عثمان عقب ذلك الانتصار العسكري • وما الامر هذا بجلل ، انما الامر ، أمر ما نتج عن انقسام الامراء في لبنان ، فمنهم من أيد المماليك ، وظل ولاءه لهم ، كالامراء التنوخيين ، ومنهم من تعاون مع السلطان العثماني الوافد ، كالامراء المعنيين • ومنهم من حاول الاستقلال الذاتي ، كأمراء حبل عامل •

ثم ما كان من اضطراب وفتن وكراهية نجمت عن هذا الانقسام • والقرن التاسع عشر كليلة الدجاس ، خصب تحبل فيه العقول بالاحلام والاماني فتلد العجائب والغرائب•

---

(١) صقر لبنان ، عبود ، صفحة ٦

أما توزيعنا للأحداث السياسية ، فرباعي المراحل ، تدرجها في طورين رئيسيين •

— الطور الأول : يتألف من مرحلتي : — الأمير بشير الشهابي
(١٧٨٨ — ١٨٤٠)
— الحروب الأهلية
(١٨٤٠ — ١٨٦٠) •

— الطور الثاني : يتألف من مرحلتي : — الفتنة الأهلية
(١٨٦٠)
— نظام المتصرفية
(١٨٦١ — ١٩١٥)

الطور الأول :

— أ — مرحلة الأمير بشير الشهابي (١٧٨٨ — ١٨٤٠ م) :

لم يكن القرن التاسع عشر ، قرن فتور أو خمول ، أو مجموعة حوادث قصارها حبات تعلوه ، كتلك التي علت القرون السابقة له • بل كان قرن التغيير والتحول ، والحوادث الجسام التي هزت بوقعها أركان عواصم الدنيا • جاعلة البلاد في انقلاب جذري ، يأخذها الى حيز من الجلاء ووضوح الرؤيا ، وارهاصات ثقافية ، ما تدبها لاستقبال حياة اختمرت في رحمها بذور انبعاث وتجدد واحياء فكري ، سرعان ما حرك جمود الانسان ، في المنطقة ، ومهد السبيل لنهضة بزغت شموسها من كوى التخلف ، مبددة سجف الليل الصفيقة ، وندوب الصقيع الحضاري •

والتغيير ، كان يسعى الى تحديد المفهوم السياسي ككل ، وطبعه بطابع الذات الحاكمة ، التي تجعل من كل مرافق الحياة ، أجراما تدور بفلكها ، حتى اذا ما كان لها ذلك ، رضيت وباتت قريرة العين •

وأول نموذج من هذا الحكم شخصية الامير بشير الشهابي الكبير، الذى " كان يتمتع بشخصية قادرة محنكة جعلت منها التجارب قوة تميل الى البطش والارهاب ، كي تجعل الاستقرار في البلاد سائدا " (١).

هذا وقد خيب نجاح الامير في الحكم ، ظن من اعتقدوا به رجلهم الضعيف ولعل أول هؤلاء كان والي عكا أحمد باشا الجزار ، الذى كانت له اليد الطولى في تنصيب الامير على جبل لبنان • وقد اثبت احتكاك الامير مع غيره ، أنه خير وريث بار لسلفه الامير فخر الدين المعني الثاني •

ولم لا ، والامير بشير قد احتذى حذوه في تعزيز الحكم ، والاستقلال الذاتي والتطلع نحو الايالات المجاورة طمعا في ضمها ، وجعلها مناطق نفوذ تتبع الجبل سياسيا • ولعل هذا ما جعله يتشدد في جباية الضرائب من الشعب تأمينا للاموال اللازمة، لكن الثورة عصفت بأحلامه بددا ، واضطرته عام ١٨٢٠م للفرار الى حوران • وقد عرفت هذه الثورة بـ " العامية " (٢) .

لكنه لم يفقد بنا من نفوذه وسلطانه ، بل ربح الى بلاده بدور الدساتير يتدخل في شؤون سوريا وفلسطين ، وبشير واليا قد زال ، في كل من دمشق والقدس رصيدا رابحا من هذه الخصومات المحلية حينا ، خاسرا حينا ، حتى دهمته أحداث سياسية عالمية في السنوات العشر الاخيرة من حكمه •

---

(١) لبنان في التاريخ ، فيليب حتي ، ص ٥٠٠ — ٥٠١ (بتصرف)

(٢) العامية تعني ثورة يشترك الناس بها عامة •

وقد وضعت هذه الاحداث لبنان " بفضل موقعه بحكم السياسة التي اتبعها الامير على مسرح السياسة الدولية طوال محط الادوار مدة ثلث قرن " (١)

بدأت هذه الاحداث لما قام محمد علي باشا " عام ١٨٣١ " بغزو تركيا نارا في فلسطين وسوريا فان الامير اختار ان يكون الى جانب محمد علي حاكم مصر معلقا مصيره بمصير تلك الحرب • بمقابل هذا ابقى ابراهيم باشا قائد الحملة ادارة الحكومة في لبنان ، بيد الامير •

في حين جعل من سوريا ولاية تخضع له حكما مركزيا مباشرا ، معقبا ذلك برفع الضرائب التي تشدد جباته في كيفية سدادها من الشعب ، كما واحتكر الفاتح الجديد ، جميع الموارد الاقتصادية وسخر العمال اللبنانيين في استخراج الفحم والحديد من المناجم • هذا النهج السياسي الخاطىء ، وضع البلاد في جو ارهابي ، جعل القلوب تضمر السوء له ، وباتت الثورة نارا تحت رماد ، سرعان ما تطاير شررها اثر فرض الخدمة العسكرية على اللبنانيين بالذات •

وقد انتهز الامير بشير فرصة دخول جيش ابراهيم باشا للبنان لينقض على مدلقة جبل عامل ، ويضمها الى ولايته • الا ان العامليين " الشيعة " قاموا بعدة ثورات مسلحة ضد ابراهيم والامير معا كان اولها ثورة حسين الشبيب الصغير عام ١٨٢٩ ثم ثورة حمد البك سنة ١٨٤٠ م • وامتدت الثورة ضد الفاتح الى فلسطين عام ١٨٣٤ ممتدا لهيبها الى جبل النصيرية في شمال سوريا فحوران ، وما ان بدأ عام ١٨٤٠ حتى كانت الثورة في جبل عامل تشتعل ضد الفاتح والامير معا بقيادة حمد البك • ثم اندلعت ثورة

---

(١) لبنان في التاريخ محتي ص• ٥١١

عامة في لبنان باسره ضد الحكم المصرى ولم تحد محاولات الحاكمين ابراهيم والامير بشير ، نفسا في تهدئة الثائرين خصوصا وان ابراهيم لبث بوعده حين اصر في بداية عام ١٨٤٠ على ان يسلم الموارنة — وهم فرقة من سبعة آلاف رجل كانوا قد حاربوا مع ابراهيم الدروز في حوران — اسلحتهم •

وقد عرفت هذه الثورة بـ " عامية " ١٨٤٠ حيث عقد الثائرون — دروز ونصارى وشيعة وسنة — مؤتمرا بانطلياس في الثامن من حزيران واقسموا يمينا عند المذبح في كنيسة مار الياس على ان يعملوا يدا واحدة •

وقد بعثوا بنداء الى اتباعهم ليثوروا ضد الحكم الظالم وتعاهدوا في ما بينهم " على ان يحاربوا ليستردوا استقلالهم او أن يموتوا " (١)

وقد ضايق الثائرون الجيش المصرى ، ونهبوا مستودعات المؤن والذخيرة واصطادوا مع العدد في مناوشات لم تلبث ان اتسعت حتى عمت جميع اطراف البلاد • وفي الوقت ذاته، كان اسطول يتألف من سفن انكليزية ونمساوية وتركية يهاجم بيروت بالميناء الذى اتخذه الجيش المصرى قاعدة له وينزل الجيوش على شواطئ جونية (٢)

وفي العاشر من تشرين الأول ١٨٤٠ استسلم الامير بشير للانكليز وباستسلام الامير ينسدل الستار عن حاكم قضى في سلطته قرابة نصف قرن من الزمن •

---

(١) لبنان في التاريخ محلي ص: ٥١٥ •

(٢) نفس المصدر (ص: ٥١٥) (بتصرف)

ـ ب ـ فترة الحروب الأهلية : (١٨٤٠ ـ ١٨٦٠)

تلت ولاية الأمير بشير فترة اضطرابات وقلاقل ، كان من اسبابها زوال الزعامة القوية ، ومحاولات التدخل الأجنبية ، ورغبة الدولة العثمانية في السيطرة الكلية على لبنان ، وانهاء امتيازاته الاستقلالية •

وذر قرن الخلاف بشكل لم يستطع معه الأمير بشير الثالث (١٨٤٠ ـ ١٨٤٢) تهدئة الأحوال ، لما كان به من شخصية ضعيفة، وقلة خبرة •

وما الفتنة الأولى ، التي اشتعلت نارها بين الدروز والنصارى (وتعرفها العامة بالحركة الأولى) الا دليل على فساد حكم هذا الأمير •

وقد اسفرت هذه الفتنة الأولى عن فقدان الثقة بين جزئي سكان البلاد وذرت الكراهية وعمقت البغضاء • كما أصبحت هذه الفتنة النمط أو النموذج لفتن لاحقة أشد هولا منها •

وبعد عزل الأمير الضعيف سنة ١٨٤٢ ، عين الباب العالي لأول مرة واليا تركيا على لبنان • لكن فشل الحاكم التركي في لأم الصدع الطائفي ، وتفاقم الاضطرابات واحساس اللبنانيين بضياع امتيازاتهم ، حتم على الدولة العثمانية بالاتفاق مع الدول الأوروبية وضع تدبير جديد يقضي بتقسيم جبل لبنان الى قائمقاميتين : قائمقامية شمالية للنصارى ، ومركزها بكفيا ، وقائمقامية جنوبية درزية مركزها بيت الدين • على أن يكون نهر الدامور حدا فاصلا بينهما ، وكلا القائمقامين مسئولان أمام والي صيدا المقيم في بيروت •

اما جبل عامل ،فقد آل الحكم فيه الى محمد البيك بعد قيامه بالثورة ضد ابراهيم باشا والامير بشير معا عام ١٨٤٠ • وصار الحاكم العام لمنطقة العاملين ، وبوفاته يخلفه ابن اخيه علي الاسعد (١٨٥٢ — ١٨٦٢) • وبوفاته تنشب خلافات بين ابناء علي الصغير حول الحكم ، فيلحق الجبل العاملي مباشرة بالحكم العثماني ، ويقضى على الاستقلال •

ويفشل نظام القائمقامية ، وتضطرب احوال البلاد ، وتشتعل الحوادث الطائفية مجددا في نيسان عام ١٨٤٥ ، ويعقبها اضطرابات اجتماعية عام ١٨٥٨ ، قادها الفلاحون ضد الاقطاع بزعامة طانيوس شاهين •

تلك الثورة التي لم تنته الا بعد تدخل من البطريرك الماروني والقنصل الفرنسي في بيروت آنذاك •

الطور الثاني : ١٨٦٠

أ — الفتنة الكبرى :

خلفت تلك السنوات الصعاب ، براكينا ، سحبا قاتمة في سماء العلاقات بين ابناء الطوائف • سيما الدروز والنصارى • كما زاد التقسيم والقلاقل والثورات والحكم الفاسد حدة الخلاف بين افراد الشعب الواحد ، في حين لعب الاتراك دور المشجع على هذه الفتنة ، التي اشتعلت عام ١٨٥٩ ، اثر قتال صبيين كانا

بلمسان ، احدهما درزي ، والآخر مسيحي ، في بلدة " بيت مري " فامتد خصامهما الى الوالدين ، ولم يلبث ان شمل الطائفتين ، وامتدت الحركة من " بيت مري " الى ان شملت جميع المناطق اللبنانية المأهولة بهاتين الطائفتين . ثم امتدت الى دمشق ووادي التيم .

واذا كنا نعتبر ان هذه الحادثة هي السبب المباشر لاشعال نار الفتنة ، فمما لا شك فيه ، ان اسبابا اخرى غير مباشرة تكمن تحت الرماد ، غذتها الايدي الاجنبية الآثمة ، فجاءت هذه الحادثة ، فكانت بمثابة القشة الاخيرة التي قصمت ظهر البعير .

وتعددت المعارك ، وكثرت الضحايا وعم الخراب والدمار وفشى البلاد قحط وتشريد محيين . تكثر الشؤم تدريجا على وجه كل لبناني ، كل ذلك " والجيش التركي النظامي لم يحاول ان يوقف القتال الذي نشب ، بل كان موقفه على نقيض هذا ، فان اساء معاملة المهاجرين اللاجئين الى بيروت ودمشق ونهب ما يحملون من ثياب واموال " (١) .

اما الدول الاوروبية ، فانها لم تحرك ساكنا الا بعد ان تعمد لبنان بدماء الابرياء ، فعقد مؤتمر دعت اليه فرنسا ضم بريطانيا والنمسا وبروسيا وروسيا

---

(١) لبنان في التاريخ ، حتي ، ص ٥٣١

وتركيا تثور فيه التدخل لايقاف المذابح وتم الغاء نظام التقسيم الى قائمقاميتين ، ووقع في اسطنبول ، على نظام جديد للحكم في لبنان يعرف بـ " نظام ١٨٦١ " او " نظام المتصرفية " . الذى وضع موضع الاختبار مدة ثلاث سنوات ، ويبدو انه نجح بالقياس الى نظام القائمقامية ، فعدل عام ١٨٦٤ ، وظل معمولا به الى نشوب الحرب العالمية الاولى[1] ، عندما الغاه جمال باشا .

ولئن ذكرت الفترة هذه بويلاتها ، فالتاريخ لا ينسى صنيع الامير عبد القادر الجزائرى ، الذى حمى في دمشق اكثر من الف مشرد وهارب من القتل ، مسطرا بنبل اخلاقه صفحة مشرقة وحيدة من صفحات تلك الايام السوداء .

---

(١) لبنان في التاريخ ، حتي ، ص ٥٣٦

ب - نظام المتصرفية : ١٨٦١ - ١٩١٥

قسّم جبل لبنان ، بمقتضى النظام السابق ، الى سبعة أقضية ، قضاء الكورة ، البترون ، كسروان ، المتن ، الشوف ، زحله ، جزّين .

وكان على رأس كل قضاء قائمقام يختار من الاكثرية التي تمثل هذا القضاء . وعلى هذا فقد كان توزيع القائمقاميين على النحو التالي :

ثلاثة من الموارنة ، ودرزي واحد ، ومسلم سني ، ومسلم شيعي وواحد من الروم الارثوذكس ، وواحد من الروم الكاثوليك .

هذا لم يكن لبنان " المتصرفية " في حدوده آنذاك يشمل البقاع ووادي التيم . كما أن بيروت وصيدا فصلتا عنه . وبهذا تكون موانئ لبنان القديمة ، بيروت وصيدا ، وطرابلس ، قد وضعت تحت اشراف الدولة العلية المباشر .

ولم تخل فترة " المتصرفية " من ثورات وقلاقل ، لكنها سرعان ما تهدأ بسبب تغيير الحاكم كل خمس سنوات (١)

ويمكننا القول ، ان نظام المتصرفية في لبنان ، له فضل في تنمية الروح الديمقراطية والوطنية في لبنان نموا مرموقا برغم جميع العقبات ، حصل امن

---

(١) لبنان في التاريخ ، حتي ص ، ٥٣٧

(٢) باستثناء الحاكم الاول ، داود باشا الارمني ، الذي حكم ثمان سنوات .. (١٨٦١ - ١٨٦٩) .

جامعة أم القرى مكتبة المركزية

واستقرار وعدل وحرية في الفكر والقول ، ونظام ديمقراطي أكثر من ذي قبل • وتألف في لبنان مجلس ادارة للاشراف على توزيع الضرائب وطرق جبايتها وامداد المتصرف بالرأي في الامور الهامة • وتألفت ضابطة من اللبنانيين دون سواهم •

ومارس اللبنانيون حقوقا وطنية طبيعية باشتراكهم في انتخاب شيوخ الصلح فأعضاء المجلس الاداري •

لقد كان لبنان في عهد المتصرفية يتمخض ليستكمل الكيان اللبناني بحدوده الحاضرة واستقلاله وسيادته الوطنية وجمهوريته ذات الدستور الديمقراطي • وشعبه المتماسك في وحدة وطنية لا انفصام لها (١) •

---

(١) الكتلة الوطنية . . ص، ٣٣٩ •
التنشئة الوطنية لمساسه

الفصل الثـــــــاني

الحياة الاقتصاديـــة والاجتماعيـــــــة

أ ــ الواقع الاقتصادي :

لم يكن الشعب كله ، يملك أرضه ، أو جهده ، أو نفسه • كان سلعـــة وأداة في أيدي الحكام ، وتسلسل مراتبهم • فأدنى جندي ينتزع أرض الفلاح أو وسائل الزراعة أو المؤونة ، متى عنّ له ذلك •

السلطان في عوز دائم الى المال ، يبذله على ملذاته وفخامة قصوره واتساع حاشيته وأعوانه • وكان المورد النازف دائما هو الشعب •

فاذا اضطر الى المال ، وضع دواما ضريبيا جديدا ، أو فرمانا يقضي بوضع بعض الأملاك العامة ، أو الخاصة ، في المزاد ، أو يبيع الرتب والأوسمة لمن طلبهـــا. كل ذلك ، قليل أمام صلافة جباة الضريبة الذين يجمعون الى جانب ما يفرض على الناس في القرى والمدن من ضرائب ، كل ما يقع تحت أيديهم من المؤونة والبذار ، ويبيعـــون ذلك ، فيدفعوا للوالي أو للأمير الاقطاعي ما فرض ويقتسمون الباقي •

وتفشت الرشوة تفشيا علنيا ، يرتفع مقدارها بارتفاع مرتبة الموظف فيحكـــم البريء بالاعدام ، ويبرّأ المجرم •

وطغى في كثير من الاحيان بالقتل والنهب والسلب • يقضي الامير على من يخالف امره ، او من يظن انه خالف امره ، لدسيسة او وشاية ثم يزعم انه سيقتص من القاتل فيقتل من يشاء باسم القصص ليتخلص من العناصر التي لا يرضى عنها فلا حرمة لحياة ، ولا مكانة لانسان ، الكل مهدد المصير كل حين ، والعائلات عرضة للجوع والتشريد •

" اما الزراعة — وهي العمل الاقتصادي الرئيسي الذي يتعاطاه اكثرية السكان — فقد كانت على مستوى بدائي ضيق يكفل للفلاح قوته اليومي • اي ان الزراعة لم تكن عملا اقتصاديا من النوع التجاري الذي يكفل للمرء طعامه وارباحا اخرى لسد حاجاته الاخرى • ولكن في سهل البقاع حيث التربة خصبة ، والماء متوفر كان الفلاح يكسب عيشه وعيش عياله " .(١)

وعلى هذا فالزراعة متخلفة جدا تعتمد على الوسائل القديمة، "الرومانية" والاقطاعي يعتبر نفسه مالكا الارض ورقاب من يعمل فيها •

والسخرة وسيلة من وسائل الاستغلال ، تمد الطرق وتنفى التصير للاغنياء، وتنشأ حدائقهم بسهد ابناء الشعب غير المأجور •

وفوق ذلك تفرض على " المسلمين منهم " الجندية الاجبارية فينتزع من يعملون لاعالة عائلاتهم ليموتوا في الحرب او عريا ، او بردا ، دون راتب •

لبنان في التاريخ حتي ص • ٥٧٢

والتجارة نفسها في ايدى الاغنياء وهي خاضعة على كل حال للظروف السياسية ، والاستغلال ومشيئة ذوى الحاكم •

" اما الصناع فكانوا صناع قرى اى ان انتاجهم لم يكن يتعدى استهلاك اهل قريتهم وكان لكل بيت نول يدوى لحياكة ما يحتاجون اليه من الاقمشة • وكانت علاقتهم التجارية تجرى على اساس الجوار الودى ذاته مان لم نقل العائلي ، الذى كانت تجرى عليه علاقتهم الاجتماعية في القرية • وكانت التجارة والاعمال التجارية تجرى على اساس شخصي يتميز بالتعاون والثقة " (١) •

اما علاقة هؤلاء واولئك مع الجند الحكام او الموظفين ، فلم تكن الا صورة سوداء بشعة • لما كانت عليه من اهانة واستغلال فمعظم الواردات تذهب الى الضرائب او الى جيوب الاقوياء •

ب — الواقع الاجتماعي :

انعكست آثار الاضطرابات السياسية والاقتصادية على الحياة الاجتماعية ، واثرت فيها حتى باتت متداخلة كأمشاج مؤثر اللون بالغ تأثيرا كبيرا • ولقد كان من اثر ذلك على بنية المجتمع ، انه كان في احط مراتب الوجود في العهد العثماني خاصة • كما ان الخلل العام انسحب على التركيب البشرى وترتيبه الطبقي حتى ان اضحى مبددا يعاني من البؤس والتفقر والحرمان •

---

(١) لبنان في التاريخ ، حتي ، ص• ٥٧٢

ورغم انفجارات زمنية تكتب بمجرى حاكم عادل ، وطني ، فقد ظل المجتمع يشكو من تلك القلاقل السياسية التي عصفت بأمنه واستقراره الاجتماعيين •

أضف الى ذلك كله ، مشكلة البطالة التي عمت غالبية السكان من الفلاحين والعمال ، حتى صارت مظهرا عاما • وشكوى الطبقات الكادحة • وهي ان غابت أحيانا في زراعة الأرض — وهي ملك للاقطاعيين من مقدمين وشيوخ — أو في الانشغال بمشاريع حكومية ، تأخذ غالبا ، طابع السخرة المصطبغة بشتى ألوان القسوة والتعسف فانها سرعان ما تعود مكثرة عن انيابها ، حاصدة الامال في غد افضل • ويقول الشدياق ، ابن القرن التاسع عشر شاكيا رقة الحال والبطالة يومها :

" اني أرى جسمي كل يوم في ذبول ، ونفسي في انقباض ، ولو كنت عرفت من قبل
" ما أصير اليه لما سلكت هذه الطريقة • غير ان أبي وامي فقيران ، وخشيا أن أكون
" من ذوي البطالة والتعطل • اذ لا صنائع نافعة في بلادنا يمكن للانسان أن
" يتعلمها ويعيش منها • "

هذا وقد تركت تلك المعالم ، غير المستقرة ، سياسيا ، أصداءها في تركيب بنية المجتمع • وامتدت أصابعها لتتلاعب في تكوينه اقتصاديا واجتماعيا •

أما التكوين الاجتماعي ، فقد كان مبنيا على الاسس الاقتصادية ، حيث انقسم المجتمع اللبناني الى طبقات أربع :

أ ــ طبقة الحكام والأسر الاقطاعية :

وهي صاحبة النفوذ في البلاد ، وصاحبة الأمر والنهي فكثيرا ما كانت تتمتع بامتيازات تجعلها مستعبدة للطبقات الدنيا ، وهي سبب كل فساد ألمّ بلبنان في ذلك الزمن .

ب ــ طبقة رجال الدين والاكليروس :

وكانت تدعم الطبقة الأولى وتساندها في كل استغلال موارد البلاد وطاقات الشعب . وقد كانت هذه الطبقة أعلم بلاء وأشد خطرا . فقد كان بعض المتمردين يعلنون سخطهم على الطبقة الأولى . ويهبون مطالبين ببعض ما كانوا يرونه من حقوقهم . ولم يكونوا يخشون سوى العقاب الجسدي، الذي كان يهون احتماله على بعض النفوس الكبيرة .

والوطن يفخر ، أنه في اشد الفات تاريخه كثافة ، لم يخل من متمردين يدعون على المستبدين أحلامهم بالسيادة الهاشمة ، ويقضون عليهم مضاجعهم الوثيرة .

أما الطبقة الدينية فقد كانت تتمتع بما للأولى من امتيازات أرضية زمنية ، توازرها امتيازات روحية دينية ، وهي اشد وأقوى تحكما في رقاب اللبنانيين الذين كانوا أقرب الى السذاجة والفطرة منهم الى التفتح العقلي ، والأخذ بمفاهيم الفلسفة المنطق ، فكانوا يستجيبون لرغبات رجال الدين التي كانت تذهب من أمرها شططا غريبا دون أن تقف عند حد .

وكثيرا ما كانت هاتان الطبقتان تتساندان لتحقيق غايتهما ، وارهاق الشعب الذي كان يئن من نظام التسخير والضرائب ، والنهب وسواها ... فتستعين واحدتها بالاخرى ، فيستخدم الامراء والحكام نفوذ رجال الدين لتسيير أمورهم وكذلك رجال الدين ، يستخدمون السلطة لتنفيذ رغباتهم . والشعب في كلتا الحالتين مغلوب على أمره . متحكمة به " سلسلة من الاستبداد يجرّها الحكم المطلق وراءه ، تمتد حلقتها الاولى من استنبول لتتصل بالحلقة الثانية في صيدا أو عكا . أما الحلقة الثالثة ، ففي دير القمر وبتدين . وهي الكلابة المطبقة على رقاب الشعب " (١)

ج — طبقة الجند :

وهي عصا الطبقتين السابقتين ، يلوّحون بها كلما شاموا تمردا ، أو أحسّوا بعصيان . فهي وسيلة التنفيذ والطغيان والارهاب المسلطة على النفوس التي باتت " أرخص متاع في هذا العصر ، حيث الامير أو الوالي يعمد الى ارخاء العنان لخصمه حتى يجمع ما يجمع من أموال العباد حتى اذا رآه قد سمن واستدارت اليته أرسل جنده ، لينحروه ويصفوا أمواله ودمه ، ويستولوا على عقاره ويشردوا اولاده ، هذا اذا لم يقتلوهم . أ الفر لذئاب غرثى ، والويل لمن يؤخذ على حين غرّه . جند مرتزقة في عصر ارهابي شريعته القوة والعنف وسنته النهب والقتل " (٢)

---

(١) صقر لبنان ، . مارون عبود ، ص ١٩

(٢) صقر لبنان ، عبود ص ، ١٩ (بتصرف) .

د ـ طبقة عامة الشعب :

كانت هذه الطبقة ، تمثل قاعدة الهرم وعلى اكتافها ثقل البناء كله وهي هدف الطبقات الثلاث ، اليه توجه سهامها وتراشق نبالها • وكأن الطبيعة كانت تتعاون على ارهاق هذه الطبقة التي باتت كبقرة حلوب وهي على غير غذاء تتناوب الايدى على سرقتها فمعظم الشعب الا اقله يعيش في ظروف بائسة جدا بالعائلة كلها تحيا في غرفة واحدة ، تنقصها كل اسباب النظافة والصحة ، وخاصة في القرى • فالدواب والفلاح وعائلته يحيون في ما يشبه الزريبة • والغذاء مقصور على اقل المواد نفعا ، وعدم الدراية بتدبير المنزل والجهل المطبق يزيد من الوضع سوءا ، والبطالة شاملة وعدد العاطلين عن العمل اكثر بكثير من العاملين ، مما فتح الباب واسعا امام السرقة ، وقطع الطرق في سبيل العيش •

وكان المجتمع يعطف على قطاع الطرق المتهورين ، فكأنهم المتنفس الوحيد ضد الظلم والقهر ، والمرض متفش ، فلا اطباء الا الندرة النادرة وحتى في المدن • واذا وجد الطبيب والدواء بعض الاحيان ، لم يكن في مقدور الشعب المريض ان يتداوى لضيق اليد • وقد يطغي وباء كالكوليرا ، فيحصد الارواح حصدا حتى يختفي المرض ذاته بعوامل طبيعية وغير ذلك • والدولة لا تقوم بأى جهد وكأن الامر لا يعنيها •

وكان وضع المرأة ماسوأ من وضع الرجل مهما كان وضعه من السوء فهي سلعة ، لا ارادة لها ولا رأى ولا قيمة • يتصرف بها الرجل كما يشاء •

هذا التركيب الاجتماعي الجائر بحق الاسرة بالقائم على تعاون الاقطاع السياسي والاقطاع الديني ،وفساد نظام الحماية الذى كانت تتبعه السلطة وتسخير الاهالي ، وارهاق كواهلهم ،جعل اللبنانيين يتطلعون مفتشين عن الخلاص ، الذى لم يجدوه احيانا الا في الهجرة •

فأخذوا ينزحون فرارا من هذا الظلم المحيق بهم ، طلبا للحرية وتحقيقا لمستوى معيشي لائق •

ـ الهجـــرة :

وكانت هجرة اللبنانيين تنحو منحيين : داخلي وخارجي •

ـ اما الداخلي ، فقد تم اثر نزوح الكثير من اللبنانيين وخاصة اهالي القرى الجبلية وغيرهم ، من انحاء سوريا الى بيروت على اثر حوادث سنة ١٨٦٠ • وقد احـــدث هذا النزوح حركة اجتماعية في العاصمة وزاد تدوم الاجانب اليها للتجارة والتبشير في ظل الامتيازات الاجنبية فتكاثروا بعد ذلك وانشأوا المدارس على اختلاف اغراضها •

وقد طرأ نتيجة لذلك ، ومن بداية العقد السابع من القرن ، بالتحديد ، تبديل يذكر في المظاهر الاجتماعية اللبنانية ،حيث بدأت طلائع الزحف الاجتماعي من اوروبا تتوغل في البلاد ، ومرجعها اولا الى المعاهد الكبرى التي تتنافس على انشائهـــا المرسلون الاجانب ففتحوا في الشرق منافذ على حضارة الغرب واحواله الاجتماعيـــة، فتنبهت الافكار ، وتطلعت العيون ، وصبت النفوس الى الاغتراف من مناهل ذلـــك الجديد ، كما اقترن بذلك بانشاء الصحف وتأليف الجمعيات الادبية والعلميـــة ، وقيام فن التمثيل واقبال الادباء على ترجمة الكتب الاجنبية ، واطلاع الناس على ما في الغرب من اسباب الحضارة • فأثر هذا كله في النفوس الشرقية ، وجلا للبلاد حالا اجتماعية جديدة ، سرعان ما انتشرت في كل البلاد ، واعتنقها اللبنانيون وساروا فيها ، شوطا بعيدا •

ـ أما المنحى الخارجي للهجرة : فقد استهدف مصر أولا ، وقد بدأت هذه الهجرة تنتظم بشكل جارف ببداية العقد التاسع من القرن الماضي ، حيث ترك الكثير من اللبنانيين ، وجلهم من النصارى ميممين وجوههم شطر بلاد النيل ، التي استهوتهم لما كان قد بدأ به الخديوى اسماعيل (١٨٦٣ ـ ١٨٧٩) من تغيرات تتفق مع رغباته في جعل مصر بلدا عصريا وقد لاقى في السوريين و(اللبنانيين خاصة) خريجي الجامعات والارساليات والذين يتقنون اللغات الاجنبية ، موظفين أكفاء ...

وقد استمر عمل الكثير من هؤلاء المثقفين في المرافق الحكومية والعامة لفترة ما بعد الخديوى اسماعيل . وقد أثرت هذه ، الطبقة تأثيرا بينا في النهضة الثقافية المصرية ، سواء في الصحافة ، أم في الادب والطب . وتبعت رحلة هذه الطبقة المثقفة الى مصر ، رحلة التجار وأصحاب الاعمال ، فوجدوا في مصر ، موطنا ثانيا ، وقد شجعهم على هجرتهم هذه ما لاقوه من اخوانهم العرب في مصر من حفاوة وترحيب . وتدل الاحصاءات اللبنانية الرسمية الى أن عدد اللبنانيين في مصر أصبح عام ١٩٠٢ ، حوالي ثلاثين ألف نسمة .

الفصل الثالث

الحياة الثقافية

من أسوأ ما أصاب الشرق العربي من شر لدى وقوعه تحت الحكم العثماني ، هو ذلك الانكماش الفكري ، وتلك العزلة العقلية التي أبعدته عن مسارب الثقافات ، وأبعدت عنه تأثيرات التيارات الأجنبية اللازمة لكل نهضة . فقد كان ذلك الانكماش وتلك العزلة ، استارا كثيفة حالت دون التلقيح الفكري اللازم لكل تقدم وتطور ، مما أدى بالشرق العربي الى شبه سبات جعله في مؤخرة الركب الحضاري ، بعد أن كان رائدا له منذ قرون خلت .

غير أن لبنان بفضل موقعه الجغرافي ، وبفضل اتجاهه الى الغرب منذ العهد الفنيقي الى أيام الأمير بشير الثاني ، كان الى حد ما ، أكثر تجاوبا مع تلك التيارات الفكرية ، وأكثر ميلا الى تقبل الحضارة الأوروبية . ومرد ذلك ، الى أن الستائر العازلة التي أسدلها الأتراك على لبنان ، كانت أقل كثافة ، وأكثر شفافية من تلك التي أسدلوها على سائر الولايات في العالم العربي . وعلى الرغم من اتصال لبنان منذ أقدم الأزمنة بأوروبة ، فان التغيرات الجذرية في حياته لم تتم الا في النصف الثاني من القرن التاسع عشر .

أما في مطلع القرن ، فقد كان ، كغيره ، يغط في سبات عميق من الجهل لانعدام وسائل التعليم فيه ، فلم يكن هناك مدارس تعلّم ، أو كتاب يهذب . كما يجب أن تعلّم المدارس أو يهذب الكتاب .

كما ، وليس هناك أمل في وجود ذينك القسين الهاديين ، وأمر عجاب من أمة باتت من غير مدرسة ، وأمست من غير كتاب ، كيف لها أن تبني مجدها ، انه أمر لا يستطيع أهل العصر الحديث تصوره .

أجل فالمستوى الفكري كان منخفضا جدا ، حيث اقتصرت أشباه تلك المدارس ، مسيحية كانت أو اسلامية على التعليم الابتدائي وتدريب الناشئة (القلة منهم) على أمور دينية لا تتعدى معرفة الطقوس والقيام بها .

ويمكن أن نعتبر مدارس ذلك الزمان ، لونا من ألوان اجتماع الصبية الصغار في " كتاب " ، أو تحت السنديانة ، أو ينتحون زاوية في الجامع أو يصطفون خدا مستقيما قرب حائط الكنيسة ، وبين أيديهم ورقة الألفباء أو الأبجد ، حتى اذا ما لقنوا الحرف [1] أعطوا بدل ذلك وريقات الزبور يزجون بها يومهم بتمويدات لها وليس المسلمون في كتابهم بأفضل حال ، من اخوانهم المسيحيين ، كل في قراءة سقيمة ، لا تجدي ولا ترفع ضم جهل غشى العقول .

كما كانت ندرة الكتب عاملا من عوامل تأخر التطور الثقافي ، أو جموده على الأقل وذلك يرجع الى قلة المهتمين أولا ، وقلة المطابع ثانيا ، التي وان وجدت في بعض الأديرة ، فان وجودها لا يعدو نطاق عمل بعض النشرات الدينية الخاصة بالطقوس .

" أما الصحف والمجلات العربية فلم يكن لها أدنى وجود قط " [2] .

---

(١) روّاد النهضة الحديثة ، مارون عبود ، ص ٢٠ (بتصرف) .

(٢) يقظة العرب ، جورج انطونيوس ، (ترجمة الاحسان عباس) ص ١٠١ .

ويقول حتي من ذلك العصر " وكان عدد الكتب المستوردة من الخارج قليل جدا ولم يكن ثمة ترجمات عربية لكتب غربية ذات قيمة ، فلو أن أحد الناس كان يرغب في الحصول على كتاب يبحث قضايا طبية فقد يقدم له بائع الكتب نسخة من طب ابن سينا . وكذلك لو رغب أحد الناس في اقتناء كتاب في الصرف والنحو لقدم له البائع كتاب سيبويه " الكتاب " أو شرح ابن عقيل لألفية ابن مالك .

أما الكتب الحديثة في العلوم الطبيعية، أو من جغرافية البلاد أو تاريخها الحديث فكانت في حكم المعدومة (١) .

ولم تمض الفترة دون سوانح ، أو انفراجات تنم عن تنام ثقافي يشع هنا وهناك كذلك التواصل في الدرس الديني واللغوي في مدارس جبل عامل ، التي بقيت تخلق شخصية العاملي في جبله ، حافظة اياه من أن يغيب في مهامه الاستبداد التركي ، مهيئة أحيانا علماء يسعون الى جامعة النجف الأشرف ، لاكمال تحصيلهم العالي ، حتى اذا ما رجعوا الى جبلهم ، حفظوا للعلم عهدا ، وحملوا مشعل الهداية في مدارس توهجت في أماكن كثيرة من أرض عاملة ، مبددة شيئا من عتمة الجهل والفتور .

---

(١) لبنان في التاريخ ، حتي ، ص ٥٥٩

وهذه أيضا الكنيسة المارونية ، تبذل بعض الجهود لايجاد تعليم أرقى في مدارسها ، جهود ايجابية تمثلت في بعث " عينطوره " التي كانت معهدا دينيا لتدريب رجال الكهنوت عام ١٧٢٨ ، وفي تجديد مدرسة " عين ورقة " التي كانت تتبع الدير ، ثم صارتا تعنيان بتشجيع دراسة الأدب العربي واللغة ، مما هيأ ظهور أكثر البارزين من الأدباء والأساتذة والعلماء الذين ظهروا في النصف الأول من القرن التاسع عشر ، كبطرس البستاني وأحمد فارس شدياق وكثار غيرهم .

غير أن هذا العطاء الكنسي أو ذاك القبس العاملي ، أو ما تدّ عن بعض الكتاتيب ، أو تلك المعارف الأولية في مدارس الدولة العثمانية ، لم يكن له من القوة الكافية ما يكفل بتبديد الجهل المطبق على الأمة الا شيئا قليلا ، فانه لم يقو على الليل الدامس ، فاللغة نفسها قد انحطت وفسدت وصارت لغة التخاطب مخالفة للأصول الفصيحة ، حتى كادت هذه العامية تطغى على الفصحى وتفسدها . ويحدثنا جورج انطونيوس عما صارت اليه البلاد وقتها فيقول : " وقد بلغ الفساد الذى أصاب اللغة الفصحى في مطلع القرن التاسع عشر ، مبلغا كبيرا على الأقل في بلاد الشام — وأدى الى انحطاط خطير ، وخاصة في لغة النصارى .

وزاد الأمر سوءا أن أدب العصور الزاهية قد نسيته ذاكرة الناس واندرس واندثرت نماذج البيان الأدبي ، وانمحى ما كان لهذه الثقافة العظيمة من أثر روحي (١)

---

(١) يقظة العرب ، انطونيوس ، ص ١٠٢

أما فن الكتابة ، فقد كان على جانب كبير من الانحطاط والركاكة يتصل بأساليب عصر الانحطاط وهذا ما جعل ثورة العلماء أمثال الشدياق والبستاني واليازجيين وشقير والأحدب والشرتوني ... عارمة في وجه التقليد والمقلدين ، واصحاب السجع والتكلف اللغوى الذين أماتوا الابداع والتجديد الفني في الأسلوب .

فالانشاء ، في مطلع القرن الماضي ، سقيم لا يجرى على قواعد اللغة وعلومها ، بل فيه من العامية والركاكة الأعجمية ما يجعلنا في سأم وملل من تناول تلك النصوص التي لا يتبين فيها لغة معربة ولا عبارة صحيحة .

وقد ظلت لغة الرسائل الأدبية في النصف الأول من القرن الماضي على ما كانت عليه في القرن السابق " أى الثامن عشر " ، حتى اذا ما كانت بدايات النصف الثاني من القرن التاسع عشر هذا ، أخذ الانشاء يتحول من الاسلوب القديم العقيد الى الأسلوب الجديد الحر " المرسل " . وقد أعان على ذلك ظهور علماء جدد وانتشار العلم والتجارة والاحتكاك بالعالم الغربي ، ثم نشوء الصحافة وانتشارها بين طبقات الشعب .

وقد جاء في مقال العارف نكد ما هو في صدد هذا المعنى ، حيث يقول : " كانت اللغة حتى عهد (هؤلاء العلماء الشدياق والبستاني واليازجي وغيرهم) في حالة العريض يحتضر ، أغلاد في الألفاظ مفردة ، وضعف في الجمل مركبة . وأسلوب سقيم ، وتعبير غير مستقيم ، ولا ضابط ولا وازع ، وليس من يرفع صوته بالتنبيه الى ما وصلت اليه اللغة العربية من التفكك المفضي الى الانحلال فالموت " (١) .

---

(١) مجلة المسرة / السنة ٣٣ — ١٩٤٧ / جزء ٦ / ص ٣٧١

في غمرة هذا المد ، من الجهل والتخلف ، لا يسعنا الا أن نذكر فضل أعلام كبار رفعوا راية اللغة عاليا ، وبعثوا درسها اللغوي متجددا وأحيوا تراثها بعد موات كالشدياق والبستاني واليازجيين والأسير والمعلوف وسواهم . ولهم يرجع الفضل في عودة الجدية الى المباحث اللغوية والأدبية والبلاغية ، التي كفلت للعربية وعلومها شوط النماء والازدهار ، وأمدها من الدفع الحضاري ما جعلها لغة أمة جديرة بالصمود ، ومكنها من أن تقف وقفة صمود أمام بشاعة التتريك العثماني .

انما قام به رواد القرن الماضي ، ليعتبر — بحق — مفخرة يعتز بها عصر النهضة وعهد الانبعاث القومي .

هذا ، ولا يخفى ما كان من أثر فعال لوقع الحضارة الغربية في حياتنا على التطور الذي رافق المنطقة وخاصة لبنان .

ويذهب بعض المؤرخين اللبنانيين الى تعظيم أمر هذا الاثر لوقع الحضارة الغربية على لبنان ، فيرد أسباب النهضة اليه ، لسبب أو لآخر . يقول حتي مثلا : " ان جميع الأحداث والتغيرات التي طرأت من سياسية واجتماعية واقتصادية وروحية وعقلية يمكن ردها مباشرة أو بالوساطة الى هذا العامل (١)

---

(١) لبنان في التاريخ ، حتي ، ص ٥٥٠

ولعل ما ذهب اليه حتي يعود في كثير من أمره الى ما قامت بـــه الارساليات الاجنبية من دور تعليمي ، ساهم في نشر الثقافة والوعي في البلاد .

ولا مندوحة من الاعتراف بأثر هذه البعثات وجهودها الحافزة على ايقاظ الحياة الفكرية ، وانماء الثقافة ، وبث روح التعليم ، بما أنشأته من مدارس فـــي مناطق متعددة من جبل لبنان والساحل . وبما أصدرته من كتب ومجلات ونشرات . وبما كان من أمر مدابعها الحديثة ، التي جعلت من الكتاب ، سلعة ، يسيرة التناول رخيصة الاثمان ، زادت معه حركة النماء في التعليم والثقافة .

كما ساهم خريجو هذه المدارس وخريجـو المدارس الوطنية من تحمل العبء الكبير من العمل الصعب ، والكفاح ضد الجهل والاستعمار ، فناضلوا في أكثـــر من ساح ، جاعلين من تراثهم بداية لحركة فكرية شاملة .

وقد امتازت حركتهم بوفرة الابحاث اللغوية ، واجادة علوم كثيرة ، عصريـــة مما ساعدهم على خوض ميادين عديدة في مجالات الحياة الاجتماعية والسياسيـــة والثقافيـــــة .

وقد نشأ على يد هؤلاء ، من ثم ، جيل ناهض أفاد من حركة ترجمة العلوم ونشر المؤلفات الحديثة والقديمة ، فأقبل على تدارس الاصول القديمة ، وعلـــى الصعب من الثقافة العلمية الطارئة بازدياد المعاهد الاجنبية بهمة منقطعة النظير . وواصل هذا الجيل العمل في بناء أركان النهضة ، جامعا بين الصالح من القديم ، والنافع من الجديد ، مع ميل الى الحفاظ على قدمه وتراثه والدفاع عنه . وكان ثمرة هذا العمل وذاك العطاء مدارس جديدة وطنية ، وانشاء صحف ومجلات ، وظهور جمعيات أدبية وسياسية ، وحركة نقل للعلوم ووضع المؤلفات وانشاء الابحاث . ونذكر من علماء هذا الجيل : رزق الله حسون ، وابراهيم اليازجي ، وأديب اسحق

ويعقوب صروف ، وجرجي زيدان ...

وقد سلك بعد هؤلاء أدباء طرقوا أبوابا جديدة ، وسلكوا مناهج فريدة بدأ نشاطهم في أواخر القرن الماضي ، ونضجوا وانتجوا في أوائل القرن العشرين كسليمان البستاني ، وجبران خليل جبران ، وأمين الريحاني ، ومي زيادة وميخايل نعيمة .

ولقد كانت جل عناية الرعيل الأول من أعلام هذه النهضة ، منصرفة الى احياء القديم ، مما جعله متميزا بالأبحاث اللغوية المعيارية في أغلب الأحيان على ما سنشهده في الفصول التالية .

الباب الثاني

لبنان في النصف الثاني من القرن التاسع عشر

الفصـــــــل الاول

المدارس وازدواجيـــــة اللغـــــة

لعل من العسير في شيء ان نقسم نشاط المدارس في لبنان ، خلال هذه المرحلة الى ثلاثة ادوار متعاقبة ، تتصل ببعضها بعضا عن طريق النســـب الزمنية في فترة القرن التاسع عشر ، وفترات ماضية سابقة له •

هذا ، وقد جعلنا البحث في كيفية تناول العلوم العربية ، واللغة خاصة حجر الرحى الذى تدور حوله الغاية • هادفين الى تحديد مراحل النمـــــو التعليمي في تلقين اللغة العربية ، وتحديد صورة العلائق التي مرت بيـــن العربية وغيرها من اللغات كالسريانية او التركية او الفرنسية والانكليزية • واثر ذلـــك كله على حركة الانبعاث القومي واحياء التراث في اواخر القرن الماضي وبداية عصـــر النهضة في القرن الحالي •

اما الادوار الثلاثة التي مرت بها اللغة في المدارس فهي على التوالي :

١ ــ الدور الاول : (حتى ١٨٣٤)

بيد أن لبنان مكان أوفر حظا من غيره في المنطقة العربية ، فقد تهيأت لـــه محاولات اتصال بالعالم الغربي ، وسوانح انفكاك من سلطة الحكم العثماني • جعلته اكثر تحررا من سياسة التجهيل التي اعتمدتها استمبول خلال خمسة قرون •

كما احتدمت رغبة تأسيس المدارس وتخريج الطلبة ابان فتح ابراهيم باشا لسوريا هذا الاحتدام كثيرا ما تمثل في صورة التنافس بين الارساليات التبشيرية في استمالة

الناس الى مدارسها • كل ذلك حمل هذا الوطن الصغير ، رويدا رويدا ، الى معارج من التطور الفكري ، ما لبث أن تفتحت أزاهيره في النصف الثاني من القرن التاسع عشر •

ولعل لبنان ، أول وطن عربي ، فهم القومية في العصر الحديث انفتاحا وعلائق فكرية وحضارية يقيمها مع العالم • فهذا أول ساع لديار الغرب ، بطلابه (الموارنة) الذين قصدوا مدرسة روما المارونية في القرن السابع عشر • وكان من أبرز الطلاب الذين عادوا الى وطنهم لبنان ومن ألمعهم (اسطفان الدويهي ١٦٣٠ — ١٧٠٤) الذى تسلم أرفع الرتب الاكليركية في الكنيسة ، وألف الكثير من الكتب (١).

" والاب بطرس مبارك القوسطاوي الذى حذق سبع لغات ، والذى انشأ أول مدرسة في لبنان • أنشأ مدرسة عيطوره ،••• ثم وكل تدبير شؤونها الى الاباء اليسوعيين سنة ١٦٥٢ م (٢) •

" وكان من جملة الاعلام البارزين الذين ظلوا في أوروبة يحطون وينشؤون المخطوطات ويكتبون وينقبون الصهيوني والحافلي والسمعاني •

---

(١) لبنان في التاريخ ، حتي ، ص ، ٤٨٨

(٢) صقر لبنان ، عبود ص ، ٥١

" وقد كان هؤلاء العلماء اللبنانيون مزدوجي اللغة ، فانهم كانوا يعرفون ويتكلمون اللغتين معا السريانية والعربية "(١) .

فجبرائيل الصهيوني (١٥٧٧ — ١٦٤٨) " ترجم الى الطليانية سنة ١٦١٩ " كتاب نزهة المشتاق في ذكر الامصار والافاق " للشريف الادريسي "(٢) .

" وقد نشر أيضا التوراة بلغات متعددة ، ومن جملتها الترجمة السريانية والترجمة العربية ، كما ألف كتابا في قواعد اللغة العربية يعد من أقدم كتب القواعد من نوعه " (٣)

" كما نسخ السمعاني ١٦٨٧ — ١٧٩٨ في سنة ١٧٣٧ الذى اطلق عليه البابا لقب " معلم البلاط الرسولي " (٤) .

" واليه يعود الفضل في جعل مكتبة الفاتيكان التي كان ناظرها ومديرها أغنى وأعظم مكتبة في العالم بالمخطوطات الشرقية . وقد قام بسفرتين الى الشرق طلبا للمخطوطات كما ضمن أبحاثه ودراساته لهذه المخطوطات السريانية والعربية والعبرية والفارسية والتركية والحبشية مؤلفا ضخما عنوانه " المكتبة الشرقية " (أربعة مجلدات ، روما ١٧١٩ — ١٧٢٨) ولا يزال هذا المؤلف مصدرا أوليا قيما للمعلومات التاريخية التي تتعلق بالكنائس الشرقية وتاريخها (٥) .

---

(١) لبنان في التاريخ ، حتي ص ٤٩٠

(٢) صقر لبنان ، عبود ص ٥١

(٣) لبنان في التاريخ ، حتي ص ٤٩٠ (بتصرف)

(٤) صقر لبنان ، مارون عبود ، ص ٥٠

(٥) لبنان في التاريخ ، حتي ، ص ٤٩٢

ومعنى هذا كله أن " لبنان قصد الغرب فأحضره الى الشرق "(١) يتكرر هذه البادرة" يوم ذهب الامير فخرالدين المعني الى توسكانة فتعرف في فلورنسا عاصمة الحضارة الغربية يومذاك الى نسق المعيشة والى الفن والى القصور. وحمل الى بلاده الرغبة في محاكاة الحضارة العظيمة "(٢)

" وهذا ما حمل الامير فخر الدين على السماح للارساليات الكاثوليكية، ولا سيما الكبوشيين ، في تأسيس ارسالية في صيدا واهدن ثم توسعت حتى شملت بيروت وطرابلس "(٣).

ورغم ضيق نطاق عمل هذه الارساليات ، فانها حاولت ان تعمل جنبا الى جنب مع المدارس الاهلية (المسيحية) في البلاد والتي لم يكن التعليم فيها سوى تعليم ابتدائي (" يرتبط بالدروس الدينية المذهبية في الدرجة الاولى ")(٤) ويرتبط في كثير منها بالاديرة التي كانت مراكز عبادة وتعليم.

اما المعلمون فقد كانوا رهبانا وقسيسين يعملون في خدمة الرعية ممازجين بين الوعظ او تعليم الطقوس وتلقين مبادىء العلوم السريانية والعربية. " اما

---

(١) لبنان الشاعر صلاح لبكي ، ص ٦٧ .

(٢) لبنان الشاعر صلاح لبكي ص ٦٧ .

(٣) لبنان في التاريخ حتي ص ٤٦٤ — ٤٦٥ .

(٤) تاريخ الاداب العربية ، زيدان ، جزء ٤ ص ٤٦ — ٤٧

السريانية هذه ، فقد كانت اللغة الاولى عند المسيحيين ، وهي اللغة المحكية بين الموارنة في الاماكن النائية المنعزلة (١) .

ولعل الذى زاد من تكريس اللغة السريانية في لبنان ، كون الشعائر الدينية تلقن وترتل بها ، وكون الذين تخرجوا من مدرسة رومة المارونية في القرن السابع عشر والثامن عشر ، وساهموا في وضع الاستشراق هناك كالصهيوني والحاقلاني وسمعان ، أو من عاد منهم الى لبنان " كانوا مزدوجي اللسان ، فانهم كانوا يتكلمون اللغتين السريانية والعربية " (٢) .

و" يقول ديلا روك الذى زار لبنان سنة ١٦٨٨ أنه وجد عددا كبيرا من الناس في لبنان في نواحي بشرى والحدث لا يزالون يتكلمون السريانية ، ويقول افرنسي اسمه دى شاستي جاء بيروت سنة ١٦٣٢ أنه وجد أهل حصرون واهدن لا يزالون يتكلمون السريانية . وحتى أنه في زمن متأخر نسبيا في سنة ١٨١٠ ، ما يروى الرحالة السويسرى يورك هارت ، الذى درس العربية في حلب ، أنه وجد كثيرين من الموارنة يتكلمون السريانية . وقد لاحظ أن جميع الاسماء المكتوبة على الاكياس الصغيرة المعلقة في كنيسة قزحيا والتي فيها بعض دود الحرير مكتوبة بالاحرف السريانية " (٣) .

---

(١) لبنان في التاريخ ، حتي ، ص ٣٩٠

(٢) لبنان في التاريخ ، حتي ، ص ٤٩٠

(٣) - - - ٤٩١

غير أنه لا يعني أن السريانية قد عمت مرافق الحياة كلها حتى عند المسيحيين فنحن نجد من مقابلتنا لأقوال هؤلاء ، رعية لا تجيد نطق السريانية فديلا روك الذى استشهد لم حتي يحدد منطقتين من الجبل " بشرى والحدث " ودى شاستي أيضا يحدد منطقتي حصرون واهدن ، والسويسرى يورك هارت " وجد كثيرين من الموارنة يتكلمون السريانية " فلا يعني هذا جميع الطوائف المسيحية حتى الموارنة بالذات ليس كلهم من كان يجيد نطق السريانية • وعلى هذا تكون العربية مبدئيا في الدرجة الثانية عند الموارنة وتتغالب مع السريانية على المرتبة الأولى عند الطوائف المسيحية الأخرى •

ولنستمع الى نص يبين ذلك من الشدياق ابن ذلك القرن حيث يحدثنا عن شكواه من أحد الشمامسة الذين لا يجيدون العربية في خطبهم فيقول : " قاتل الله هؤلاء العلوج انهم يقيمون في بلادنا سنين ولا يحسنون النطق بلغتنا • فيلفظون السين اذا سبقها حركة زايا وحروف الحلق وغيرها محالة ••• وقد سمعت أن بعض " هؤلاء " الذين لبثوا في بلادنا سنين رام مرة أن يخطب في القوم ••• فقال بعد ارتج عليه المنبر ساعة : " أيها القوم كد فات الوكت الآن ولكني أهتب فيكم نهار الأحد الكابل ان شاء الله " (١) •

يفهم من هذا النص أن القسيسين الأجانب (المرسلين) كانوا يؤدون خطبهم يوم الأحد والأعياد باللغة العربية لتفهم الرعية ما يريدون •

---

(١) الساق على الساق ، الشدياق ، ص ٢٢٤ — ويريد أن يقول : أيها القوم قد فات الوقت الآن ولكني أخطب فيكم نهار الأحد القابل ان شاء الله •

ولعل اللغة العربية لم يكتب لها النجاح نهائيا الا ببداية الدور الثاني من التعليم في لبنان أى أنها صارت بعد عام ١٨٣٤ عقب مجيء ابراهيم باشا لغة محكية عند الجميع ورسمية في كل مكان حتى عند الموارنة بالذات •

غير أن بعض المسيحيين لم يتخلوا عن السريانية حتى يومنا هذا ، لصلاتها بالكتاب المقدس • الا أنه من المحتم تقرير هزيمتها أمام العربية منذ أجيال •

والجدير بالذكر أنه عندما أصبحت اللغة العربية تستخدم في الكتابة الدينية ، عند المسيحيين ، كانوا يكتبون بالحرف السرياني المعروف " الكرشوني " وهي عادة لا تزال آثارها باقية الى يومنا هذا •

ويقول حتي أنه " قد كان في دير قزحيا ••• مطبعة ••• أصدرت ••• نسخة من سفر المزامير باللغة العربية ، انما كان سفرا مكتوبا بالحرف السرياني " الكرشوني " " لما كان شائعا في لبنان في ذلك العهد " (١)

ويقول حتي في مكان سابق ان اسقف اهدن كتب الاناجيل باللغة السريانية والعربية ولكن بالخط الكرشوني (٢) •

---

(١) لبنان في التاريخ ، حتي ، ص ٥٥٥

(٢) لبنان في التاريخ ، حتي ص ٤٢٣

وهذا الخط يعود الى أيام تأسيس " مطبعة دير قزحيا التي كانت أولى مطابع الشرق وفيها طبع زبور داود بالسريانية والعربية " الكرشوني " سنة ١٥٨٥، ترجمة جرجس مطران ليقوسيه ، وطبعه البطرك سركيس الرزى " (١).

وهذا ما يؤكد من جديد اضطرار رجال الاكليروس المسيحيين الى تداول العربية كلغة بين الرعية كي تتم علائق الاتصال بين الدين والمؤمنين .

وكما لم تكن الطوائف المسيحية كلها ذات لسان سرياني ، بل قلة منها وهي الموارنة كذلك لم تكن الطوائف هذه بمستعملة للخط الكرشوني . فقد اختلف الروم الارثوذكس والروم الكاثوليك عن الموارنة بأنهم لم يدرجوا على استعمال الحرف الكرشوني هذا . مع هؤلاء اذ كانوا على الطقس اليوناني لا السرياني كتبوا العربية بالحرف العربي . وعلى هذا يكون الموارنة وحدهم ، قد استعملوا الحرف الكرشوني دون باقي الطوائف .

أما فيما عدا نطاق التعليم المسيحي ، المزدوج اللسان والحرف من جهة الرسم كما رأينا . فقد كانت الدولة العثمانية ، تسعى الى الزامية اللغة التركية في مدارسها ، " والمدرسة " هنا عند الاتراك تعني " المدارس ذات التعليم الديني " أما المدارس الاخرى فقد خصصوا لها اسم " المكاتب " بوجه عام " (٢) .

---

(١) صقر لبنان ، عبود ص ٥٠

(٢) البلاد العربية والدولة العثمانية ، ساطع الحصري ص ٧٢

التعليم

نقول بهذه القسمة بين التعليم المسيحي والعثماني ، " لان التعليمين لم يغيرا تغييرا يذكر مواقف كل من المسيحيين والمسلمين في البلاد العربية نحو الدولة العثمانية، ظل المسلمون يعتبرون الدولة دولتهم ويستسلمون لحكمها " ليس الشيعة " لكونها دولة الخلافة الاسلامية ، وظل المسيحيون يشعرون بانها غريبة عنهم ، لانها تعتبرهم رعايا ، ويتوجهون نحو الدول الاوروبية، لانها تحميهم في كثير من المناسبات ، حتى أنها تقدم بعض المساعدات " (١).

وهذا ما يفسر طريقة توزيع المدارس التبشيرية التي كانت " تؤسس بوجه خاص في القرى المسيحية ، والمدن التي يكثر فيها المسيحيون " (٢) .

نقول ، ان هذه المدارس الحكومية " التركية " قد جعلت لغتها التركية الزامية في التعليم " وكان أكثر معلميها من الاتراك ، ومن كان عربيا منهم ألقى دروسه بالتركية وتجافى عن الكلام بالعربية مع أن من يخاطبهم عرب " (٣) .

---

(١) البلاد العربية والدولة العثمانية ، ساطع الحصري معهد الدراسات العربية العالية ص ٨٢

(٢) نفس المصدر ص ٨٢

(٣) حاضر اللغة العربية في الشام ، سعيد الافغاني ص ٢٣

ويتابع الأستاذ الافغاني عن مصطفى الشهابي (١) فيقول :

" حتى الكلام خارج غرف الدرس في الباحات وضعوا عليه الرقباء فمنعوا أبناء العرب أن يتحاوروا في الشؤون العادية بينهم بالعربية وأجبروا عليهم الكلام بالتركية ، ومن سبق لسانه الى كلمة عربية ماحوا به " سينيال " وسموه خشبة تنقش عليها كلمة " سينيال " (٢) وصار على هذا ان يجول بين رفاقه حتى يسمع كلمة بالعربية سبق بها لسان متكلم ، فيبادر الى تسليمه الخشبة صارخا به " سينيال " ومتى انتهت الاستراحة عوقب الذى تبقى بيده .

ويعلق الأستاذ الافغاني على هذا التعصب المقيت فيقول : " وكانت هذه آخر سهم في جعبة التتريك حتى يحفزوا الناشئ لغته وينشأ على التقزز منها " (٣).

ولم يكن هذا التتريك قاصرا على لغة التعليم في المدارس فحسب بل انسحب على جميع مرافق الحكومة والحياة الاجتماعية حيث فرضت التركية ، لغة رسمية على الجميع ، منذ أيام السلطان سليم الأول ، فهي لغة القوانين والادارة والبلاغات الرسمية التي توجه الى الأهالي ، ولغة المحاكم المدنية والشرعية ، ولغة استجواب المتقاضين والتحقيقات وصدور الأحكام ... كانت التركية لغة التعليم

---

(١) انظر مصطفى الشهابي ، محاضرات في الاستعمار ٢ / ٢٨

(٢) كلمة Signal الفرنسية التي معناها العلامة والسمة

(٣) محاضر أفغاني ، ص ٢٣

والجنود خلال التدريب ، حتى أمست ، هذه اللغة ، تقرر مبدأ سيادة الشعب وذلك في جعلها لغة المجالس التمثيلية من بلدية واقليمية ونيابية ، بها تلقى الخطب وتجرى المناقشات ، وتدون محاضر الجلسات •

هذه الأطر أحكم رباطها ، حتى تبقى اللغة العربية في عنق زجاجة أو تنكمش على أضيق حدود التداول ، أو تلفظ أنفاسها الأخيرة •

أما في جبل عامل فقد أحرز التعليم باللغة العربية ، شأوا بعيدا لا يدانيه قطر آخر ، ولعل ذلك مرده الى كراهية الترك العثمانيين للشيعة الذى يعود الى أيام خلاف السلطان سليم الأول والشاه اسماعيل الصفدى " الذى جعل نفسه داعيا للمذهب الشيعي ، وحاميا للشيعة يحارب معهم الغازى الجديد • مما جعل السلطان سليم الذى يتولى زعامة السنة ، يستحصل على فتوى تعتبر الشيعة خارجين على الدين الاسلامي ، ويقرر وجوب محاربتهم وقتلهم آمرا بقتل كل من كان معروفا بالتشيع " (١)

ولعل هذه الكراهية للشيعة ، حدت بالعثمانيين الى عزل الجبل ، مانعة عنه كل عون ومساعدة ، وما دروا أنهم ، أحسنوا من حيث أرادوا الاساءة ، فلقد أصبح الجبل ، بتمرده على الانضواء حينا ، وفرض العزلة عليه أحيانا ، " مركزا هاما من مراكز التدريس الكبرى يؤمه الطلاب من كل فوج وصوب " (٢)

---

(١) ساطع الحصرى ، البلاد العربية والدولة العثمانية ص ٣٠

(٢) تاريخ جبل عامل محمد جابر آل صفا ، ص ٢٣١ •

ولئن انقطع فيه مدد العلم أو خبا نوره " في فترات قصيرة كانت تعقب الحروب والفتن التي يرافقها التدمير والخراب ، واقفال المدارس ، وتعطيل معاهد التدريس " (١) .

وكانت هذه المدارس أشبه بالكليات منها بالمدارس العادية ، ويدرس فيها الفقه والأصول والحكمة الاشراقية ، والكلام والتوحيد ، والمنطق والفلسفة القديمة عدا العلوم العربية كالنحو والصرف والبيان واللغة .

وكان بعضهم يدرس علم الهيئة والحساب والجبر والطب والهندسة ، وبعضهم يدرس الفقه والأصول على المذاهب الخمسة ، وكانت حلقات التدريس محبوكة بطلاب الشيعة والسنة دائبين على الاشتغال وارتشاف مناهل العلم والهداية بروح التساهل والاخاء ، بينما كانت عوامل البغضاء والتفرقة تلعب دورها في خارج تلك المدارس المباركة .

ونذكر من هذه المدارس الأولى : — أ — مدرسة شقراء لمؤسسها العلامة موسى بن حيدر الحسيني العاملي " ؟ — ١١٩٥هـ " وقد ضمت أربعماية طالب في فترة بلغ العلم والأدب في جبل عامل حده الأقصى ، غير أن الحروب وفتك الجزار قضت مضجع الجبل ، وهاجر من لم يقتل أو يسجن من العلماء الى خارج البلاد ووقف التدريس وأغلقت المدارس بمن فيهم مدرسة الشقراء هذه

---

(١) تاريخ جبل عامل ، محمد جابر آل صفا ، ص ٢٣٢ " من هذه الحروب التي أعقبت الخراب للجبل ، معركة يارون ١١٩٥هـ — ١١٧٨هـ ١٧٨٠م

ودامت الحالة على هذا أكثر من ربع قرن ، الى موت الجزار في سنة "١٨٠٤" فعادت الحركة العلمية الى الجيل •

نخلص من كل ما تقدم الى نتيجة هي : أن اللغة العربية ما عرفت في هذا الدور موئلا يحتضنها الا ديار جبل عامل وبعض المدارس الاهلية والكتاتيب التي ظلت تعلم القرآن واللغة العربية ، وبعض الديورة الذى أخلص للعربية وان كانت تشوبها سريانية " كرشونية " في أغلب الاحيان •

أما ما عدا ذلك ، فقد طغت التركية مرافق التعليم والحياة ، كما نخلص الى ان التعليم الشعبي ، ظل حتى هذه الفترة ضيق النطاق ، لا يتعدى مجابهة تطور الحياة ومتطلبات الفكر الانساني ••• وليست قلة المدارس ، بالسبب الوحيد لبطء انتشار التعليم في القرن الثامن عشر ، وأوائل القرن التاسع عشر • فكما أن عدد المدارس لم يكن كافيا ، كذلك كانت الكتب المدرسية نادرة الوجود ، وكانت هذه الكتب ، بل حتى فيما بعد ، لا تزال تنسخ باليد • اذ أن الطباعة العربية لم تكن بعد قد انتشرت انتشارا واسعا • وكان المسلمون آنذاك يعتبرون الحرف العربي مقدسا ، لذلك حرّم الباب العالي لزمن طويل طباعة اللغتين العربية والتركية بهذا الحرف ، لكن هذا الحرم لم يشمل غير العربية ، مما سمح لرعايا السلطان من غير المسلمين بطباعة لغاتهم بأحرفها الخاصة •

ويحدثنا مارون عبود عن النساخة والنساخين فيقول : " كان يختبي راهب بابس عن الهموم ، أو يترفع ، أمام مصباح من الزيت بلا زجاجة ••• يحنو على كتابة ••• يقرأ بامعان ريثما تستريح أنامله ويزول خدر رجله ، ثم يعود الى عمله بعد ما ينبسط جلده وتمحي الاثلام التي شقها فيه قش الحصير " (١).

---

(١) رواد النهضة الحديثة ، مارون عبود ص ٢٦ — ٢٧

" أما الدواة النحاسية ... فهي أمامه ... يتكئ قلم " الغزال " على صدرها ... وعن يمين الناسخ ، كاهنا كان أو شديانا ، لوحة مشوحة بالخيوط شبحا متناسقا مستقيما ، يصلب الناسخ عليها الورق لتستقيم السطور ذاك كان عمل رجال الدين في كل ملة (١)

الدور الثانـــــي : ١٨٣٤ — ١٨٦٠م .

ترتبط أسباب هذا الدور بمجيء ابراهيم باشا الى سوريا ، في حملة عسكرية لتأديب العثمانيين ، عام ١٨٣٤ ، فالجهود التي قام بها هذا الفاتح الجديد ، من انشاء مدارس حكومية " أعتنت بأبناء المسلمين خاصة " واتاحـــة المجال لعمل المبشرين الذين نشطوا في عهده ، هذه الجهود وغيرهـــا جديرة بأن تعد نقطة انطلاق للتقدم الذى تم احرازه فيما بعد .

وكان لنظام التعليم الذى أدخله ابراهيم باشا — مع أنه لم يدم طويلا — أثره الفعال في بعث اللغة العربية ، وجعلها الزامية في مرافق حياة الامـــة وحفز التعليم القومي وخاصة بين المسلمين . هذا النظام الذى كان يرمـــي عامدا الى ايقاظ الوعي العربي بين التلاميذ . وعلى الرغم من قصر الحكم المصرى في الشام فقد كان لعمل ابراهيم ، وبما اشتمل عليه من أنماط جديدة مـــن المدارس والكتب المدرسية تجربة ضرورية أيقظت النفوس وحركت الاذهان الراقدة .

---

(١) رواد النهضة الحديثة مارون عبود ، ص ٢٦ — ٢٧

ولو نظرنا الى الماضي لبدا لنا ان نتائج هذه التجربة كانت باهرة ، فقد استطاعت بما ارسته من اصول لنظام ثقافي جديد . ان تمهد الطريق امام اللغة العربية لتعود مرة اخرى فتصبح قادرة على ان تكون وسيلة التعبير عن الفكر .

وثمة نتيجة غير مباشرة افضت اليها حملة ابراهيم باشا ، افادت البلاد كثيرا ، قد اقترنت بآثار التجنيد الاجباري الذي فرضه ابراهيم على ابناء المسلمين ، وما اعقب من مخاوف في نفوس ابائهم ، دفعتهم الى ان ينشأوا المدارس الخاصة بهم لتزاحم المدارس التي انشأها ابراهيم فاتاحوا بذلك لابنائهم فرصة النجاة من الجندية . وقد اصبحوا بسبب هذا الدافع يعنون عناية كبيرة بالتعليم المدني " غير الديني " وظلت عنايتهم به بعد انسحاب ابراهيم تزداد قوة مع مرور الزمن .

ومن النتائج التي ترتبت على مجيء ابراهيم ايضا ، ما اعطاه من حرية للارساليات التبشيرية في العمل . كان اولها قيام الاباء العازاريين في افتتاح مدرسة عبدلورة عام ١٨٣٤ ، التي ساهمت بنصيب كبير في تكوين الكتاب والمفكرين ، وقيام " الدكتور فانديك بانشاء مدرسة " عبيه ١٨٤٧ " وهي مدرسة عالية ، وتأسيس الاباء اليسوعيين لمدرستهم في غزير في نفس العام . وما اعقب ذلك من منافسة بين الامريكيين واليسوعيين في انشاء المدارس " .

ولقد اثار خاطر المرسلين رجال الكهنوت من اهل البلاد الذين اشعلت فيهم البعثات نار الحسد والخوف على مصيرهم مما دفعهم الى العمل بهمة ونشاط حفاظا على الذات • ولعل هذا ما فكهم من عقال الجمود والانطواء •

وثانيها تأسيس المطابعة الاميركية" ١٨٣٤ والكاثوليكية عام "١٨٤٨ " اللتين عملتا على ايجاد الكتاب المطلوب وتوفيره بين ايدى التلامذة وجعلتـه وسيلة لنقل الثقافة ،كما حققت المطبعتان امل المتعلمين والناشئة في رؤية كتب التراث مطبوعة من جديد ، وباسعار معقولة • وهو ماجئنا عليه مفصلا ، في فصل التبشير•

الدور الثالث : " ١٨٦٠ حتى نهاية القرن "

اهم ما يذكر في هذا الدور ، ذلك النظام الجديد الذى اقتبستـه المدارس الاهلية من مدارس المرسلين حيث تمكنت من ان تخرج عددا اوفـر واحذق من الادباء والمفكرين •

ومن هذه المدارس الوطنية :

ـ المدرسة الوطنية " ١٨٦٣ ـ ١٨٧٦ " للمعلم بطرس البستاني •

وقد نهجت في تدريسها منهجا وطنيا يعتمد اللغة العربية وعلومهـا اساسا في التعليم ،" وقد كانت تؤلف القلوب بين مختلفي الاديان ، ومتباينـي المذاهب تذيع المبادىء الوطنية • • على صدق في جانب الدولة ،واخلاص فـي جانب الوطن ...(١)

---

(١) بطرس البستاني ،صوايا ص ٣٧

وقد كان من اساتذتها الشيخ ناصيف اليازجي وولده ابراهيم والشيخ يوسف الاسير والشيخ خطار الدحداح وسليم تقلا "مؤسس جريدة الاهرام" فيما بعد "

ـ وقد نبغ من هذه المدرسة طائفة من الادباء وارباب الاقلام . نذكر منهم سليمان البستاني معرب الالياذة وعبد الله البستاني صاحب قاموس البستاني والدكتور شاكر الخوري وغيرهم من الذين تابعوا في تدعيم النهضة العلمية والادبية والوطنية والفنية .

وقد عمدت الطوائف الاخرى على تأسيس مدارس خاصة بها ، اهمها البطريركية للروم الكاثوليك " انشئت عام ١٨٦٥ " وهذه ظهر من تلامذتها جماعة من الادباء . ثم مدرسة الثلاثة اقمار للروم الارثوذكس كانت في سوق الغرب ونقلت الى بيروت سنة ١٨٦٦ وكان لها شأن بين المدارس الوطنية ومدرسة الحكمة للمطران يوسف الدبس انشئت سنة ١٨٦٥ وهي للطائفة المارونية .

غير ان التعليم في هذه المدارس الوطنية ، (المسيحية) كان قسمة بين العربية والسريانية من جهة ، وبين هاتين واللغات الاجنبية المتعددة كالافرنسية والانكليزية . . . فالمدرسة الوطنية مثلا كانت تعلم من اللغات العربية والسريانية والايطالية والفرنسية والانكليزية وشيئا من اللاتينية واليونانية (١) .

---

(١) ـ بدارس البستاني ، صوايا ص ٢٧

كما ظهرت مدارس اسلامية كالمدرسة الرشيدية وهي أقدم مدارس المسلمين الحديثة ، ومدرسة دار المعلمين وكلتاهما للحكومة ، والكلية العثمانية الاسلامية للشيخ أحمد عباس الأزهري.

أما مدارس جبل عامل ، فقد نمت في هذا الدور نموا كبيرا ، مما ساعد على حركة الانبعاث القومي والتحرر الوطني نذكر منها :

- مدرسة الكونوبة " التي انشئت في العقد الرابع من القرن الثالث عشر الهجري بايعاز من النجف الأشرف (١).

وهي ظاهرة فريدة لم نجدها في غيرها من المدارس العاملية ، وكان من طلابها حمد البك النصار الذي أصبح زعيم جبل عامل فيما بعد ، والعالم اللغوي علي السبيتي " ١٣٠٣ هـ - ١٨٨٣ م " . والشاعر علي بن ناصر بن زيدان المتوفى سنة ١٨٧٢ . وعلي ابراهيم الحسيني المفتي في جبل عامل وسواهم ...

وبوفاة مؤسسها العلامة القبيسي تنتهي حياة المدرسة وتنتقل حركة التدريس الى :

- مدرسة جبع ؟ - ١٨٨٥ " و " التعليم في جبع قديم في تاريخه فهي من القرن التاسع الهجري بدأت مدها العلمي بتقديمها الكبار من الرجالات والأعيان ، وكانت جبع تعتبر بعد جزين من الحواضر العلمية القديمة في جبل عامل وأغناها بعن تخرج منها ربما أنتج ابناؤها من مؤلفات وما تركوا من آثار علمية

---

(١) - تاريخ جبل عامل ، محمد آل صفا ، ص ٢٤١ والحركة الفكرية والادبية في جبل عامل لمؤلفه محمد مكي ص ٢٣ .

قيمة ، وقد ذكر محسن الامين من اعلامها ما يزيد على ثلاثين شخصية كبيرة " (١)

وقد تخرج من هذه المدرسة عدد وافر من العلماء منهم حسن يوسف مكي مؤسس المدرسة الحميدية في النبطية ، وموسى شرارة مؤسس مدرسة بنت جبيل .

- مدرسة بنت جبيل " ١٨٨١ - ١٨٨٦ " أسسها أحد طلبة مدرسة حنوية سابقا ، وقد جمعت عددا وافرا من افضل الطلاب وتعتبر من المدارس التي "جددت العلم بعد دروس مدارسة من القطر وخرجت من العلماء والادباء على قرب عهدها من حفظوا فيه الميراث العلمي العاملي وواحيوا مواته ، من هؤلاء ، العلامة محسن الامين صاحب أعيان الشيعة، والعلامة الشيخ عبد الحسين صادق، والشيخ عبد الكريم الزين، وغيرهم ممن كانوا الخيرة الصالحة في جبل عامل (٢) .

وغيرها من المدارس، كالمدرسة النورية والمدرسة المحمدية ، ومدرسة النبطية الحديثة .

ومما هو جدير بالذكر ان حركة التعليم في المدارس العاملية ، كانت مطبوعة بطابع الدين، فهي حركة فكرية عقائدية . الدين فيها قطب الرحى، وينحدر عنه معارف متعددة، تتعلق فيه وتدور في فلكه سائر هذه العلوم والآداب.

---

(١) آل صفا، ص ٢٤٢ ومكي ص ٣٣

(٢) انظر نفس المصدر ص ٢٤٥ - ٢٤٦ ومكي ص ٣٥ - ٣٦

ومن البديهي ان تكون علوم اللغة بفقهها ونحوها والصرف وفنون البيان موضع عناية العامليين . فدراستها تعتبر الخطوة الاولى التي يفترضها التعمق بها قبل البدء بعلوم الدين والفلسفة والآداب ، فهي ضرورة دينية ، ومعرفة علوم اللغة ماسة جدا في دراسة الاصول وعلومها .

وهذا ما يفسر اهتمام الشيعة باللغة العربية الذي يرتبط في كثير من شؤونه بتقديسها ، وما لذلك من علاقة باطنية في فهم النص والتدليل على مضمونه .

ان النصوص الفقهية ، لا يمكن ان تأخذ احدا ظاهريا ، بل يجب ان تتوافر عوامل التكامل من جذب نفسي بالنص ، الى ادراك لاخفت ظلال المعاني الى معرفة للدلائل الوصل والفصل ، وقدرة على فهم ما يوحي به علاقات الكلم والعبارات .

وبمقارنة موضوعية بين لغة التعليم عند الشيعة ولغة التعليم عند غيرهم (اي في كل من المدارس الحكومية او الأهلية الوقفية "السنة" ومدارس المسيحيين او الارساليات — الاجنبية) آنئذ ، يتجلى الفرق الكبير بين المستويين . فبينما كانت الحركة العلمية في جبل عامل متشوقة الى مرحلة التخصص العالي . كانت العلوم العربية في مدارس الحكومة او المدارس الاهلية ترسف بأغلال قديمة تمنعها من السير والحركة . ولنسمع ساطع الحصري يقول عن تعليم العربية في المدارس الحكومية او الاهلية : "كانت العناية مصروفة الى الناحية النظرية مع اهمال كبير للناحية التطبيقية ، والاشتغال بالشكل أبعد الدلالة عن الروح والجوهر . وشاع فيها جميعا حفظ الكتب العقيمة الركيكة العبارة الجبارة المؤلفة في عهود الانحطاط ، القائلة للملكات المتفتحة في نفوس النشء كما انهم نظموا مسائل العلوم في فنون مجمدة معقدة العبارة ، يرهقون الطلبة في استظهارها [1]

١ — ساطع الحصري / الجزء / ٩/٢ .

أولا ثم في حل طلاسمها ثانيا " (١)

ورغم كل هذا يجب الاعتراف ان هذه المدارس القديمة، وخاصة الاهلية او الموقفية منها ، حالت دون الاجهاز على ما تبقى من اللغة العربية وعلومها في هذه الديـــار .

أما اذا قابلنا بين مدارس الحكومة والمدارس الاهلية " المسيحية " . لوجدنا ان الحكومة ذات تركيز على اللغة التركية اولا مما حجب عن الناشئة معرفة التراث العربي في حين كانت تهتم كثيرا تلك المدارس المسيحية . بشؤون اللغة وآدابها . بيد ان الطريقتين الحكومية او المسيحية تتفقان في امر واحد هو خلق الازدواجية اللغوية ، وهذا ما كان له خطره الكبير على الجيل الذى تحمل مسؤولية النهضة وعبء احياء التراث . في حين بقيت المدارس الاسلامية تلقن العلوم العربية دون غير وهذا يعود لارتباطها بعربية القرآن الكريم .

---

١) ـ حولية الثقافة ٢/ ٩ ساطع الحصرى

علينا ان نخلص لغتنا وثقافتنا من اثار الحكم الاجنبي •

فتأثير لغة بني عثمان في اللغة العربية ، ظل محدودا ، على رغم من استمرار حكمها مدة تقرب من اربعة قرون •

ولا نغالي اذا قلنا ، ان تأثيرها الاساسي لم يتجاوز كثيرا امر تأخير نهضة الادب من جراء عدم وجود دولة عربية تشجع الادب العربي وتهيء له وسائل التقدم والنهوض •

وما ذكرنا عن عهد ابراهيم باشا ، في سوريا ، وما احدث من انقلاب في الوعي ، خير دليل على هذا ، رغم قلة عهده •

ولو اراد الباحث معرفة العوامل المساعدة التي بوأت اللغة العربية ، مركز الغلبة والانتصار لوجد كثيرا من الخصائص المنفردة التي تمتعت بها هذه اللغة دون غيرها من لغات الارض •

هذه الخصائص ترتكز جميعا على عامل رئيسي اسمه الدين ، واتصال اللغة بالكتاب الكريم •

" واللغة التي تتصل بدين من الاديان ••• فتصبح لغة الصلاة بين معتنقي ذلك الدين ، تكتسب بذلك امتيازا على سائر اللغات فتزداد قوة على قوتها الذاتية • وتحرز مكانة ارفع من مكانتها الاصلية • فنستطيع ان نقول لذلك ان الاديان والمذاهب تلتزم وتحمي بعض اللغات • وتتدخل بذلك في الصراع الذي يقوم بين تلك اللغة وسائر اللغات ، فتساعدها على الانتشار والبقاء (١) •

ولعل هذا ما يفسر بقاء السريانية والعربية في صراع خفي لفترة طويلة من الزمن ، انتهى بانتصار العربية التي تمتعت بمزايا لم تتوفر في السريانية •

---

(١) ما هي القومية ، ساطع الحصري ص ٢٠٤ •

من هذه المزايا ارتباط اللغة الدينية والشعائر الاسلامية بالفرد ، لا بالكاهن من خلال لغة فصحى في القرآن الكريم ، لا ازدواجية اللغة المحكية والفصحى .

فالديانة الاسلامية التزمت العربية الفصحى كل الالتزام ، ولم تتخلى عنها للهجة من اللهجات العامية في يوم من الايام وذلك لانها لم تعهد بمهمة القرآن الى ائمة المساجد وخطباء الجوامع وحدهم . كما فعلت الديانة المسيحية في العالم الروماني ، فتنفصل القاعدة المتمثلة في الشعب (الرعية) عن القمة المتمثلة في رجال الكهنوت وبالتالي تكون فرص الازدواجية ، او طغيان لغة دخيلة على وجدانات الشعب ممكنة فتمتلك السنتهم في التعبير واذهانهم في التفكير ، حتى اذا ما جاءوا - من ثم - الى تأدية الصلاة ، اخذوا يلهجون بصعوبة لغة رجال الدين ؟ فالديانة الاسلامية لم تفعل كذلك ، بل فرضت مهمة القرآن هذه على كل مسلم ومسلمة ، فصار لزاما على كل فرد ان يتلو طائفة من الآيات القرآنية كل يوم خلال الصلوات الخمس حتى خلال الصلوات التي تؤدى جماعة يترتب على كل فرد مؤتم باحد المصلين ان يستمع الى ما يتلوه الامام جهرا من ناحية وان يتلو - بعد ذلك - هو بنفسه سرا آيات اخرى من ناحية ثانية .

ان هذه الاحكام الدينية استوجبت انشاء مدارس وكتاتيب كثيرة لتعليم القرآن - قراءة وحفظا - لجميع الاطفال . وهذه المدارس والكتاتيب عمت جميع انحاء البلاد ، ولم تنقطع عن العمل حتى في اسوأ عصور الانحطاط والطغيان .

كل ذلك ، حال دون انقطاع صلة العرب بالعربية الفصحى ، بل ظل يذكرهم بها ويوصلهم اليها على الدوام عن طريق السماع المستمر والتلاوة المتتالية .

هذا الانجذاب اللغوي الى الدين ، مكن للغة العربية وجودا قويا جابهت بعواصف الزمان العاتية وسياسة التتريك الغاشمة .

اضف الى ذلك في هذا المضمار ، ان الكنائس المسيحية في البلاد العربية هي ايضا انتهت الى التزام العربية الفصحى ، فان الكنائس الشرقية جعلت العربية لغة الصلوات والمواعظ منذ قرون عديدة .

كما ان البروتستان ، ايضا ، اعتمدوا ترجمة الانجيل الى اللغة العربية . والكنيسة الارثوذكسية كذلك ، جعلت العربية لغة الناقوس والصلوات والمواعظ بعد ان تخلصت من ربقة اليونان .

وهذا ما ينفي قول القائلين ، بضعف العربية في تلك الازمنة التي سبقت عقود القرن التاسع عشر وغلبة السريانية عليها .

صحيح ان السريانية كانت تنافس العربية ، لكن هذه الاخيرة - للاسباب التي ذكرنا - كانت لغة الشعب والرعية السريانية بالذات . وما يذكر من طرائف عن الكنائس يومها لخير دليل على هذا ، فالواعظ بالسريانية امام الرعية كان يضطر مرغما الى النطق بالعربية ليتسنى للمصلين فهم ما يقول مما يستدعي قراءة خط مكتوب بالخط الكرشوني باللغة العربية ، وهذا ما يؤدي الى التصحيف احيانا وسوء النطق احيانا ، سيما اذا كان الواعظ غريبا عن البلاد وغالبا ما يقترن الخطأ بهرج ومرج المصلين او باطلاقة ضحكات لا يسلم الخوري من منزاها . ولنستمع الى بعض هذه الامثلة التي ذكرها مارون عبود في صقر لبنان :

"كان يقرأ احد الشمامسة البهاليل فصلا من "البركسيس"(١)، قال الشماس اللبيب: اني وضعتك نورا للشعوب لتكون الحياة الى اقصى الارض. فضحك الخوري وقال: نور و أرض، هذا كثير يا شماس، خذ عنه يا متى.

وشرع متى يقرأ ... ولكن كباحين تلا فصلا من رسائل القديس بولس فبدلا من ان يقرأ: ان الله لا يحب خبث النية، قرأ هكذا: ان الله لا يحب كبة النية. فضحك المصلون وقال الخوري: مؤكد يا ابني الله ما هو من ضيعتنا. (٢).

هذه الامثلة الكثيرة وغيرها ان دلت على شيء، فانما تدل على ان الرعية كانت تجهل السريانية، ولا تجيد الا اللغة العربية، على عكس رجال الكهنوت الذين يجيدون السريانية اكثر من العربية.

هذه الظاهرة اللغوية تؤكد ما ذهبنا اليه من ان انتصار العربية قد تحقق عبر الصراع اللغوي الطويل بين اللغة العربية والسريانية من جهة، والعربية والتركية من جهة ثانية.

---

(١) كتاب عند الموارنة يعني اعمال الرسل والكلمة يونانية Πράξεις - praxis وهذه الآية في الاصحاح الثالث عشر من سفر اعمال الرسل ـ اية ٤٧

(٢) صقر لبنان، عبود، ص ٤٥ ـ ٤٦

لهذه الاسباب العديدة ظل اتصال اللبنانيين باللغة العربية اتصالا وثيقا . اقول اللغة بثنائيتها الفصحى والعامية ، دون ان يعني تباعد لغة الكلام عن لغة الكتابة تباعدا كبيرا . فهذه الفوارق بين لغة الكلام ولغة الكتابة ـ بين العامية والفصحى ـ لم تتعد قط حدود فوارق اللهجات الطفيفة .

وانما كان الناس في القرن الماضي ، لا يتكلمون بالعربية الفصحى فانهم ماكانوا ليعجزون عن فهمها ولو كانوا أميين ، علما بان اللغة الفصحى صارت تزداد تأثيرا وتغلبا على اللهجات العامية شيئا فشيئا ، منذ بداية النصف الثاني من القرن الفائت ، كنتيجة لانتشار المدارس والطباعة والكتب والصحافة والمجلات سيما في الربع الاخير من القرن المذكور .

الفصـــــل الثالـــــث

حركة الاستشراق واثرها

فـــــي

اللغـــــــة

من خـلال لغـــوي القـــرن

أ - معنى الاستشراق :

جرى الاصطلاح عند المتأخرين من كتاب العرب ان يطلقوا اســـم "المستشرقين" على من يعنون بالبحث في لغات الشرق وعلومه ، واطلقـــوا اسم "الاستشراق" على عملهم هذا .

ولما كان الاستشراق واسع المدى ، متشعب المقاصد ، تنتالحـال بان يقال لمن يعنون خاصة ، بدراسة مدنية العرب والاسلام "المستعربون" تمييزا لهم عن سائر من يعنون بلغات الشرق وعلومه .

وعلى هذا ، فالاستشراق هو النشاط الفكري والادبي والانسانـــي الذي يقوم به اعاجم في مجال اللغة العربية وعلومها وثقافتها .

ب - تاريخ الاستشراق :

نشأ الاستشراق في الغرب بعامل ديني اولا ، وانقلب فيما بعد الى عامل مدني .

وكان سبق ان بعض ملوك اوروبا وباباواتها اخذوا العربية عن علماء الاندلس وصقلية وتعلم امراء الصليبيين وبعض قوادهم اللغة العربية في الشام

ايام غزواتهم الطويلة .

ولما قام البابوات بانشاء الرهبنات لبث الدعوة الدينية في الشرق بدا لهم ان يعلموا الرهبان لغاته ولا سيما العربية وبعض اللغات السامية كالعبرية والسريانية . وهذا لتفهم العدو العتيق . "فقضى مجمع فينا سنة ١٣١١م برئاسة البابا "اكلمنتس الخامس ان تؤسس في باريس واكسفورد .. ومملكة اى في عواصم فرنسا وايطاليا وانكلترا واسبانيا يومئذ دروس عربية وعبرانية وكلدانية وسريانية "(١) .

وكانت المدرسة الطبية مونبلييه في فرنسا ، سبقت فانشأت سنة ١٢٢٠م دروسا عربية ليتسنى لها تدريس الطب في كتب العرب ، وفي سنة ١٢٥٤ انشئت اول مدرسة عربية في اشبيلية من ارض الاندلس.

وعلى هذا ، يمكننا تقسيم عمل المستشرقين ، الى دورين يتبعان تاريخية الحركة :

- الاول : وهو قديم يعود الى بداية القرن العاشر للميلاد ، يقضي بنقل العلوم والمعارف الطبيعية والرياضية والطبية والفلسفية من العربية الى اللغة اللاتينية ، وذلك لحاجة الغرب لهذا التراث العربي الذي بلغ - يومها - عصره الذهبي ، والاستفادة منه في بدء النهضة الاوربية .

---

(١) م م ع . المجلد : ٢٣ . الجزء الثالث ص ٣٤٧ وما بعدها سنة ١٩٤٨

- الثاني : وهو ما بدأ ببداية القرن الثالث عشر الميلادي ، ويقضي باشتغال المستشرقين بدرس اللغة العربية ومعرفة آدابها ، وذلك لاسباب نحصرها في ما يسمى "بالتعصب الديني" الذي تجلى بالشكلين التاليين :

١ - الرد على المسلمين ومجادلتهم ، فاللغة ، من ثم ، وسيلة لانتقاد ما جاء في الدين والتراث الاسلامي والعربي .

٢ - التبشير بالمسيحية بين المسلمين وغيرهم من ابناء الشرق .

اضف الى ذلك ، دافعا دينيا ، نتج عن حركة مارتن لوثر ، والبروتستانتية وتعني بقراءة الكتب المقدسة بلغاتها الاصلية ، وهذا ما زاد من اهمية درس اللغة العربية وادابها ، كوسيلة يستعينون بها في التفسير والفهم .

وفي الحقيقة ، لم يتطور الاستشراق الا بتأثير الاستعمار ، ولاجل تحقيق اغراضه السياسية والاقتصادية ، فقد رأت الدولة الاستعمارية ان الدراسات الشرقية ، التي كانت قائمة من قبل لاهداف دينية ، يمكن الاستفادة منها في معرفة عقلية الشعوب الشرقية للسيطرة عليها واستثمارها .

وهذا ما يفضي بنا الى القول ان الاستشراق ، كحركة ، ظل ضعيف الاثر حتى القرن الثامن عشر . ولم يقو ، الا بعون وفد من الاستعمار . وهنا يدخل الاستشراق في طور العلوم المنظمة ، حيث قامت بعض الدول الغربية وفي مقدمتها بريطانيا العظمى على عمالها في بلاد الشرق ان يتعلموا اللغة العربية . كما

كما اهتمت فرنسا بالاداب الشرقية ، فاسست المكتبة الاهلية ، في باريس لجمع الكتب الشرقية . كما انشأت النمسا عام ١٧٥٣ مدرسة لتعليم لغات الشرق يدرس فيها القناصل والتجار ، وحذت حذوها فرنسا في اقامة مدرسة اللغات الشرقية المحلية لمثل هذا الغرض سنة ١٧٩٥ ، ثم "الجمعية الاسيوية" في باريس سنة ١٨٢٢ ، فقلدهم الانجليز بانشاء جمعية ايضا سنة ١٨٢٣ ، ثم الالمان سنة ١٨٤٤م .

واخيرا ، بدأت طلائع الارساليات تتوافد كالسيل على الساحل السوري ، وبلاد الشام ، سيما لبنان ، وقد كان نصيبه منها اكثر من اي دولة عربية اخرى .

ولا يخفى ان المشرقيين على هذه الارساليات ، وواضعي مناهج التعليم فيها ، كانوا من المستشرقين اما الرهبان واما العلمانيين .(١)

ج - اثر المستشرقين في البرامج التعليمية :

لا يمكننا ان نفصل بين لبنان والعالم العربي ، كمسرح واحد استهدفه الاستشراق في غايته ، كما لا يسعنا الا ان نؤكد صلة الاستشراق بالتبشير والمبعوثين الاجانب الذين وفدوا الى البلاد ، ليقوموا بدور اطلقوا عليه "التعليم" .

لذا ، سننسب منهجية التعليم ، ووضع البرامج المدرسية ، وتأليف

---

(١) سنأتي على تفصيل ذلك في بحث التبشير .

الكتب ، الى نشاط حركة الاستشراق ، في المنطقة عامة ، ولبنان خاصة .

كما ان التركيز على التاريخ القديم ، كحلقة الفينقيين دون غيرها ، هدف سياسي لا يمكن نسيانه في البرنامج العام للاستشراق السياسي .

وقد بلغ الاهتمام بالتاريخ الفينيقي ، حدا ، باتت معه المراحل السابقة واللاحقة بالية ميتة . ودون اشارة الى عناصر الحقب الاخرى الصالحة للحياة والتي كان لها تأثير في تقدم الانسانية ؟ وبشكل عام ، كانت ابحاث المستشرقين من خلال برامج التعليم تنحصر في :

١ - بث الشعور بالسلفية التاريخية ، والتشجيع على الحفريات الاثرية .
٢ - تصوير الواقع باسواء حال ، وتزيين الغرب على انه الفردوس المأمول .
٣ - دراسة اللهجات العامية ومقارنتها بغيرها ، كحركة تكرس تكريس اللهجات وجعلها اساسية في التداول .
٤ - دراسة التاريخ العربي من زوايا الفتنة والاهلية والخلافات المذهبية ومظاهر الانقسام والتفسخ .
٥ - دراسة المذاهب بشكل تفصيلي من خلال ما اسموه حرية البحث العلمي .
٦ - بث الشعور بالسلفية التاريخية لما قبل الاسلام ، وذلك باعادة تأليف الحقب التاريخية وفق منهج ثقافي دقيق . باتت معه

الانتصارات العربية والاسلامية حكايات تروى بشكل مختصر وسطحي • في حين برز ما سمي بتاريخ لبنان في العهد القديم • واذا ما تكلمت هذه المناهج عن الاسلام ، فانها لا تتعرض الا لفواصل تاريخية ضعيفة او نقاط سوداء جبهت حياتهم • فهي تحوم في الغالب حول الفتن الاهلية والخلافات المذهبية ومظاهر الانقسام والتفسخ • وهذه الدراسات قلما تعالج الحياة الاقتصادية والاجتماعية والحركات الشعبية وتطور الانظمة السياسية معالجة تحليلية علمية •

كما ان ابحاث هؤلاء تركزت على واقع البلاد السيء • واخذت في توسيع الخرق على الراقع ، وتشويه معالم الحياة • حتى باتت البلاد ديارا لا تطاق ، من الظلم الذي لن ينتهي ، والاستبداد الذي سيطيح بالآمال فبلاء عميق اذا لم تكن هناك دولة اوروبية تقف بالمرصاد بنية الحماية ونشر الطاعة والنعيم في البلاد • هذا مع رسمه مناهجهم التربوية كي يدخل في روع كل مواطن ان لا حياة ممكنة دون الاجنبي الصديق •

كما شجعت ابحاث المستشرقين حركة العاميات المحكية ، بما نشرت من دراسات تتناول اهمية هذه اللهجات وخصائص العامية في كل قطر • وما لها من قيم صوتية تتشابه مع غيرها من اللهجات • وقد كان اسلوب البحث العلمي ، كالعادة ، رائدهم في هذا المجال • حتى اخذ اصوات تنادي باستعمال العامية المحكية كوسيلة للتفاهم والتعليم في المدارس بدلا من الفصحى ، التي باتت - حسب رأيهم - حرمة ، ترفل بالتعقيد والتعمية •

ولا يعني هذا ان نقف من المستشرقين - جميعا - موقف العداء او المستنكرين فهناك بعض المستشرقين قد اندفعوا الى دراسة اللغة العربية وآدابها بدافع من اهتمامهم الخاص وحبهم للعلم دون غرض من الاغراض عدا حب المعرفة والبحث عن الحقيقة والتنقيب عن التراث هدفهم ابحاثهم ودراساتهم • بيد ان الجهود العلمية التي يبذلها هؤلاء الافراد لا يمكن ان تبدل الاتجاه العام في حركة الاستشراق • كما حددتها الدول الاستعمارية •

د - لغويو لبنان والاستشراق:

لم يكن موقف كتابنا من الاستشراق واحدا ، بل متعددا ، يختلف باختلاف الميول والمصالح الخاصة في كثير من الاحيان • ويمكن ان نحصرهم في فريقين فريق عمل معهم فترة من الزمن • كناصيف اليازجي ، وبطرس البستاني ، ويوسف الاسير • ولم يقف منهم موقف الصراحة في القول •

وفريق ثان ، عمل البعض منهم ، مع المستشرقين ، ثم انتقدهم ، وتبين خطأهم وكشف ادعاءهم وقصورهم في البحث العلمي والرس اللغوي • ومن هذا الفريق سنختار آراء لاحمد فارس الشدياق الذى بين ما وقع به المستشرقون من تقصير واضطراب في التقدير والحكم ، وتشويه في التأليف

يقول الشدياق في هؤلاء المستشرقين ، الذين رأهم ضررا وبلاء لا نفع منهم ولا دفع ، في رد له على ما كتبه المستشرق الكسندر شدزكو في فاتحة كتاب الفه في نحو اللغة الفارسية سنة ١٨٥٢ : "ان هؤلاء الاساتيذ لم يأخذوا العلم عن

شيوخه ... وانما تطفلوا عليه تطفلا وتوثبوا توثبا ، ومن تخرّج فيه بشيء فانما تخرج على
" القس حنا والراهب توما والخوري متى . ثم ادخل رأسه في اضغاث احلام او ادخل
" اضغاث احلام في رأسه وتوهم انه يعرف شيئا وهو يجهله .
" وكل منهم اذا درس في احدى لغات الشرق او ترجم شيئا منها تراه يخيط فيها خيط
" عشواء فما اشتبه عليه منها رقعه من عنده بما شاء . وما كان بين الشبهة واليقين
" حدّس فيه وخمن فرجح منه المرجوح وفضل المفضول . وذلك لانه لم يوجد عندهم من
" تصدى لتخطئتهم وتسوئتهم . (١)

وهكذا يمضي الشدياق ، كاشفا زيف هؤلاء ، وادعاء بعضهم العلم ، فهم يدمجون الكلم وفق اهوائهم ، ويشوهون اكثر ما ينقلون :

" ... من هؤلاء الاساتيذ الذين يفسدون عبارة المؤلف ويحملونها معانـي بعيدة
" يأباها الطبع والذوق ". (٢)

وينتبه الشدياق ، لقضية خطيرة في عمل هؤلاء ، استهدفت نقل اللغة العربية والتراث العربي الى الغرب عبر نماذج كتابية مشوهة ، تسيء لخصائص العربية شكلا ومضمونا ، من ذلك توسلهم بعض الاقوال الفاسدة ، والنصوص الغامضة فيترجموهـا الى لغتهم على انها آداب العربيـة .

---

(١) ذيل الساق .. الشدياق .. ص ٦٨٧

(٢) ذيل الساق .. الشدياق .. ص ٦٨٧

"فغاية ما صنعوا انما هو احد هم ترجم من لغتنا لغة الاطيار والازهار فخمن فيها
"وحدس ما شاء" . وآخر ترجم محاورة يهودي سمسار واحمق من التجار .
"وآخر مسخ امثال لقمان الحكيم الى الكلام الركيك المتعارف في الجزائر .
"وآخر تعنى لطبع اقوال سخيفة من رعاع العامة في مصر والشام . وترك
"ما فيها من اللحن والفساد كما هو استذراعا بقولة كذا رأيتها في الاصل" (١)

ويتساءل الشدياق عن سبب هذا التهافت على ترجمة مثل هذه الكتب وطبع مثل هذه الاقوال الى اللغة الفرنسية ، فلا يرى الا "توجم ملفقيها على الانخراط في سلك المؤلفين" . (٢)

وكأن الشدياق ، كشف جهلهم ، فيقف متحديا اياهم في "ترجمة شيء من الكتب (الفرنسية) الى العربية" ما داموا يدعون معرفة اللغتين . خاصة وان في اللغة الفرنسية كتبا جليلة القدر في كل فن ، هذا اذا كانوا منزهين عن الغرض .

ويمضي الشدياق في تحديه لهم الى ان يقول :

"واعجب من ذلك انه لم يخطر ببال احد منهم قط ان يترجم نحو لغتهم الى لغتنا .

ويرى السبب في ذلك فيقول :

"فهل من سبب آخر غير التحذر من ان يعرضوا انفسهم للتحقيق والتفنيد والتحمير .

---

(١) ذيل الساق .. الشدياق .. ص ٦٨٨

(٢) الساق الشدياق ، ص ٦٨٩

" فان عبارة النحاة والمعربين لا بد من ان تكون محررة صحيحة ولا عذر لهم معها
" ان يقولوا كذا وجدناه في الاصل . (١)

" ويفضح الشدياق ، خطتهم الخبيثة في نشر العامية بين ابناء جلدتهم على انها العربية الفصحى فيقول منددا بعملهم هذا ، مستهزئا :

" ويا ليت شعري ما الفائدة في كون احد هؤلاء الاساتيذ يؤلف كلاما مسلطا فاسدا
" في لغة اهل حلب ويسميه نحوا ... وفي كون آخر يكتب بلسان اهل الجزائر كان
" في واحد الدار طاوبات ... فما بالكم يا اساتيذ لا تؤلفون كتبا بكلامكم الفاسد
" الذي تسمونه بنوى .

" وهل تشيرون على عربي اقام بمرسيلية مثلا ان يتعلم كلام اهلها او كلام اهل باريس
" ولو كان فعلكم هذا فعل رشيد لوجب ان تقيدوا جميع الاختلافات والفروق الموجودة
" عند المتكلمين بالعربية . فان اهل الشام يستعملون الفاظا لا يستعملها اهل مصر .
" ومشى على ذلك سائر البلاد الاسلامية . بل ان لاهل صقع واحد اصطلاحات شتى .
" فكلام اهل بيروت مثلا مخالف لكلام اهل جبل لبنان . وكلام هؤلاء مخالف لكلام اهل
" دمشق " .

وما النتيجة من هذا العمل الدنيء ، برأي الشدياق ، الا الدرس لهم وافساد اللغة لنا ، وتأخذه الغيرة على العربية فيقول :

---

(١) الساق ، الشدياق ، ص ٦٨٩

" .. هذه اللغة الشريفة التي من بعض خصائصها انها بقيت ثابتة القواعد تارة
" الاساليب على انقراض جميع ما عداها من اللغات القديمة . وان المؤلفين فيها
" يومنا هذا لا يقصرون عن اسلافهم الذين انقرضوا من الف وماتي سنة . فهل
" حسد تهمونا على ذلك وحاولتم ان تحيلوها وتلحقوها بلغتكم التي لا تفهمون ما
" الف فيها من ثلثماية سنة " (١)

وهكذا ، يراهم الشدياق ، غير اهل للقلم ، وما هم الا ملفقون ، ويتساءل كيف ، رخص لهم في ان يطبعوا ذلك من دون الوقوف على صحته ، فان من هؤلاء " الاساتيذ من لا يفهم اذا خوطب فضلا عن جهل التأليف . ولا يفهم اذا قرأ . ولا يقوم الالفاظ في القراءة "

ويروى الشدياق قصة احد هؤلاء فيقول :

" سمعت مرة بعض التلامذة يقرأ على شيخة في مقامات الحريري ولا يكاد ينطق بحرف
" واحد نطقا بيّنا من هذه الحروف التي خلت منها لغتهم . وهي التاء والحاء و ...
" وشيخة ساكت لما انه يعلم ان تصحيحه له لا يكون الا فاسدا . فكيف يمكن لمن
" لم يسمع اللغة من اهلها ان يحسن النطق بها . (٢)

وهو يطعن في كل ما الفوه من نحو ، او ما ترجموه من قواعد عربية وذلك لاختلاف النطق الاولي للحرف العربي ، وطريقة تركيبه ، وهو يقول في هذا الصدد :

---

(١) الساق ، الشدياق ص ٦٨٩

(٢) الذيل ص ٦٩٠

" كيف لا وان من الف منهم في نحو لغتنا شيئا فانما بنى نحوه كله على فساد .
" فانهم يترجمون عن الحيم بلساننا بحرفي الدال والجيم بلسانهم . وقد جهلوا انه
" ليس عندنا في العربية حروف مركبة كما في اليونانية . فان الابتداء بالساكن مرفوض
" عند العرب اذ لم نقل انه ممتنع " (١)
" و . . .

وما على هؤلاء الا ان يكفوا عما ليس باستطاعتهم ، فهم وان عرفوا الكثير في التاريخ ، كما يقول الشدياق ، الا انهم لا يفهمون ما كتبه اعلام هذا التاريخ . "ولا
" يدرون جزل الكلام من ركيكه وثبته من مصنوعه . ولا المحسنات اللفظية والمعنوية .
" ولا الدقائق اللغوية . ولا النكات الادبية ولا النحوية ". (٢)

وغاية ما يقال " انهم نقلوا نقلة من علوم الصرف بواسطة كتب الفتبالفرنساوية . وينتقد الشدياق ، المستشرق دي ساسي بعد ان يقر علمه وفضله ، بقوله "على انه رحمه الله لا ينظم في سلك العلماء المحررين فقد فاته اشياء كثيرة في الادب واللغة والعروض . (٣)

---

(١)
(٢) ص ٦٩١
(٣)

ويستغرب الشدياق جهل هؤلاء ، وهم الذين سافروا الى بلاد العرب ، واقاموا فيها اكثر من غيرها " ومع ذلك فهم يتعلموا سوى الركاكة والخطل " (١)

الى ان يقول للقارئ العربي :

" اعلم .. اني لم اجد من بين جميع ما طبعوا بلغتنا جديرا بالانتقاد سوى مقامات الحريرى " . (٢)

---

(٥) ص ٦٩١

(٦) ص ٦٩٢

الفصل الرابع

التبشير ودور الارساليات في لبنان

آ - معنى التبشير

جاء في الاصحاح الحادي والستين من نبوة اشعيا ذكر عبارة التبشير، بالمعنى التالي :

" ان روح السيد الرب عليّ لأن الرب مسحني لأبشر المساكين وارسلني لاجبر
" المنكسري القلوب واناد ي بعتق للمسبيين وبتجلية للمأسورين " (١) .

وجاءت العبارة، ثانية، بعد سبعة قرون ونصف في الاصحاح الرابع من انجيل لوقا، بالمعنى التالي :

" ان روح الرب عليّ ولاجل ذلك مسحني وارسلني لأبشر المساكين واشفي منكسري القلوب(٢) "

وفي كلتا العبارتين، يتسق مفهوم التبشير بمعنى واحد، هو المناداة بالانجيل .

وفي عبارة " مسحني لأبشر" بالذات، دلالة واضحة على القصد ومحاولة متفائلة للقضاء على " الخطيئة " التي تشكل بمضمونها البشرى، درجة من الدرجات الثلاث (٣)

---

(١) الكتاب المقدس، العهد القديم، المجلد الثاني، نبوة اشعيا ص ٣٠٠ فقرة(١) .

(٢) الكتاب المقدس، العهد الجديد، انجيل لوقا ص ١٠٢، فقرة(١٨) .

(٣) الدرجات الثلاث : الخطيئة، الخلاص، الخدمة .

المؤلفة الجانب الفردي ووجه القضية التي اختص بهـا الدين المسيحي ، اعني بها ، علاقـة الفـرد البشري مع ربّـه ، وفهم مدارها ، والتماس دروب الصـلاح ، من ثمّ .

ومن العبارة بالذات ، تتضح سمات المبشّر المسيحي ، فهو تلميذ للمسيح ، يحذو حذوه في تبيان حدود المسار الاخواني والكوني والالهـي .

وبهذا ، يتجدد مفهوم التبشير ، بما يكفل هداية الفـرد الى درب الايمان ، وابعاده عن المناداة التي تهدم ركنا من اركان الاتفاق الروحي . وما دام الاتفـاق حاصلا ، والفرد يعيش معاناة الخلاص ، منتصرا على الخطيئة ، فلا واجب ملحاح ، متهافت لردعه ، وضبطه في النهج الايماني ، الذي حققه عبر ايمان قد لا تعـترف به المسيحيـة .

امّا من وقـف من المبشرين مزورا عن هذا ، فلا صفـة تبشيـرية صادقة له .

ولو بقي هذا المفهوم لمعنى التبشير ، لما انعكس آثار خطيرة على المجتمعـات الانسانية ، بيد أن التبشير وقع تحت وطأة المآرب السياسي لدول اوربا وامريكـا ، وارتبط الكاهن ، او الثوب الكهنوتي بوزارة الخارجية ، مباشرة ، او انه انـدرج في سلك موظفي المخابرات والادارات الحكومية المختصة ببلاد الشرق عامة ، والوطن العربي خاصـة .

هذا ، وقد كان المسيحيون ، القاطنون في هذه البلاد ، العربية ، مثـلا ، معبرا لتلك الاهداف التي تضمنها مفهوم التبشير فيما بعد . وكأن هؤلاء المساكيـن فرصة ذهبية سنحت لأولئك ، فسعوا اليهم ، سعي الحبيب الى حبيبه ، والصديق الى صديقه . وما هم بأحبة ولا اصدقاء ، ولكنهم وجدوا في هؤلاء مواطئ قدم ، ومراسـي صالحة لرحلتهم الطويلـة .

ب - الارساليات التبشيرية في لبنان

شهد القرن السابع عشر ، بدايات البعثات التبشيرية التي كانت في معظمها كاثوليكية فرنسية في الغالب ، تنتسب الى جمعيات اليسوعيين او الكبوشيين او الكرمليين .

وكانت جهود هذه البعثات في البداية ، محدودة الأثر ، تقتصر على انشاء عدد قليل من المدارس والمعابد في اماكن متفرقة من بيروت او الجبل ، أو بعض مناطق في سوريا وفلسطين وكثيرا ما كانت تكتفي بنشر بعض كتب العبادات ونشرات خاصة بها .

ولم تستطع هذه البعثات الأولى ان تعمل خارج نطاق بيروت مثلا لما كانت تلاقيه من رقابة شديدة من الولاة العثمانيين .

كما انحصرت رعايتها في الطوائف المسيحية الموالية لكنيسة روما ليس غير . لأن محاولات التبشير خارج نطاق طوائفهم كان يعد ضربا من المغامرة المستحيلة نظرا للتعصب الشديد الذي كان يسود ذلك العصر .

وقد سبب احكام مراقبة العثمانيين هذه ، رحيل اكثرهم اوتجميد نشاطهم على الاقل . ويبدو ان اليسوعيين ، كانوا اكثر المرسلين ، تحملا للأذى العثماني واضطهاد حكامه ، ولعل هذا عائد لخبرتهم القديمة التي تعود الى حوالي سنة ١٦٢٥ م . وكما قلنا ، فان مجال نشاطهم ، كان لا يتعدى دائرة التعريف بالطقوس وكيفية القيام باعبائها ، ولو كان غير ذلك ، لما اختلف مصيرهم عن غيرهم من المطرودين من البلاد .

وعلى أي حال ، ما ان انصرم عام ١٧٧١ م ، حتى صدر مرسوم "فرمان يقضي بتعطيل جمعيتهم ، فتفرقوا بددا ، واغلقوا اكثر مؤسساتهم ، تاركين المنشآت للبعثات اللعازاريه لتديرها .

ولم تستأنف هذه الجمعيات عملها الا في سنة ١٨٣١ م . ولعل من الأسباب التي اوجبت عودتها أن البعثات التبشيرية الأميركية اخذت تفد الى بلاد الشام منذ عام ١٨٢٠ م ساعية جهدها في تحويل افراد الطوائف الكاثوليكية الى المذهب البروتستانتي .

الا ان عقبة جديدة ، وقفت في طريق المرسلين الأميركيين ، تضاف الى جميع العقبات التي اعترضت سبيل الجمعيات الكاثوليكية التي سبقتهم ، هي عدم وجود طائفة بروتستانتية . وهذا ماجعلهم يعمدون الى تحويل الافراد المسيحيين من الطوائف الاخرى ، كوسيلة لجمع الأتباع . وقد ادى نشاطهم هذا الى اثارة روح العداوة في نفوس رجال الدين من اهل البلاد ، واشتداد التنافس بين الطوائف بشكل حاد كان لا يخلو في اكثر الاحيان من مناشير تتضمن الوعيد والتهديد والقدح والذم بين هؤلاء وأولئك .

وجاء في قول لمؤلف المقاطعة الكسروانية في اخبار سنة ١٨٢٥ هذا النص : " اذا كان من برهة قد حضر الى بيروت مرسلون بيبليشيون اى انجيليون" البروتستانت" قصد الانذار في لبنان في شيعتهم ومعتقدهم الفاسد ، فتصدى البطرك يوسف حبيش لمقاومتهم وبأشد غيرة . وأبرز ضدهم منشورين بهما ينبه ويحرض ويحتم على ابناء طائفته ليكونوا مترسين من غشهم وخداعهم .

ففي المنشور الاول يحتم الحتم الجازم بكلمة الرب العزيز سلطانها على الجميع بأن لا أحد يقتني أو يبيعها أويشتريها أو يهبها أويطالع بها أويقرأ ، ولا بأية علة وسبب كان . ثم يمنع الاشتراك معهم بالصلاة والتعلم في مدارسهم أو مطالعة مؤلفاتهم وأن الذي يخالف ذلك جميعه بجسارة او يمنع نفوذ هذا المنشور ، فان كان اكليريكيا فليكن ممنوعا بذات الفعل من التصرف بدرجته ، وان كان علمانيا فليكن ساقطا تحت طائلة " الحرم " المحفوظ حله للسلطان البطريركي" (١)

ولم يتعد المنشور الثاني اوغيره هذا المضمون من التهديد والتحذير.

ودخل الصراع بين المرسلين البروتستانت والكاثوليك مرحلة الرد المنظم ودحض الحجج عبر البراهين المتأرجحة بين الانفعال العاطفي للدين حينا ، والخوف على المصلحة ونقد النفوذ حينا اخر.

وهذا مانراه في قيام المطران بطرس كرم " رئيس اساقفة بيروت " يومذاك ، بتأليف كتاب " فند فيه مزاعم البروتستانت " (٢) كما حمل شاب ، كان كاتبا في ديوان ذلك المطران ، على النهوض لمجادلته والرد عليه . هذا الشاب من بيت الشدياق وهو اسعد الشدياق اخو احمد فارس الشدياق واحب اخوته اليه .

---

(١) المقاطعة الكسروانية ، ص ٢٥٨ - ٢٥٩ و صقر لبنان ، عبود ، ص ٣٨

(٢) صقر لبنان ، عبود ، ص ٣٩

لكن امر رده هذا، جرّ عليه الويل ورشق بالحمم الكبير، اذ "استدعاه البطرك الحبيشي الى قنوبين وظل هناك حتى قضى"(١)

وما لاقاه البرتستان من اخصامهم اليسوعيين، لا يعتدّ به، اذا ما قارناه بخصومة الموارنة لهم، ولا عجب في وقفة الموارنة هذه و"التقليد يروى لنا" ان الموارنة لم يناهضوا البروتستان فقط، بل قابلوا قبلهم الآباء اليسوعيين بمثل هذا الكره والمقاطعة وحالوا دون اقامتهم في بلاد جبيل"(٢).

ولئن مضت هذه البعثات في تبشيرها، ساعية، فانها لم تبلغ الغاية التي استهدفتها من هذا العمل، لان الطوائف التي اعترضت طريق البعثات الاجنبية قبل الفتح المصرى لبلاد الشام، بلغت مبلغا، ان لم يعطل جهودها تعطيلا كاملا، فقد حصرها في اضيق نطاق. وهذا ما يبرر بقاء الامريكان منذ وصولهم، داخل بيروت آنئذ مدينة سورة لا يتجاوز عدد سكانها ٩٠٠٠ شخص(٢)

ـ عام ١٨٣٤، عام تحوّل خطير في تاريخ التبشير

احدثت سياسة ابراهيم باشا، الذى جاء سوريا، فاتحا عام ١٨٣١م، تغييرات كثيرة في الحكم، كان منها فتح المجال امام البعثات التبشيرية الاجنبية، والسماح لها بحرية العمل. فتقاطر المبشرون على بيروت، ومنها انطلقوا الى سائر انحاء الشام، حيث عاد اليسوعيون مجددا في بداية العام، كما وصل مرسلون امريكان لينضموا الى سابقيهم. ويأخذ التنافس على النفوذ والغلبة اشده، بين الكاثوليك والبروتستان، حتى يبلغ درجة التناحر في بعض الاحايين.

---

(١) صقر لبنان، عبود ص ٣٩

(٢) صقر لبنان، عبود ص ٤٠

وقد تميز هذا العام بثلاث حوادث مهمة ، كانت على التوالي :

- اعادة الآباء اللعازاريين افتتاح كليتهم الخاصة بالذكور في عين طورة " عيطورة " .
- نقل مطبعة البعثة التبشيرية الاميركية من مالطة الى بيروت .
- قيام ايلي سميث " الامريكي " ، " ١٨٠١ - ١٨٥٧ " وزوجته بتأسيس مدرسة للاناث في بيروت في بناء خاص بها .

وما انصرم عام ١٨٦٣ حتى كانت الارساليات الاميركية قد اسست لها مراكز في عبيه وسوق الغرب وصيدا وحاصبيا وطرابلس . وثلاث من هذه المدارس لا تزال قائمة الى عهدنا هذا .

كما باشر المرسلون الاميركيون ، بعد ذلك ، بوضع نظام تعليمي ، وفق مخطط محدد ، كان قد أعده الخبراء بالشؤون العربية واللبنانية ، وهم ما اصطلحوا على تسميتهم بالمستشرقين (١) .

كما وقاموا بطبع كتب مدرسية مختصرة في أول الامر ، ثم طوروا ذلك بعد حصولهم على مطبعة جديدة سبك حروفها ، المستشرق والمبشر ايلي سميث في ليبزج ، وجعلها على نمط جديد من الحروف ، غير تلك الحروف القديمة انذاك .

---

(١) راجع الاستشراق ص ٥٦ - [illegible]

ومنذ حينها بدأت المطبعة هذه ، تتحمل أعباء مشروعات واسعة في الطباعة العربية وخاصة اخراج الترجمة الجديدة للتوراة •

وبعد أن حل المرسلون الاميركيون مشكلة الحرف والكتاب المدرسي ، اعترضتهم مشكلة تخريج المعلمين المؤهلين • فوجدوا لها حلا في تحويل المدرسة العالية التي أسسوها في بلدة " عبيه " بجبل لبنان الى كلية لاعداد المعلمين وتدريبهم •

وما ان اشرف عام ١٨٦٠ حتى كانوا قد أسسوا لهم ثلاثا وثلاثين مدرسة تضم نحوا من الف تلميذ خمسهم تقريبا من البنات •

وفي مطلع سنة ١٨٦٣ ، اتخذت الارساليات الاميركية قرارا بتأسيس كلية للتعليم العالي عرفت بالكلية السورية الانجيلية ، وكانت تضم ١٦ طالبا فقط عام ١٨٦٦ • لكنها ترقت مع مرور الزمن حتى أصبحت في مستوى المرحلة الجامعية ، وباتت تعرف اليوم بـ " جامعة بيروت الاميركية " •

ولم تكن البعثات التبشيرية الكاثولكية ، خلال هذه السنوات بأقل نشاطا من منافستها البعثات البروتستانتية ، ولعل اليسوعيين ، أكثر هذه البعثات الكاثولكية مضاء وعزيمة ، خاصة في ميدان تعليم الذكور •

وقد سبق القول انهم عادوا الى الشام سنة ١٨٣١ ، وبعد سنتين ١٨٣٣ - ١٨٣٤ اعادوا افتتاح اثنتين من مؤسساتهم السابقة في جبل لبنان ، ثم الحقت فيما بعد مدرسة بكل واحد منها • وأنشأوا مدارس في بيروت " ١٨٣٩ " وغزير ١٨٤٣ " وزحلة " ١٨٤٤ " •

وأصبحت مدرسة غزير في جبل لبنان ، ذات قيمة تاريخية بعد نقلها الى بيروت سنة ١٨٧٥ وتسميتها بـ " جامعة القديس يوسف " •

وكذلك بدأ اليسوعيون في ميدان الطباعة ، فأسسوا أول مطبعة لهم سنة ١٨٤٧ م • وكانت مطبعة حجرية ، ولذلك كان نتاجها ضئيلا جدا • ولم يبدأوا الطباعة بمطابع ذات حروف منفصلة الا في سنة ١٨٥٣ • وحين نقلوا مركز تعليمهم العام الى بيروت أصبحت لديهم أجهزة طباعة كاملة العدة •

كما نشطت البعثات الكاثوليكية الاجنبية الاخرى ، ففضلا عن اللعازاريين الذين أعادوا افتتاح كليتهم في " عنطورة " • أسست راهبات المحبة ، والمنظمات الدينية الاخرى مدارس للبنات والبنين في بيروت وبعلبك وفي مناطق متعددة من جبل لبنان •

هذا وقد تعرضت الكثير من المنشآت التبشيرية للهدم أو التدمير أو الخطر اثناء الاضطرابات التي كانت تهز البلاد من حين الى آخر ، وخاصة حوادث ١٨٦٠ الاهلية • مما كان يستدعي اغلاق بعض هذه المنشآت في أغلب الاحيان • غير أن الامر قد انقلب الى صالح هذه الارساليات ، مباشرة عقب فتنة ١٨٦٠ • فباتت جهودهم حثيثة الخطى • جدية المنجزات ، واسعة الوصاية بشكل أخذ يشمل أكثر المناطق في الجبل والساحل وبيروت •

ج - أهداف التبشير :

لا ريب ، أن أهداف التبشير أخذت الطابع الديني في أول بدايتها ، ثم تطورت هذه حسب مقتضيات المواقف البابوية أحيانا أو مصالح الاستعمار في أكثر الأحايين .

ويمكننا تحديد هذه الأهداف مهما تركت من ايجابية وسلبية فيما يلي :

١ - نشر المذهب بين المسيحيين : كان لاكتساب الافراد ، واستمالتهم الى اعتناق المذهب ، دور كبير في حركة التبشير ودوافعه الأولى ، ولعل صورة التنافس الحاد بين الكاثوليك والبروتستانت في بداية هذا القرن ، أوضح دليل على هذا .

٢ - التنصير للمسلمين : كما ان تنصير المسلمين ، وكسب جماعات منهم ، أمر له شأنه في الهدف التبشيري العام . " وهذا ما تضمنه منهج المبشر " زامون لل " الذي قدمه بشكل كتابين عام ١٢٩٤ للبابا الخامس " سلستين " حيث فصل خطته ذات الشقين بالشكل التالي :

" أولا : أن تتخذ الكنيسة العلم والمدارس وسيلة للتبشير .

" ثانيا : تنصير المسلمين بالقوة اذا لم تنفع معهم الجهود السلمية " .

ان خطة " لل " تعتمد العلم وسيلة لتحقيق الغاية ، وهذا ما يفسر تناحر المبشرين في لبنان ، وخاصة بعد فتنة ١٨٦٠ ، لتأسيس المدارس ودور المعلمين والحضانات في مختلف الارجاء اللبنانية .

هذا من جهة الهدف الديني للتبشير .

أما الوجهة الثانية ، فهي توسل التبشير لتحقيق الأغراض السياسية والمصالح الاستعمارية ثقافيا وحضاريا ، كتمهيد للاحتلال العسكري ، أو فرض الوصاية والحماية على لبنان .

١ - التبشير والاستعمار [illegible]

ويحدد ذلك الدكتور البشرى فيقول : " يرجع اقبال الاوربيين على ارسال البعثات وتنشيط رعاياهم للاقامة في الامبراطورية العثمانية الى اطمئنانهم الى تركيا منذ أن اصبحت زعامتها بأيديهم بعد ابعادهم اياها عن نشاط التوسع المصرى على أطماعهم ثم لتنافسهم على استثمارها اقتصاديا ، وتأهب كل منهم للحصول على أكبر حصة من ميراث الرجل المريض . فتغلغلت بعثات التبشير المختلفة . ولم يكن اهتمام الغرب بارسال البعثات التبشيرية الى الشرق وغيره الهدف الرئيسي منها بقدر ما كان ذلك وسيلة لتمهيد الطرق امام الاستعمار في صورته الحالية " (١)
وهذا ما يؤكده الدكتور عمر فروخ حيث يقول :

" من المعلوم ان فرنسا كانت تطمع منذ مدة طويلة في امتلاك بعض البلاد العربية ، ولا سيما سوريا ولبنان . وكانت تعمد لتمهيد السبل الى ذلك بوسائل شتى ، وكان أهم هذه الوسائل الاستعانة بالارساليات الدينية والمؤسسات التعليمية لبث الدعاية لها بين أهل البلاد .

" ولهذا السبب بذلت جهوداً كبيرة لتكثير عدد هذه الارساليات والمؤسسات ولتوجيه أعمالها في الاتجاه الذى يساعد على اجتذاب الناس اليها " (٢)

ويمكن لنا تحديد هذه الاهداف بالنقاط الرئيسية التالية :

---

(١) أثر سياسة التوميات في الحركة العربية ، د. عبد الغني البشرى ص ١٤٦ . (١٩٦٤ ، ادارة المطبوعات والنشر للقوات المسلحة) .

(٢) التبشير والاستعمار ، عمر فروخ ، ص ٢١٠ .

١ - اضعاف الشعور القومي :

كثار من الباحثين العرب واللبنانيين خاصة الذين يصفون القرن التاسع عشر ، خصل الاتجاه القومي ، ايمانا منهم بان الفكر القومي طفق يسعى بين أرجاء الأمم بدء هذا القرن الذى استحق لقب قرن القوميات من جدارة .

بيد أن الامر، يحلو لبعض المؤرخين " اللبنانيين " في ان يجعلوا بواعث الفكر القومي ، واحيائه وليد جهود المبشرين وارسالياتهم التعليمية في لبنان . الا أن الواقع يبدد هذا الزعم ، فتاريخ التعليم التبشيرى ، ما حفل يوما بالنواحي القومية لما فيها من خطر يتنافى ووجود هؤلاء .

ان حركة البعث القومي التي اشرقت في أواخر القرن التاسع عشر ان هي الا حركة وطنية بحتة قام على احيائها علماء مخلصون ، نزروا انفسهم لاوطانهم وأمتهم . من هؤلاء تألقت شموس التجديد الفكرى ، أعني بهم ، أحمد فارس الشدياق وبطرس البستاني ، واليازجيان ، ويوسف الاسير ، وسعيد الشرتوني ، وسواهم .

ومن يعد الى المناهج التربوية التي قام المبشرون باعدادها يجد حقيقة ما نذهب اليه من أنه اعداد واستهدف تأمين مصالحه السياسية أولا ، ثم ، أولى وجهه عن شؤون هذه الامة ساعيا - بذكاء - الى تشتيت الفكر القومي وتسميم العقلية العربية تحت شعار " التثقيف " و " البحث العلمي " .

ولنستمع الى حديث الافغاني في حاضر اللغة نقلا عن ساطع الحصرى في جولة الثقافة حيث يقول : " أما المدارس الاجنبية ، فقد كان هدف ارسالياتها استعماريا بحتا يمهد للدول الاجنبية في ميادين التبشير الذى يجعل من المستجيبين مخلصين لمصالح الدولة الاجنبية التي تدين بمذهب الارسالية .

وأثبت الواقع أيام الاشتراك وأيام الانتداب الفرنسي وفي عهود الاستقلال نجاح هذه المدارس في مهمتها تلك •

والميدان الثاني التسميم الثقافي على الأقل عند من لم يستجب للمذهب التبشيري [1] ويمكننا حصر نطاق عمل هؤلاء المبشرين في جانبين مهمين يشكلان معا وحدة وجود الأمة قلبا وقالبا • هما اللغة والثقافة •

أ - اللغة والتبشير : لما كانت اللغة ، تشكل بمفهومها الاجتماعي اطار الثقافة ، وتقرر صفتها ، بات من الضروري أن تكون هدف المبشرين الاول واليها توجه السهام وتراشق النبال •

ورب قائل يقول : " ان تعليم الأدب العربي ، واللغة العربية وجد موئلا في المدارس الأجنبية [2] •

أجل بهذا ما كان في بداية أمرهم ، لكنهم ، سرعان ما قلبوا لهذه اللغة ظهر المجن ، بعد أعوام ، حين أيقنوا من ثبات منشئتهم وبرامجهم وما لاقوه من اقبال متزايد بغية العلم الذى طلبه أبناء الشعب عقب حرمان خمسة قرون في النظام العثماني •

وعلى هذا أخذت اللغة الأجنبية تحل محل اللغة العربية التي انزوت في مناهج ضيقة لا تنم عن أى أمل بالتطور والنماء •

---

(١) حاضر اللغة في الشام ، الافغاني ص ٢٣ وما بعده •

(٢) ساطع الحصرى ، البلاد العربية والدولة العثمانية ص ٨٣

وقد يحد البعض تسويغا لهذا فنقول : " ولكنها " أي ارسالية الامريكان " اضطرت أخيرا للتخلي عن هذا التقليد " التعليم باللغة العربية " الجميل لاسباب عديدة منها تنوع الجنسيات التي كانت تتمثل على أرض الجامعة ، ومنها صعوبة ايجاد معلمين من ذوي الخبرة الكافية في اللغة العربية ، وصعوبة ايجاد الكتب المدرسية وتخلف العربية ذاتها عن اللحاق بركب العلوم والفلسفة (١) .

في حين قد مهد لقوله هذا بالعبارة التالية " يتجلى حرصها في الحفاظ على التراث القومي في جعلها اللغة العربية لغة تدريس " .

وانا للخلص من هذا التناقض في قول حتي ، الى تأكيد ما ذهبنا من نوايا خبيثة كان يحمد التبشير من أجلها ، ولنسمع الافغاني وهو يقول في هذا الصدد : " أما في مدارس الارساليات الاجنبية ، فقد جعلت العربية لغة التعليم أولا ، ثم عدلت عن هذا المنهج ، وكانت قد اجتذبت الطلاب وعواطف الاهلين ، جاعلة التعليم قسمة بين اللغة العربية ولغة الدولة الاجنبية ، لكن هذا العدول لم تكن فيه جميع المدارس سواء ، كالمدرسة الانجيلية مثلا ، التي ظلت على نهجها التعليمي ... والظاهر أن هذا التحول عن التعليم باللغة العربية ، في هذه المدارس الاجنبية يعود الى خشيتها أن تنتشر لغة البلاد فتخلق في النفوس المناعة على أهدافها الحقيقية ، وهي لم تنشأ لهذا .

---

(١) لبنان في التاريخ ، حتي ، ص ٥٥٢ .

انما اسست لتفتيت وحدة الامة وجعل بعضها حربا على بعض، ولتستعبد عقول النشء لمثلها ولغاتها وثقافتها حتى ينسلخوا من لغتهم وامتهم الواحدة. وسائر مقوماتهم، لهذا سرعان انتكست جميعا بعد فترة قصيرة وصارت تتراجع بعد ان اعترف بها وقويت بالامتيازات الاجنبية وكثرة الاقبال عليها فجعلت لغة التعليم لغة الدولة الاجنبية التي تنتمي اليها، وبقيت تدرس العربية لغة ثانوية في بعض الحصص تدريسا مهما يكن ضعيفا لم يصل الى العدم كما في المدارس الحكومية " التركية" (١).

ولقد ادرك المبشرون، ومن ورائهم الاستعمار، ان وراء وحدة هذه الامة، لغة ينبض فيها قلب الشعب، وتختزن ذخائر الفكر والتقاليد والتاريخ والفلسفة والدين. وفيها يتحرك كل روحه.

وان هذه البلاد، لن تؤول الى ممتلكاتهم السياسية الا عندما تصبح لغتهم هي القومية، فالعمل الجبار اذن، الذي يترتب عليهم انجازه هو السعي وراء نشر لغاتهم بين الاهالي - بالتدريج - الى ان تقوم مقام اللغة العربية.

وهذا ما يفسر تكوصهم في تعليم اللغة العربية. فالمدرسة الانجيلية (الكلية الاميركية) ببيروت مثلا، خرجت عن خطها فجعلت التعليم بالانكليزية. وكانت تدعت على ان يجري على يدها خير للشعب، وهي انما ارسلت لتخرجه من مقوماته وتمسخ منه اشباه امريكيين، شأنها في ذلك شأن بقية الارساليات والمدارس الاجنبية". (٢)

---

(١) حاضر اللغة العربية في الشام، الافغاني ص٢٣

(٢) حاضر اللغة العربية في الشام، الافغاني ص١٧

ولم يقتصر الأمر عند هذا الحد ، بل تجاوزه الى رمي اللغة بنغمة الاستزادة بالعامية ، التي شجع عليها عبر ما سماه " دراسة خصائص اللهجات " تارة و" اللهجات المقارنة " تارة و" دليل البحث العلمي " وغير ذلك من الأساليب الخداعة .

ثم روجوا لبضاعتهم ، بنغمة ثانية ترى اللغة بالقصور العي عن أن تلحق بركب الحضارة ، وصعوبة ايجاد المصطلحات العلمية والتقنية الجديدة في مفرداتها .

وهذا ما أسماه البعض " تخلف العربية .. عن اللحاق بركب العلوم والفلسفة . (١)

إن في جعل اللغة الأجنبية ، لغة أولى أو شريكة للعربية ، مؤامرة بحق الناشئة . وتفتيتا لقدراتها .

ومن ثم ، فهي عملية تشكيل نفسي وذهني خادع ، ولقد اثبتت جميع الأبحاث النفسية والاجتماعية والتربوية أنه لا يجوز تدريس مطلق علم من العلوم بغير اللسان القومي . هذا كي لا تضاف عقبة فهم غير القومية على عقبة فهم المادة الفكرية . " فالانسان عاجز قوميا عن ان ينتمي الى اكثر من مجتمع واحد . كما هو عاجز عن ان ينتمي الى اكثر من أم واحدة . العلوم التربوية واللغوية والنفسية والاجتماعية ، تزيد على ذلك قائلة : ولا على الانتماء الى اكثر من لسان واحد (٢) .

---

(١) لبنان في التاريخ حتي ص ٥٥٢ .

(٢) في فلسفة اللغة كمال يوسف الحاج ص ١٣٧ .

" والولد الذى يزاول أكثر من لغته القومية وهو دون العاشرة تضعف طاقته الاستيعابية بين لغتين ، واحدة يتكلمها تلقائية وواحدة يتكلمها بجهد في اللسان والفكر ، مما يضيع عليه وقتا كبيرا ويجعله يتذبذب بينهما بدلا من أن يستقر بصورة نهائية ، وان نسيا في صحن لغته القومية • وهكذا يتوزع الولد بين أمتين ، بين تاريخين •••

ولعل هذا ما يبرر اهتمام الارساليات في التعليم الاولي ودور الحضانة اهتماما بلغ حد العناية القصوى • لقد كان جيل الناشئة أمل المبشرين في كل قرية لبنانية •

ويحكي لنا كمال يوسف الحاج ، قصة تعليم هذا الطفل ، فيقول :

" ان كلمات الغير تسقط على " اذنه " وترسخ في ذهنه ، بدون أن يتعمد الانتباه الى استعمال أوجه الالفاظ ••• تتسرب الى فؤاده بلا استئذان تحدث تلقائيا بطريق المحاكاة • هذا التسرب الى الذهن بصورة عفوية ، لا يحصل تماما لو انتمى الانسان الى أكثر من مجرى واحد تمجتمع واحد ••• لان الطفل لا يستطيع أن يجهد فكره ليتعلم اللسان بطريقة واعية ••• على اللغة اذن أن تندس بشكل عفوى في لسان الرطب و اللسان واحدة " (١).

ثم يقول :

" قد تتوالى عضويتان على مدى الزمن ، الواحدة تلو الاخرى • أما سكنهما تحت سقف واحد ، في زمن واحد ، فهذا اشد من رابع المستحيلات •

" قد يستبدل عضوية بعضوية • اذ ذاك يستبدل مجتمعا بمجتمع ••(٢)

---

(١) في فلسفة اللغة ، كمال الحاج ، ص ١٣٨ •

(٢) في فلسفة اللغة ، كمال الحاج ، ص ١٣٨ •

كل هذا السعي بغية تكريس ازدواجية جديدة تفصم فكر الأمة ، وتقصم ظهرها • وتجعل من المواطن فكرا موزعا بين تاريخين ، وثقافتين ، لـــــن يكون منتجا بأحدهما ، كما لو كان في ثقافته القومية •

ب ـ الثقافـــــة :

ان عمر الثقافة ، منوط ، بعمـــر اللغة • واندثار لغة من اللغات ، أو "تأجنبها" يعني أن ثقافة أصحابها ليست مما تقدر له الحياة •

وهنالك ، صفة واحدة يصح اعطاءها للثقافة ، وهي الصفة القومية • وهـــذه تحددها لغة القوم أو الأمة ، لأنها أداة التعبير الأساسية ، ومستودع الأفكار والأحاسيس والأخيلة ، التي كانت تجيش في نفوس الأجداد وعقولهم •

وعلى هذا فاللغة والثقافة بحكم ارتباطهما الوثيق يمثلان جانبا واحدا من حياة شعب أو أمة • من هذا المنطلق ، حدد المرسلون اتجاههم الثقافي "فشكلوا ثقافة تخدم مصالحهم عبـــر تلك البرامج التعليمية ، التي صممت ببراعة وذكاء من قبل المستشرقيـــن والخبراء التربويين •

وقد قسمت هذه الاتجاهات ، حسب مواد التعليم • فأبحاث التاريخ تقوم على مسح مسطح للتراث السياسي والاجتماعي والثقافي ، مرتكز على فواصل زمنية واحيـــة كحروب الردة مثلا ، وفتنة عثمان ، وصراع معاوية مع الامام علي " رضي الله عنه " والحزبيات في العصر الأموي ، والانشقاقات المذهبية ، وغير ذلك من جروح أصابـــت الأمة الاسلامية والعربية ، منكبين على تفاصيلها وأسبابها ونتائجها ، معرضين عن مناحي الانتصارات العظيمة في الفتوحات التي وان ذكرها فلا تزيد عن غزوات استهدفت المال والنساء ، في حين تقوم أبحاث التاريخ الأجنبي على رسم الجوانب الايجابية التي تخلق للجيـــل

المتعلم عالما جميلا في الماضي والحاضر • لتزيد في شعور البؤس عند المواطن من مقابلة الصورة التي يعيشها في وطنه والتي يعيشها المواطن في اوربـة •

هذا بعدا عن اهتماماتهم بالتاريخ الاقليمي القديم ، وبنشر خرافة الحضارات الاولى كالفينيقية في الشام والاشورية في العراق والفرعونية في مصر وهكذا • اما في الادب العربي ، فتذوب معايير الجمال امام نتاج الشعراء والادباء والكتاب مجاطين من هذا التراث مجموعة وقفات طللية ، او اعجاباً ماجناً خليعاً الى الخمرة والمرأة • او غزلها جنسيا شاذا للغلمان • او وصفيا ماديا نقليا للطبيعة والمرئيات لا يعدو الاهتمام الحسي • في حين تتجلى المعايير الجمالية في ابهى حللها امام نتاج الادب الاوروبي شعـــرا ونثرا •

ان تثقيف الناشئة في هذه المدارس الاجنبية لن ينتج عنه الا الانزواء المعنوي • والا الاتكالية النفسية والميل الفكري الى المجتمع الآخر •

واخيرا لا بد من توضيح مسألة في غاية الخطورة هي مسألة ربط الانبعـــاث القومي بوما رافق ذلك من احياء للتراث بالجهود التبشيرية في لبنان وسورية • ذلـــك الربط الذي يحلو لبعض المؤرخين اللبنانيين ، فيرجعون في كل حديث لهم الى ان نشر الثقافة وبث الوعي القومي بين افراد الامة ما كان ليحدث لولا جهود المبشرين •

ان هذا الادعاء مبالغ فيه الى درجة الدس والتشويه التاريخي •• وخير دليـل على دحض ما يذهبون اليه حوادث لبنان عام ١٨٦٠ تلك الفتنة التي غذاها هؤلاء ، مستفيدين من جهل بعض الفئات وتعصبها ، لذر قرن الخلاف وتمزيق شمل الامـة ، ثم " ما اعقب ذلك من نتيجة سيئة في محاولة شد لبنان والاتجاه به خارج الحظيـرة العربية " (١).

---

(١) يقظة العرب ، جورج انطونيوس ص ١٢٦ وما بعدها •

ومما لا ريب فيه ، أن هذه الارساليات ، قد ساعدت على انشاء الكثير من المدارس وتطوير أنظمة التعليم ، ونشر الكتاب كما أدت بطرق غير مباشرة الى نشر حيز من الثقافة بين أفراد الامة ، وتكوين جيل طليعي مثقف فكر في البعث القومي بعقلية مستنيرة على أننا نرى ان هذه البعثات التبشيرية لم تقصد بعث الروح القومية ، بل اتى ذلك بشكل غير مباشر عن طريق الاسهام في تجديد المجتمع واشاعة العلم بين فئات اللبنانيين " المسيحيين خاصة " ..

الباب الثالث

الفصـــل الاول

اتجاهـــات البحث اللغوى
في لبـــنان
في القـرن التاسع عشـــــر

اتسم الدرس اللغوى ، في القرن الماضي ، عند اللبنانيين ، بسمة الجمع والربط والتنسيق والابتداع والاتباع لطرائق البحث وعرض المسائل في حدود التفكير اللغوى العام . فقد نظـر هؤلاء ، في جوانب متعددة ، في اللغة ، جديرة بالدرس والنظر ، وبالرغم مـــن تشعب هذه الجوانب وتنوعها ، فانه يمكن تصنيفها الى طائفتين رئيسيتين :

- طائفة تتصل بجوهر اللغة وحقيقتها ، وما يتمثل فيها من جوانب ترتبط بعناصرها الاساسيـة المكوّنة لها من دراسـة للصوتيات والصيغ والتراكيب والمفردات ومدلولها وغير ذلك .

- وطائفة تتمثل في مجموعة القضايا والمسائل التي تتصل باللغة من قريب او بعيد ، كمسألة وظيفتها في المجتمع واللهجة واسباب تنوع اللهجات في اللغة ، والمستويات اللغوية (الفصحى والعامية) والصواب والخطأ في اللغة وغير ذلـك .

اولا : الطائفـة الاولـــى :

قلنا ان الطائفة الاولى تنطوى على تلك الجوانب الرئيسية التي تتصل بجوهر اللغة وحقيقتها ، والتي ترتبط بعناصرها الاولى المكونة لها . وهذه هي عبارة عن اصواتها وصيغها وتراكيبها ، ثم مفرداتها . ومعاني هذه المفردات . وكل مايتعلق بها من قضايا .

والجدير بالذكر ان لغويي لبنان في القرن التاسع عشر ، لم يخصصوا لكل جانب من هذه الجوانب فرعا من فروع علم اللغة ، او مستوى معينا من البحث ، يكرسون جهودهم لخدمة هذا الجانب او لدراسـة مشكلاته ومناقشة حقائقـه ، بل كانت هذه الجوانب تندرج - معا - في مقدمة كتاب مثلا ، او بتطبيق عملي من خلال قاموس كما فعل الشدياق في كتابيه : الجاسوس على القاموس وسر الليالي في القلب والابدال . او انها تشكل مادة كتاب بعينة ، كما فعـــل

جرجي زيدان في "فلسفة اللغة" . او انها ترد بشكل مقالات متفرقة لا رابط بينها ، كما هو الحال عند ابراهيم اليازجي ، في مجلة الجنان والطيب . او بشكل تنبيهات كما هو الشأن في تلك الردود اللغوية عند الاسير والشرتوني والبستاني وغيرهم .

وسنتناول من هذه المباحث الفكرة الصوتية ، والفكرة الصرفية ، وعلم النحو بحدوده الضيقة اى في نطاق مداره التقليدى من بحث في الاعراب ومشكلاته ، ومحاولات في ايجاز الالفية والمتون والشروح المختلفة او التعليق عليها .

- اما الفكرة الصوتية فنعني بها هنا ، الجانب الثاني من دراسة الاصوات ، اى جانب علم وظائف الاصوات اللغوية "الفونولوجي" حيث قامت دراسة الشدياق ، ومن بعده زيدان ، فنظر الى هذه الاصوات نفسها ، من زاوية وظائفها اللغوية في الكلام ، كعناصر مميزة له . وهذا ماكان اساس نظرية الجذر "الثنائي" عند الشدياق ، وزيدان ، وما قام عليه مضمون معجم "سر الليالي" عند الشدياق .

اما الفكرة الصوفية فنعني بها الفكرة المعجمية التي تراوحت بين النظرية والتطبيق والوضع والنقد عند الشدياق والبستاني والشرتوني . وما كان من مجال البحث في المفردات او الثروة اللفظية لمادة المعاجم القديمة . والتصرف بها من خلال التعديل والاضافة والحذف والتصحيح . ثم ماكان من محاولة وضع هذه المادة وضعا جديدا يتلاءم ومتطلبات العصر في تناول المادة . وهذا ماتمثل في تنبيهات وانتقادات الشدياق في "الجاسوس" على نقده للفيروزا بادى ، ووضعه لنظرية المضاعف الثنائي . وتنبيهات الشرتوني في "ذيل" "اقرب الموارد" او تنظيمات البستاني في تنسيق المادة ومتفرعاتها .

ثم مارافق دعوة الشدياق واليازجي والبستاني والشرتوني الى وضع اللفظ ، والمصطلحات العلمية والفنية التي استلزمتها الحياة الجديدة . داعين من خلال ذلك الى الاشتقاق والنحت كي يتم جمع هذه الثروة اللفظية التي تنقصنا .

./.

- الفكرة الصوتيـة

مهدت الفكرة الصوتية - عند بعض لغويي القرن الماضي - طريق البحث العام ، في اكثر شؤون اللغة . فقد كان لهذه الفكرة الاثر الواضح في عملهم الذى تجسد في معجمات وكتـب لغوية ومقالات .

واولى هذه الافكار الصوتيـة :

آ - محاكاة اصوات الطبيعة :

كان لفكرة محاكاة اصوات الطبيعة ، او الاصوات المسموعة والعمل على تقليدها ، اكبر الاثر في تفكير واعتقاد ابرز هؤلاء العلماء ، كالشدياق وجرجي زيدان ، وابراهيم اليازجي . وكانت مدار ابحاث كثيرة عندهم ارتبطت باساس نشأة معظم الكلمات في العربية ومختلف اللغات الاخرى . ذاهبين في هذا مذهبا قديما طرقه ابن جني في الخصائص وابن سينا في اسباب حدوث الحروف ، تلك النظرية التي تذهب الى ان الانسان بدأ بمحاكاة الاصوات ، وقصد من هذه المحاكاة التعبير عن الشيء الذى يصدر عنه الصوت المحاكى او عما يلازمه او يصاحبه من حالات وشؤون . مستخدما في هذه المحاكاة قدرته على لفظ اصوات مركبة ذات مقاطع . مما جعل لغته في مبدأ امرهـا محدودة الالفاظ ، قليلة التنوع قريبة الشبه بالاصوات الطبيعية التي اخذت عنها ، قاصـرة عن الدلالـة على المقصود ، ولذلك كان لابد لها من مساعد يعين على ادراك ماترمي اليـه . وقد وجد الانسان خير مساعد لها في الاشارات اليدويـة والحركات الجسمية التي سدت فراغا في اللغة الصوتية . واتسع نطاق اللغة من ثم ، تبعا لارتقاء التفكير ومظاهر الحضارة واخـذ الانسان يستغني شيئا فشيئا عن مساعدة الاشارات . وتبعد اللغة عن اصولها الاولى تحت تأثير عوامل كثيرة مثل التطورات الطبيعية التي تعتور الصوت واعضاء النطق الانساني ، والعلاقـات المجاورة والمشابهة التي تعتور الدلالات وما الى ذلك " (١) .

---

(١) الفلسفة اللغوية ، جرجي زيدان ، من حاشية الكتاب للدكتور مراد كامل ص ٥٨ .

٠/٠

وقد كان لهذه النظرية الصوتية اهتمام من ثلاثة لغويين سنتناول رأى كل واحد منهم على حدة ، لفروقات في التفاصيل رغم وحدة المبدأ . وهم احمد فارس الشدياق في كتابيه : " الجاسوس على القاموس وسر الليالي في القلب والابدال " . وجرجي زيدان في كتابه " الفلسفة اللغوية " . وابراهيم اليازجي في مقالات متفرقة في مجلة " الجنان والطيب " .

١ - احمد فارس الشدياق :

مضى الشدياق ، ايمانا منه بهذه الفكرة الصوتية ، في عمل معجم اسماه " سر الليالي في القلب والابدال " وقد قام هذا المعجم على نظرية الجذر (المضاعف الثنائي) كأساس عمل لغوى عام .

ويجب ان نربط ، هنا ، بين اعتقاده في المحاكاة ونظرية المضاعف الثنائي هذه ، كأساس في نشأة الكلم . وهو ما ارتضاه لنفسه من ترتيب المواد في المعجم الذى اراد .

ويقول الشدياق في مقدمة معجمه ، سر الليالي ، مبينا ذلك : " اني رأيت ان معظم اللغة مأخوذ من حكاية صوت او حكاية صفة ، وان حكاية الصوت انما تأتي من المضاعف نحو دبّ ودف ودقّ ... " (١) .

والشدياق ، حين يشرح معاني الالفاظ يحاول ان يردها ، او يرد المعاني التي تدور حولها المشتقات الى هذا الصوت او ذاك .

ففي حديثه عن مادة "عبّ" يقول : " العب شرب الماء او الجرع او تتابعه ، والكرع ، وهو حكاية صوت .. والعُبّب ، المياه المتدفقة والعُباب بالضم معظم السيل وارتفاعه وكثرته او موجه . وجاء من بع . البع : الصب في كثرة وسعة ، والبعاع ثقل السحاب من المطر ونحوه الاباب والحباب . وكل ذلك يؤيد ماقلته من انه حكاية صوت " (٢) .

---

(١) سر الليالي ، الشدياق ، ص ٢٢ وما بعدها .

(٢) سر الليالي ، الشدياق ص ٥٧ .

وكذلك يفعل في كثير من المواد . من مثل : طب وتع ودب وهب ... مبينا انهـــا مأخوذة من حكاية الصوت او حكاية صفـة .

ويقول الكاتب في موضع اخر من الكتاب ذاته " على اني اقول وبالله استعين في تحقيق المقول : ان الفعل في الاصل كالاسم في كونه يوقف عليه بالسكون قبل اتصاله بفاعله . فاذا اتصل بفاعله فتح . وتقرير ذلك ان الواضع لما وضع قـدّ ودقّ ودفّ لم يقصد بها في اول الامر ان تكون فعلا ولا اسما ، بل مجرد حكاية لصوت توهمه بقطع النظر عن شيء اخر . فلما وصل دقّ بفاعلـه قال " دقّ الرجل ولما اراد تخصيصه بان يكون اسما قال دق الرجل . ولهذا كثيرا ماترى صيغة الاسم والفعل في هذا الباب واحـدة .

ويتابع الشدياق قوله : " ولا يكاد يأتي ثلاثي حكاية صوت الا وكان مقلوبه وما يجانسه كذلك . " وذلك نحو دقّ وقدّ وقصّ وقصّ وقطّ " .

" وربما جاءت مواد متعددة مبدوءة بحرف واحد حكاية اصوات . وذلك نحو الصي " والصأصأة والصبّ والصقب والصت اى الصرّ ... وغير ذلك مما يطول تعداده ويمل مراده " (١) .

٢- جرجـي زيـدان :

ويذهب زيدان نفس المذهب الذى سلكه الشدياق . فيرى ان نشوء اللغة وارتقاءهـا راجع الى "موهبة جعلها الخالق في الانسان ، وهي موهبة التقليد " (٢) فالتقليد - عنده - اساس اللغة ، واصل نشأتها ، ومدار ارتقائها . " لان التفاهم سواء كان بالاشارات او بالاصوات فهو راجع الى التقليـد " .

---

(١) سر الليال - الشدياق ص ٢٢ - ٢٤ .

(٢) الفلسفة اللغوية ، جرجي زيدان ، ص ١٣٣ .

ويتابع زيدان حديثه فيربط بين حكاية الصوت ونظرية الجذور اللغوية فيقول : " اننا نستدل من امكان تجريد قسم عظيم من الاصول الثلاثية الى اصول ثنائية تحاكي اصواتا طبيعية ، ومن كون الفاظ اللغة من شانها التغير والتنوع لفظا ومعنى ، على ان الالفاظ المانعة الدالة على معنى في نفسها يردّ معظمها الى اصول ثنائية أحاديّة المقطع تحاكي اصواتا طبيعية . " (١)

ويمضي في تبيان ذلك في كتابه فيقول في موضع آخر منه : " ان الاصوات الطبيعية على اختلاف مصادرها ليست من المقاطع الواضحة في شيء ، ولكنها تؤثر في اذهاننا تأثيرا اذا اردنا التعبير عنه نطقنا بمقطع او لفظ يشبهه ، وهذا مانريد به حكاية الصوت " (٢) .

الى ان يقول :

" فمن حكاية الاصوات الطبيعية الحية وغير الحية على اختلاف مصادرها ومظاهرها اقتبس الانسان لغته ، فاتخذها اولا بالتقليد للتعبير عما يحدثها او مايتعلق به ، وهذا ما يسميه باللغة الطبيعية ، ثم تنوعت وتفرعت بالنحت والابدال والقلب تبعا لاحتياجات الانسان حتى صارت الى ماهي عليه بتوالي الاجيال " . (٣) .

ويشرح زيدان طريقة المحاكاة هذه فيرى انها تبدأ في " ان يقلد الانسان تلك الاصوات او ما يحاكيها للدلالة على الاشياء التي تحدثها كما لو اراد الدلالة على الكلب بتقليد صوت عوائه ، او الاشارة الى الريح بتقليد صوت هبوبها ، او اراد قولنا (قطع) تقلد صوت القطع ، وهو " قط " او ماشاكل ذلك (٤) . "

وكأن زيدان ، يدرك صعوبة قياس هذا على كل مفردات اللغة ، فيتوسل طريق المجادلة معتمدا على مرحلية التطور التي فرعت ونوعت معاني الكلم جريا على ناموس الارتقاء العام .

---

(١) الفلسفة اللغوية ، زيدان ص ١١٣ .
(٢) نفس المصدر ، ص ١٤٠ .
(٣) = = ص ١٤٠
(٤) = = ص ١٤٠ وما بعدها .

ولنتركه في سبيله يدافع قائلا : "وقد يعثر التسليم بنشوء اللغة من الاصوات الطبيعية وحدها لانها لاتكاد تذكر بالنسبة الى الفاظ اللغة واشتقاقاتها وانواع تعبيرها مما يعد بمئات الالوف ، على حين ان الاصوات الطبيعية لاتكاد تزيد على المئة ، والجواب ان ذلك طبيعة جار في الطبيعة يتناول سائر الاجسام الحية وما يتعلق بها ، فكلها تنمو وترتقي وتتنوع وتتفرع وتتكاثر جريا على ناموس الارتقاء العام . فقد رأيت فيما تقدم من تاريخ الانسان انه تدرج الى سائر حاجياته ، فارتقى من ابسط الادوات الى ما يتركب منها حتى صارت تعد بالمئات ، فكانت القطعة من الجلد مثلا تقوم عنده مقام كثير من الثياب والاثاث ، فكان يتزيها نهارا ويتحلفها ليلا ...

وقد يستعين بها على اعمال اخرى كثيرة لاتحصى ، فهي تقوم عنده مقام اللباس والفراش وغير ذلك . وهكذا يقال في الفاظ اللغة ، فقد كانت اللفظة الواحدة ، او المقطع الواحد يقوم مقام مئات من الالفاظ ، من امثلة ذلك ان الانسان رأى الماعز مثلا وسمع صوته ، فدل عليه بحكاية صوته ، وهي "مع" وهكذا يفعل الاطفال اليوم ، فانهم يدلون على الماعز بقولهم "مع" ولكنهم يدلون بها ايضا على لحمه وعلى شعره وعلى اشياء اخرى يختلف تعيينها باختلاف الاحوال والانسان في اول فطرته سمع صوت القطع مثلا فنقلوه بمقطع "قط" وجعل يدل به عما هو في لغتنا قطع او كسر ، ولكنه كان يدل به ايضا على كل مايتعلق بالقطع ، مثل فعل القطع ، والمادة المقطوعة واليد التي قطعت والاحوال التي قطعت فيها وما شاكل ذلك .

ثم ان كل مقطع من المقاطع الطبيعية يتحول بالنحت والابدال والقلب ، وبالنمو ، والتفرع والتنوع الى الفاظ كثيرة مشتركة في المعنى الاصلي ، فيخصص الانسان كل تفرع لفظي بتفرع معنوي على اساليب وطرق لاضابط لها " (١) .

ويمعن زيدان في التدليل على مذهبه ، بعودة تاريخية للالفاظ ودراسة احوال اللغات على اختلاف درجاتها منتهيا الى ان لاغرابة في ماذهب اليه .

ويورد امثلة تقريبية نوجز منها هذا المثال : "لفظ وَى ، وهي لفظ ينطق بها

---

(١) الفلسفة اللغوية ، زيدان ص ١٤٠ — ١٤١ .

./.

الانسان للتأوه من فطرته ، وقد تركب منها ومن لام الجر لفظ ، ويل ، يدلون بها على التفجيع او حلول الشر ، وقد عرفوها وزادوا فيها ، فقالوا ويّل وتويّل وتوايل واتخذوها اسما لوادٍ في جهنم الخ ...

"وقد شق الانسان من حكاية صوت التوجع "آه" فعلا فقال : (آه يأوه أوها) اى شكا وتوجع وهكذا (تأوه تأوها) . وقد دعوا داء الحصبة (آهة) والجدرى (مآهة) وكل ذلك لتناسب في المعنى واللفظ ، وهذه التسمية تذكرنا بلغة الاشارات حيث يعبرون عن المعنى بتقليد صفة من صفاته ، او تشخيص حادثة ملازمة له ، فانهم بتسميتهم الحصبة (آهة) كأنهم يشخصون مايرافق ذلك الداء من تأوه المريض . " (١)

٣- ابراهيم اليازجي :

ويتابع ذلك ابراهيم اليازجي في احدى مقالاته ، ولكن بحذر وتحفظ شديدين ، رغم اعتقاده بأصالة الفكرة . غير ان الجديد هنا في البحث ان اليازجي لايذهب مذهب تعميم الشدياق او مغالبة زيدان . بل يكتفي بعرض الفكرة عرضا يفهم منه انه ناقل ، وراصد للفكرة ليس الا .

فهو يقول : " ثم انا اذا تفقدنا الالسنة القديمة وجدنا كثيرا منها منقولا عن الاصوات الطبيعية ، تحداها الانسان بمنطقه ، وحكى بها الصوت المسموع ، فاهتدى السامع الى مراده بمعرفة ذلك الصوت في عهده . "

ويتتبع خطى الشدياق ، ناقلا نفس الالفاظ فيقول : " وذلك ان لفظ دق مثلا ، اذا اعتبر فيه جانب الحكاية ، ولا شك انها كانت معتبرة زمان الوضع ، كان حقيقيا ان يدل بنفسه على المعنى المقصود منه ، لانه حكاية الصوت الطبيعي الناشي " من صك جسم جامد بمثله . وقس عليه كثيرا من امثاله ، وان تفاوت امرها في الوضوح والخفاء " (٢)

---

(١) الفلسفة اللغوية ، زيدان ص ١٤٧ .

(٢) عن الروائع ، جزء ٤١ ، فؤاد افرام البستاني ، ص ٢١ .

وهكذا يرجع اليازجي " اصل المواد في اقدم اللغات الى ذينك الحرفين ، المشكلين صوتا بسيطا (١) نتج عن الاصوات الطبيعية . و " آثار هذا في لغتنا اكثر من ان تحصى ، وذلك كقولـه : خـرّ الماء ، ونشت القدر ، وطن الذباب ، وهلم جرا ، (٢) مما لاشك في كونـه مأخوذا من الاصوات الطبيعية لظهور حكايتها فيـه .

لكن ابراهيم اليازجي ، سرعان ماينسب هذا القول الى غيره فيقول : " وهذا هو القول الشائع عند جمهور علماء الالسنة ، واليه مال ابن جني وغيره من المحققين (٣) . "

ب - الاصوات التي تدخل في ترتيب الكلمـات :

تابع اللغويون في القرن الماضي مابدأ به ائمة اللغة قديما من درس لمسألة الاصوات التي تدخل في بنيـة تركيب كل لغة ، هذه الاصوات التي يرمز لها بالحروف .

وقد بحث الشدياق في هذا ، موضحا معنى اختلاف عدد الاصوات في كل لغة عنـه في الاخرى ، واختلاف دوران الصوت الواحد في اللغة الواحدة وائتلاف الاصوات اوعدم ائتلافها في اللغة الواحدة . وتعرض لهذه المسائل جميعا مبديا موافقته احيانا لما ذهب اليه اللغويون الاولون ، او معلنا مخالفته لهم احيانا في اكثر من موقف .

وهو يذكر لنا ان اللغويين يختلفون في عدد حروف الهجاء ، وفي ترتيبها ، " فعند بعضهم ومن جملتهم الخليل بن احمد والمغاربة انها تسعة وعشرون حرفا ، وعند بعضهـم ثمانية وعشرون . وكأن حجة من يعدها تسعة وعشرون ان الالف احدى حروف العلة فهي اذاً حرف ... (٤) " . وحجة من يعدها ثمانية وعشرين انها اى (الالف) لايفرد لها باب في اللغة ، لانها لاتكون الا زائدة او مقلوبـة فلا تقر عليها افعال كسائر الحروف .

---

(١) نفس المصدر السابق ص ٢٢ (بتصـرف)

(٢) = = = ص ٢٢ (بتصـرف)

(٣) = = = ص ٢٢ (بتصـرف)

(٤) الجاسوس - الشدياق . ص ٤٠ .

./.

" وبقي علينا ان نعلم ... وان نعلم ايضا من رتب الحروف هكذا . ولاى سبب فصل بين المتجانس منها مثل التاء والدال والطاء والهمزة والعين . والثاء والذال والظاء — والحاء والهاء ، فانا نرى بعضها ينقلب عن بعض في الفاظ كثيرة لا تعد ولا تحصى "

وفي الصحاح والقاموس والعباب واساس البلاغة والنهاية والكليات رتبت الواو قبل الهاء وفي المصباح ولسان العرب وشفاء الغليل رتبت الهاء قبل الواو (١) .

ويتابع ذلك فيقول ايضا : " واغرب من ذلك مخالفة المغاربة لنا في ترتيب حروف الهجاء جملة فانها عندهم هكذا (٢) ... " اما ترتيب الحروف على ابجد فالظاهر انه جرى على ترتيب اللغة السريانية الى حرف التاء وهي فيها تاو . ثم زادوا عليها تخذ ضظغ .. " (٣) .

كما عرض الشدياق لاختلاف آخر يتعلق باختلاف عدد الاصوات في كل لغة عنها في الاخرى . والاصوات التي تتألف منها الكلمات في العربية ، غير تلك التي تتركب منها في السريانية ، غير تلك التي تتركب منها في الانكليزية ... وهكذا .

ويرى الشدياق ان اللغويين العرب قد وقعوا في بعض الاخطاء عند محاولتهم حصر هذه الاصوات وبيان مايوجد منها في لغة العرب ولا يوجد في غيرها من اللغات . وانهم قد جازفوا حين قالوا ما قالوا . ولنسمعه في حديثه : " وانما نقل الشارح عن المحشي ان الشيخ ابا حيان رحمه الله قال : ان العرب انفردت بكثرة استعمال الضاد وهي قليلة في لغة بعض العجم ومفقودة في لغة الكثير منهم وذلك مثل العين المهملة . وذكر ان الحاء المهملة لاتوجد في غير كلام العرب (٤) . ونقل مانقله في الضاد عن شيخه ابن ابي الاحوص . ثم قال : والظاء يعني المشالة مما انفردت به العرب دون العجم . والذال المعجمة ليست في اللغة الفارسية . والثاء المثلثة ليست في الرومية ولا الفارسية قاله ابن قرب . والضاد ليست في لسان الترك . قال : فهذه فوائد يحتاج اليها وقد اوردها بالمناسبة لخلو كثير من المصنفات منها مع انه ربما يتوقف عليها كثير من الاحكام اللسانية . اهـ .

---

(١) الجاسوس ص ٤٠ .

(٢) الجاسوس على القاموس ، الشدياق ، ص ٤٠ — ٤٢ .

(٣) ا ب ت ث ج ح د ذ ر ز ط ظ ك ل م ن ص ض ع غ ف ق س ش ه و ا ى .

(٤) انظر جمهرة ابن دريد ص ٤ .

قلت هذا الذى ذكره لايحتاج اليه اصلا لانه غير صحيح . فان الحاء توجد في السريانية والعبرانية وغيرهما . ووجود الثاء في اللغة الرومية اكثر منه في اللغة العربية . والفاء توجد في اللغة التركية فما معنى هذه المجازفة " (١) .

ومسألة الاختلاف في عدد الاصوات في اللغات المختلفة انما تظهر آثارها في ترتيب المصطلحات واسماء الاعلام ، اذ في مثل هذه الحالة يحتاج المترجم الى ادخال صوت جديد في اللغة والى التعبير عنه برمز جديد .

كما عرض الشدياق لمسألة الاصوات التي تأتلف والتي لاتأتلف ، ثم الاصوات المؤتلفة حين يكون ائتلافها منتجا او عقيما . وهي مسألة عرض لها الاقدمون ايضا في الكثير من الكتب . وبخاصة تلك التي كتبت في العهد الاول من عهود اللغة كالعين للخليل وجمهرة ابن دريد . وككل كتاب لغوى جمع وحرص فيه صاحبه على بيان الكلمات المستعملة والكلمات المهملة . وهذا هو قول ابن دريد في الجمهرة : " (فأول) مايحتاج اليه الناظر في هذا الكتاب ليحيط علمه بمبلغ عدد ابنيتهم المستعملة والمهملة ان يعرف الحروف المعجمة التي هي قطب الكلام . ومخارجها بمخارجها ومد ارجها وتباعدها وتقاربها وما يأتلف منها وما لا يأتلف وعلة امتناع ما امتنع من الائتلاف وامكان ما امكن . وانا مفسر لك ان شاء الله تعالى الفاظ الحروف المعجمة بمخارجها ومد ارجها وتقاربها وتباعدها وما يأتلف وما لا يأتلف بعللها (٢) . " . . .

والشدياق حين يدلنا على الصيغ المهملة لايذكر لنا الاسباب الدافعة الى هذا الاهمال في وضوح وبيان . كما كان الاقدمون من اللغويين يفعلون . وانما كان يكتفي بان يقول لنا ان العرب لاتجمع بين هذا الصوت وذاك او هذا الحرف وذاك في كلمة واحدة . .

---

(١) الجاسوس على القاموس ، الشدياق ص ٢٨٩ .

(٢) جمهرة اللغة ابن دريد ، ج ١ ص ٤ . (طبعة بالاوفست) دار صادر . بيروت

./.

وهذه بعض الامثلة التي اورد الكثير منها في كتابه " سر الليال " لم يأت في التركيب قب ولا مقلوب له " (١) . " لم يجي " تركيب د ت ولا شي " بعده (٢) . " " واعلم انه لم يجي " في تركيب الكلام تص (٣) " . " لم يأت في الكلام ذ ث ولا شي " متفرع عليه ولا مقلوبه (٤) " . " ثم الاجاص بالكسر مشددة ثم ام دخيل لان الجيم والصاد لايجتمعان في كلمة واحدة من كلام العرب (٥) " ، " واعلم انه لم يجي " عجق لمكان الميم والقاف (٦) " . واعلم انه لم يجي " في الكلام غجسر " (٧) .

وهكذا يفصل حين يتحدث عن الصيغ العقيمة . يقول : " فته في الماء فطه ومثله غسه وغته وبالامر كده ولا يخفى مجانسة الغين للكاف والتاء للدال .. وهو من الافعال العقيمة (٨) " ثم ولي رت زت وهذا التركيب عقيم (٩) . "

اما الاقدمون فقد حاولوا تعليل هذه الظواهر . وهم في تعليلاتهم لها يحاولون ارجاع السبب الى عمل الارادة الصوتية الى عمل الحنجرة .

- اما اليازجي ، فيتناول موضوعا دقيقا يشرح فيه معنى الصوت والاشارة ، واقدمية الصوت الذى يمثل آلة التفاهم والبيان ، لانه يتناول بالاذن " فيصلح لافهام المقبل والمعرض وسائر الدوالى من الاشارة ونحوها ، وان قامت ببعض هذا البيان ، لاتتناول الا بالنظر . و ... تأدية المعاني بالصوت ، امر طبيعي مخلوق في الانسان ...

الى ان يقول .. " لما كانت جوارح الصوت في الانسان اطوع لتكييف وتحقيق مقاطعه

---

(١) سر الليال ، الشدياق ، ص ٢٠٩
(٢) = = = ص ٢٩٣
(٣) = = = ص ٣١٠
(٤) = = = ص ٣٧٧
(٥) = = = ص ٤١٨
(٦) = = = = ٤٤١
(٧) سر الليال ، الشدياق ص ٤٥١
(٨) = = = ص ٢٨٨
(٩) = = = ص ٣٠٢

كان الانسان ناطقا بالطبع ، ويدل على كل معنى بلفظ موضوع له ، وسائر الحيوان لا يخرج عن مثل ماذكر من الاصوات الطبيعية يدل على انفعاله بطبقة الصوت ، وهيئة اطلاقه ، بين ان يكون لينا ، او خشنا ، او عاليا ، او سافلا ، الى ماشاكل ، ذلك فهو بالصوت الموسيقي اشبه منه بالصوت المنطقي . ولذلك كان اكثر حاله الدلالة على المعاني الوجدانية من نحو الحزن والالم .. وقلما يدل على معنى خطابي ، كدعاء الوالدة من الطير فراخها للزق .. الى غير ذلك مما يقع به التفاهم ، ومما اتفق عليه علماء الطبائع بتكرر المشاهدات ، وان لم يتبينوا كيفيته ، الا انه على الجملة محصور في حدود لا يتعداها ، ترجع الى صيانة الحياة وبقاء النوع (١) .

ويمضي اليازجي في تبيان اولية هذه الالفاظ الدالة على الوجدان ، في الوضع ، لكون معانيها اقدم في الطبع ، فيقول : " ولذلك كثر فيها الصوت الهاوي الذي هو ابسط الاصوات . ونعني به حرف اللين على اطلاقه . " وقلما دخل في تركيبها غير احرف الحلق لقرب مخرجها من الحنجرة التي هي موضع تمثل الصوت ، وذلك من نحو : آه ، وآخ ، ووى ... واشباهها مما نعبر عنه باسماء الاصوات ، وهي من اللفظ المشترك في اكثر اللغات على صور متقاربة " (٢)

ج ـ العلاقة بين الصوت والمعنى :

من كل ماتقدم من درس للصوتيات ، يتبين لنا ان علماء القرن الماضي ، في لبنان ، قد اولوا هذه الوجهة عنايتهم حتى اكتملت صورة الفكرة الصوتية بمبحث العلاقة التي اعتقدوا بوجودها بين الصوت والمعنى ، او بين الحرف الذي يرمز الى الصوت والمعنى . فقد رأوا كما رأى القدماء من اللغويين العرب ، قبلهم ، ان بعض الحروف تدل على الصلابة والقوة ، وبعضها يدل على اللين والرخاوة وهكذا ...

ويعرض الشدياق لهذه المسألة على نظام دقيق فهو يتناول الحروف حرفا حرفا ، ويحاول ان ينبه على المعاني التي يوحي بها ، او يدل عليها الحرف . وهذا ما فعله في كتابيه " منتهى العجب في خصائص لغة العرب " الذي لم يطبع ، وما زال مخطوطة مفقودة .

---

(١) عن الروائع ، فؤاد افرام البستاني ص ٢٠

(٢) نفس المصدر ص ٢١ .

وبعض سوانح وردت في " الساق على الساق " .

ولنسمعه في مقدمة " الفاريان " (١) هذا يقول : " فمن خصائص حرف الحاء السعة والانبساط نحو الابتحاح والبراح والبراح والابطح والابلنداح ..

" ومن خصائص حرف الدال اللين والنعومة والفضاضة نحو البراخدة والتيد والثأد والقعد .. والشهد و .. الخود ... وربما عادلوا في بعض الحروف . اى راعوا فيها الاكثار من النقيض فان حرف الدال يشتمل ايضا على الفاظ كثيرة تدل على الصلابة والقوة والشدة . وذلك نحو التأدى والتأكيد والتأييد والجلمد والحديد والتشـــدد ... الـــخ

" ومن خصائص حرف الميم القطع والاستئصال والكسر نحو أرم وأزم وترم وجذم وجرم وجزم .. ويلحق به من الامور المعنوية حتم الامر اى قضي وحرم وحتم وحزم فان معنى القطع ملحوظ فيها . ويكثر في هذا الحرف ايضا معنى الظلام والسواد .

" ومن خصائص حرف الهاء الحمق والغفلة والرثاء . اى قلة الفطنة نحـــو أله وأمه وبلـــه و .. وقس على ذلك سائر الحروف (٢) . "

ومما يذكره الشدياق ايضا في هذه المقدمة ، انه قد درس في كتابه " منتهى العجب ... " اشياء اخرى تدخل في خصائص هذه الحروف وعجيب صفتها وغريب امرها . وما يدخل في بحث كون بعض الصيغ يختص بمعنى من المعاني نحو اجرهذّ واسمهر (٣) . "

هذا ويشرح لنا الشدياق ، تلك الصلة الكامنة بين الاصوات والمعانـــي حين يتحدث عن حكاية الصفة وكونها عاملا من عوامل نشأة اللغة ، فيقول :

" اما حكاية الصفة فهي نظم حروف يتوهم الناظم منها انها تدل على صفة شيء باعتبار ما في تلك الحروف من اللين والترخيم والشدة والتفخيم كقولهم مثلا شيء

---

(١) كلمة منحوتة من (الساق على الساق فيما هو " فارس الشدياق ") تدل على اسم الكاتب .

(٢) من مقدمة الساق على الساق ، احمد فارس الشدياق ص ٦٥ — ٦٦

(٣) = = = = = = = = = = ص ٦٦ .

منمنم اى مزخرف ... وشيء مطلسم او مدوّر مضموم مجتمع .. وكقولهم امرأة رجراجة اى يترجرج عليها لحمها (وربما التبست هنا حكاية الصفة بحكاية الصوت) وكقول العامة مربرب للصمين المكتنز " . (١)

" وعلى هذا الاساس السابق اساس الصلة بين الحرف والمعنى كان الاقدمون يقولون بان الكلمات التي تكون فاؤها وعينها من اصوات واحدة تكون معانيها متشابهة او متقاربة .

ويقول الشدياق " ان الزمخشري قد ذكر هذ اعند تفسيره لقوله تعالى واولئك هم المفلحون . من كتاب الكشاف .

" وهذا ماذكره الزمخشري على الصورة التي اورده بها الشدياق (المفلح) الفائز بالبغية كأنه الذى " انفتحت له وجوه الظفر ولم تستغلق عليه . (والمفلج) بالجيم مثله . ومنه قولهم للمطلقة استفلحي بامرك بالحاء والجيم . والتركيب دال على معنى الشق والفتح وكذلك اخواته في الفاء والعين نحو فلق وفلذ وفلى "(٢) .

وللشدياق ايضا بعض الاراء التي استخلصها من مطالعاته في الكتب اللغوية ، وقد سجلها في " سر الليال " من هذه الاراء ماينطوى على فهم دقيق للصوتية . وقد جاء في الصفحة الثامنة من مقدمة الكتاب المذكور ماقوله : "وكثيرا ماترى معنى القطع يجامع معنى الجمع فان من اراد مثلا ان يصنع ابريقا ونحوه فانه يجمعه اولا .. فهذا الجمع لايخلو من القطع ومن ثم جاءت الفاظ كثيرة بمعنى القطع والجمع فمن باب الباء وحده جاء قَطَبَ اى قطع وجمع وشعب اى جمع وفرق وضرب قطع وضرب اجتمع واكثر الافعال المقدمة تأتي مفتوحة العين في هذا الاسلوب واللازمة مكسورة .

" وكثيرا ما تجد المضاعف بمعنى قطع ومعتل اللام بمعنى جمع نحو جبّ وجبى وقبّ وقبا .

---

(١) سر الليال ، الشدياق ، ص ٣١ .

(٢) الجاسوس على القاموس ، الشدياق ص ٢٧ .

./.

" واجدر بالمعتل ان يسمى صدى المضاعف فانه ابدا يحكيه ويدانيه كثيرا ايضا ماتجد الفعل مبدوءا بالكسر مثلا ثم يشتق منه الفاظ للقطع نحو همس كسر والهسهاس القصاب او يبتدىء بالطعن ثم ينتهي بالقلع كما في نشص او بالقطع ثم يشتق منه لفظ للتبديد او للافساد لما تقدم من ان هذه المعاني اخوات(١) وكثيرا ماتجد فعلا واحدا متضمنا لمعنى القطع والكسر كما في اجتزع او يكون جامعا لجميع هذه المعاني كما في عبط فانه بمعنى ذبح وقشر وجفر وشق واثار وافترى واجرى ٠

" وربما ذكرت مثلا من حكاية صوت او كان حاصله الشق او القطع او اسما من حكاية صفة من دون تنبيه على ذلك ٠٠ وقلما رأيت مادة خالية من فعل يدل على القطع الا ووجدت فيه لفظة ترادفه قطمة او فرقة وهذا النوع لم احرص على تتبعه كما حرصت على تتبع الافعال وانما جمعت منه ماعن(٢).

ولا يخفى ماللدراسات القديمة من اثر في ذل ماذهب اليه الشدياق وغيره من العلماء المحدثين في ربط الحرف بالمعنى وعلائق الجذر بالاشتقاق وعلائق المقطع بمدلوله وغير ذلك من المباحث الصوتية التي ذهب اليها الثعالبي في " فقه اللغة " وابن جني في " الخصائص " وسواهم ٠

ويتابع زيدان ماذهب اليه الشدياق ، فيرد الالفاظ كلها الى اصل هذه العلاقة بين حروفها والمعنى ٠ مبينا ان الالفاظ ذات المعنى الواحد ـ حسب رأيه ـ ترتد الى اصول ثنائية (احادية المقطع) ثم يقيم الصلة بين هذه كأصول والمعنى الطبيعي ٠ و " قط " وقطب وقطف ٠٠ جميعها تتضمن معنى القطع ٠٠ والاصل المشترك فيها قط ، و " هو بنفسه حكاية صوت القطع كما لا يخفى (٣) " ٠ و " منها جذ وجذب " يقال جذب الريق اذا انقطع ٠٠ وجذر وجذف وجذم وكلها بمعنى قطع ، ويجانس جذ جز وهذه حكاية صوت المقص ، اذا جز شعرا او صوفا ٠٠ " و " تنوعات هذا المعنى تفوق المئات عددا ، وقد

---

(١) سر الليالي ، الشدياق ص ٨ و ٩

(٢) سر الليالي ، الشدياق ص ٨ من المقدمة ٠

(٣) الفلسفة اللغوية ، زيدان ، ص ١٠٠ (بتصرف) ٠

٠/٠

تصرفوا في استعمالها على طرق مختلفة حقيقة ومجازا ، وكلها ترد بالاستقراء الى اصل واحد ، وهو حكاية صوت كما رأيت (١) .

ويتابع قوله ، فيرى انه " من ضروب الفتح (لنا) فق وفقأ وفقح .. والعامة تقول فقع وجميعها ترد الى فق وهذه حكاية صوت القربة اذا شقت وهي ملآنة او ماشاكل (٢) .

وسنتناول قضية المضاعف الثنائي ، ونظرية تشكيل الجذر عند هؤلاء اللغويين في الفصل التالي من البحث .

الفكرة الصرفية والروابط الوضعية :

قلنا ان اللغويين اللبنانيين في القرن الماضي نظروا في الفكرة الصوتية من زاوية وظائفها اللغوية في الكلام كعناصر مميزة له . وقد ارتبطت هذه الابحاث (المورفولوجية) الى حد كبير بقضايا العلائق الوصفية التي في اصل الجذر ، ومراحل تطوره ، وما لحق ذلك من مسائل في الاشتقاق والقلب والابدال .

ومما هو جدير بالذكر ان كثيرا من هذا الاعتقاد او التطبيق الذى قام به بعضهم كالشدياق ، او ما استدلوا به من برهان ، يرتبط بالدرس اللغوى القديم ، وقليلا مايخلو من التقليد والاتباع ، كما لا ينجو ـ احيانا كثيرة ـ من الخطأ والزلل . وان كان المنطلق الاساسي يبدو سليما في البداية .

فكرة الجذور و ـ " النظرية الثنائية " :

كان من نتائج الدرس اللغوى في الصوتيات ، وعلائقها الطبيعية ان اعتمد لغويو القرن الماضي ، تقرير نظرية واحدة في الجذور اللغوية ، آمنوا بها ، ودافعوا عن اصالتها وصوابها .

---

(١) الفلسفة اللغوية ، زيدان ، ص ١٠٠ .

(٢) الفلسفة اللغوية ، زيدان ص ١٠١ .

./.

ويمكن ان نعتبر " نظرية الثنائية " فكرة عامة ، عند هؤلاء ، اقتنعوا بصوابها ، وبما يتفرع عنها من قضايا . هذا الاعتقاد بـ " الثنائية " تمثل في ناحيتي ، النظرية والتطبيق . وغالبا ما كانت الناحيتان تتمازجان في كتاب واحد مثلا كما هو الحال عند جرجي زيدان في " الفلسفة اللغوية " . او تنفصل النظرية عن التطبيق فيكون لكل منهما كتاب بعينه ، كما حاول الشدياق في " الجاسوس على القاموس " و " سر الليال في القلب والابدال " . اما ماعداهما من اللغويين ، فقد كانوا عالة عليهما ، حتى ، يمكننا ان نقرر بان الشدياق لوحده ، قد تفرد بالعمل الكبير ، ولحقه زيدان ، فيما بعد ، في اكثر آرائه .

لذا ، سنتناول كلا من نظرية الشدياق وزيدان على حدة ، دون ان نوحد بينهما في كل متجه ، لانه على الرغم من اتفاقهما على المبادئ فانهما يختلفان في التفاصيل .

ـ احمد فارس الشدياق ونظرية " المضاعف الثنائي " :

يمكن اعتبار ان الشدياق اول من بحث في الجذر اللغوي في واصوله ، في القرن الماضي . حيث استقى من درسه اللغوي نواة نظرية آمن بها ، مالبثت ان تبلورت في عمل معجمي كبير . اعتمدها في اساس ترتيبه وتنظيم مواده . وهذه النظرية تعتبر ان الثنائي اصلا في المادة المعجمية .

غير ان مصطلح " الثنائية " كتسمية ، هكذا ، لم يرد بصراحة عند الشدياق بل وردت التسمية التي ارتضاها لعمله المعجمي في كتاب " سر الليال في القلب والابدال " بـ " المضاعف الثنائي " .

ورغم اختلاف التسمية تبقى النظرية الثنائية هي ذات المضمون ، والنهج اللذين اتضحا من خلال معالجة الشدياق للفعل ومقلوبه . " فمقلوب حث " ، مثلا ،

./.

في معجمه ثخ (١) ، ومقلوب عث ثع (٢) ، وجث ثج (٣) وجب بج (٤) وهكـذا ...

ومعلوم ان طريقة القلب هذه ، عند الشدياق واعتماده المضاعـف اصلا ، تعود الى دعوة الخليل ابن احمد ، في القرن الثاني الهجرى ، في معجمه " العين " الذى صدره بمقدمة دعا فيها ماندعوه اليوم بالفعل الثلاثي المضاعف ثنائيا مضاعفا ، وخصه بفصل خاص صدّر به الباب الذى يفترض ان ينتظمه . وكذلك فعل ابن دريد في الجمهرة ، وابن فارس في المقاييس ، وابن القوطية وابن القطاع في كتاب الافعال (٥) .

" وحين وضع الراغب الاصفهاني (؟ - ٥٠٢ هـ) معجمه (المفردات في غريب القرآن) وضع هذا الفعل موضع الثنائي فاعتبر مادة مدّ (م . د) ، لا (م . د . د) . وعلى ذلك قدمها على مدح وبابها (٦) .

لكن هؤلاء اللغويين ، ماسعوا في عملهم هذا بغية الكشف عن نظريـة تقوم على ثنائية اصل هذا الفعل ، وجل ما ارادوه ، او كانت الغاية منه - في الغالب - حصر الالفاظ وتصنيفها ليس اكثر ..

غير ان لغويي القرن الماضي ، في لبنان ، كثيرا ما استهوتهم فكـرة ثنائية الاصول " فاتخذوا منها أساساً لنظرية شاملة تنتظم معظم الالفاظ العربية (٧)

---

(١) سر الليال ، الشدياق ، ص ٣٦١

(٢) = = = ص ٣٦٥

(٣) = = = ص ٣٧٤

(٤) = = = ص ١٠٣

(٥) = = = ص ٨٩

(٦) = = = ص ٨٩

(٧) = = = ص ٩٠

./.

وهذا ماحدا بالشدياق الى تأليف معجمه المذكور .

وهكذا يحتذى الشدياق في تقاليبه للفعل المضاعف حذو الخليل الذى يقول : " اعلم ان الكلمة الثنائية المضاعفة تتصرف على وجهين نحو قد دق وشد دش " (١) .

اما الدوافع التي حدت بالشدياق الى اخذ "المضاعف الثنائي " اصلا فيمكننا حصرها من مجموعة تصريحات له وردت في مقدمة " سر الليالى " نستخلص منها مايلي :

١- كون " معظم اللغة مأخوذ من حكاية صوت او حكاية صفة " (٢) . و " ان حكاية الصوت انما تأتي من المضاعف نحو دب ودف ودق وهز وصف وقسر . فاذا ارادوا الزيادة في المعنى ضاعفوا الحروف فقالوا دبدب ودفدف ودقدق ..الخ
فقولهم مثلا : هزهز وحتحت إن هو في الحقيقة الا هزّ هزّ و حتّ حتّ . فلما بنوه هكذا احتاجوا الى التسكين (٣) ."

وقوله في موضع آخر "لعمرى ان من لم يكن يدرى شيئا من لغة العرب فاذا سمع مثلا لفظة طنطن ودندن وجلجل ، وكان ذا ذوق سليم فلا بد وأن يتوهم انها حكاية اصوات (٤) .

٢- تأكيد على ان اللغة ليست نظاما مستقرا بقدر ماهي تغير لغوى " إن اللغة كغيرها من الصنائع والموضوعات البشرية لايحدث شيء منها تاما كاملا من اول وهلة ولكن على التدريج " (٥) .

وهذا ماجعله يبدأ بالمضاعف أولاً ، كر ، اثّ ، وحثّ ، وخثّ وعثّ وفثّ .. ثم بالاجوف الواوى فاليائي ، ثم بالمهموز ، فاذا لم يكن الاجوف فانه يذكر المهموز (٦) ، وينتهي بالفعل السالم ، لمجيئه - حسب رأيه - آخر الافعال .

---

(١) مانشر من كتاب العين ص ٩ (انظر ترزى ص ٩١) .
(٢) سر الليالى ، الشدياق ص ٢٢
(٣) = = = ص ٢٢
(٤) = = = ص ٢٥
(٥) = = = ص ٢٥

./.

٣- انه رأى " حكم ترتب المزيد على المضاعف لا يكاد يتخلف (١) فقلما يرى المرء في المضاعف معنى الا ويرى في مزيده مثله او مايقاربه (٢) . ومن الامثلة التي اوردها على ذلك مايلي : سل" وسلب . لب" ولبث . زم وزمج (ملأ) ، كدّ وكدح ... الخ .

٤- ان زيادة حرف على المضاعف اليق بحكمة المواضع في التفنن من نقصه ، اذ لو جعلت السالم اصلا لزم عنه العدول من الكمال الى النقصان (٣) .

٥- انا نجد افعالا مجهولة الاصل واصلها من المضاعف معلوم ، وذلك نحو امتخر العظم اى استخرج مخه فهو ولا بدّ ان يكون من امتخ اذا لم يجيء المخر بمعنى المخ (٤) .

هذه هي الثنائية او " المضاعف الثنائي " كما فهمها الشدياق ، وكما ارتضاها اساسا لمعجمه ، " سر الليالي في القلب والابدال " ، اعتقادا منه ان هذا المنحى يكفل للالفاظ معانيها جميعا ، بعد ما تفرقت في معاجم لم تلتزم ترتيبا جديرا بالتناول كما هو مؤمن .

وخير دليل على نظريته هذه ، ماجاء مثلا في كتابه المذكور . فالقرن بين نظائر فل" وفلج وفلح وفلخ وفلذ وفلع وفلق وفلى مثلا ، هو الوسيلة المثلى لمثل هذا الجمع (٥) .

وعلى هذا الترتيب للمادة والاعتقاد بالمضاعف الثنائي اصلا للجذور ، يكون الشدياق قد جعل الكلمات المشتركة في حرفين اصليين تحمل قدرا مشتركا من المعنى . وان هذا القدر المشترك يتوجه توجها خاصا بالنسبة لما يضاف الى هذين الحرفين من حروف اخرى . فغم وغمد وغمر وغمس وغمض وغمط كلها تدل على الستر والتغطية ، ولكن الحرف الاخير في كل منها يحوّر هذه الدلالة العامة تحويرا خاصا فيكسب الكلمة التي يعقبها معناها الحقيقي .

---

(١) سر الليالي ، الشدياق ، صفحة ٢٥
(٢) = = = صفحة ٢٥
(٣) سر الليالي ، الشدياق ص ٢٦
(٤) = = = ص ٢٦
(٥) = = = ص ٢٧ .

./.

وهذا مايعلل طريقة القلب والابدال عند الشدياق التي اراد بها هدف ترتيب مظاهر المضاعف الثنائي حيث يأخذ في تقلب الاصمال ، نظرية القلب المطلق ، والاتباع على الاطلاق كوسيلتين استفاد منهما في التدليل على ماذهب اليه اولا ، وعلى معرفة سر الوضع والتكثير اللغوى .

كما ان نهج القلب والاتباع - عنده - ادى الى دورانه حول اصول ثابتة بعيدة عن العفو والارتجال . غير ان الاتباع ماكان على نسق واحد ، فتارة يلحق اتباع المجانسة ، وتارة يتسع حتى يضم حروفا لاتتناسب قيمها الصوتية او انه يجمعها جمعا شاذا .

ويبني الشدياق اسباب نشوء القلب والابدال في اللغة ، فيرى ان الالة الصوتية او آلة ارسال الكلام وهي الحنجرة تؤدى الى عمليات لغوية هي القلب والابدال . فالقلب يجيء من عدم اهتمام السامع بما ينطق ووعيه لما يقول . فينطق الزبردج الزبرجد "ص ١٨٢ وتصبح هذه لغة (١) . وينص الشدياق على هذه المسألة فيقول : "لان منشأ القلب قلة المبالاة " (٢) .

ويرى ان الابدال يجيء من الاختلاف في نطق الصوت ومن عدم قدرة الحنجرة على ان تؤديه على الصفة المطلوبة . جاء في الجاسوس مايلي : "وقال ابن دريد فاما بنو تميم فانهم يلحقون القاف باللهاة فتخلط جدا فيقولون الكوم فتكون القاف بين الكاف والقاف . وقال الازهرى . قال المفضل من العرب من يبدل الظاء ضادا فيقول قد اشتكى ضهرى بمعنى ظهرى . ومنهم من يبدل الضاد ظاء فيقول قد عظت الحرب (٣) فعيوب النطق ، وخلل الحنجرة - كما صرح الشدياق - يؤدى الى القلب والابدال .

وعلى هذا الاساس نستطيع ان نفهم من اين نشأت هذه اللغات التي يتفرد بها بعض القبائل العربية والتي صورها الشدياق في كتابه الجاسوس على القاموس ، والتي نذكر منها مايلي : "ومن ذلك العنعنة وهي في كثير من العرب في لغة قيس وتميم يجعلون الهمزة العبدو" بها عينا فيقولون في انك عنك . والفخفخة في لغة هذيل يجعلون الحاء عينا والوكم في لغة ربيعة وهم قوم من كلب يقولون عليكم وبكم حيث كان قبل الكاف ياء او كسرة . والعجعجة في لغة قضاعة يجعلون الياء المشددة

---

(١) و (٢) الجاسوس ، الشدياق ص ١٨٢

(٣) الجاسوس ، الشدياق ص ١٨٤ .

./.

جيمًا ٠٠ ومن ذلك الاستنطاء في لغة سعد بن بكر والازد وهذيل والانصار ٠ يجعلون العين الساكنة نونا اذا جاورت الطاء كانطى في أعطى ٠٠ والشنشنة في لغة اليمن تجعل الكاف شينا مطلقا كليش في لبيك والديش في الديك (١) ٠

وهكذا لايمكن فهم نشأة تشابه اللغات - حسب رأى المؤلف - او اختلاف اللهجات او ماكان في اللغة من ترادف وقلب وابدال الا على هذا الاساس لان ذلك مرده - عند الكاتب - الى قدرة الانسان على التقليد لما يسمع والمحاكاة له او عدم قدرته على ذلك ٠ وهو مايؤدى الى مسائل كثيرة في اللغة ، كالذى ذكرنا ٠

كما ينسب في مكان آخر ، الى اختلاف ائمة اللغة ، مسؤولية وجود القلب والابدال هذه ٠ فهو يقول في مقدمة الجاسوس ، "ومن الخلاف الذى وقع ايضا بين ائمة اللغة ، وهو مما يتفرع عنه مسائل مهمة ومشاكل جمة خلاف القلب نحو ربض ورضب وانضب القوس وانبضها (٢) ٠

ويعلل اسباب الخلاف هذا فيرى انه " انما يجي " من ان بعضهم يرى ان احدى الكلمتين لغة في الاخرى وبعضهم يرى انها مقلوبة عنها ويترتب على ذلك ان ماكان مقلوبا لا يكون له مصدر وانما يستعمل مصدر الكلمة المقلوب منها ليكون شاهدا على اصالتها كما في المحكم واللسان (٣) ٠

ويلخص الشدياق هذه المسألة بقوله :

" يقول الجوهرى في جبذ جبذت الشي " مثل جذبته مقلوب منه فانكر عليه المصنف ذلك بقوله : " الجبذ والجذب ، وليس مقلوبه بل لغة صحيحة ٠ "

ووهم الجوهرى وغيره كالاجتياذ ٠ وعبارة الصغاني في العباب : جبذت الشي " مثل جذبته مقلوب منه ٠ وهي لغة عقيلية ٠ واجتبذت الشي " مثل اجتذبته والانجباذ مثل الانجذاب ٠

" وقال صاحب اللسان : جبذ جبذا لغة في جذب ٠ وفي الحديث جبذني رجل من خلفي ، وظنه ابو عبيد مقلوبا منه ٠ قال ابن سيده وليس ذلك بشي " ٠ "

---

(١) الجاسوس ، الشدياق ص ١٨٣ ٠

(٢) و (٣) الجاسوس ، الشدياق ص ٤٣ ٠

٠/٠

ويتابع الشدياق فيقول :

" وقال ابن جني : ليس احدهما مقلوبا عن الاخر . جذب وجبذ ، وذلك انهما يتصرفان جميعا تصرفا واحدا . تقول جذب يجذب جذبا فهو جاذب . وجبذ يجبذ جبذا فهو جابذ . فان جعلت مع هذا احدهما اصلا لصاحبه مثل ذلك لانك لو فعلته لم يكن احدهما اسعد بهذه الحال من الاخر . فاذا وقفت الحال بهما ولم تؤثر بالمزية احدهما وجب ان يتوازيا فيتساويا ... فان قصر احدهما عن تصرف صاحبه فلم يسلوه فيه كان اوسعهما تصرفا اصلا لصاحبه .. وذلك نحو قولهم أنى الشيء يأنى وآن يئين . فآن مقلوب من أنى والدليل على ذلك وجودك مصدر أنى يأنى اينا ، ولا نجد لآن مصدرا (١) .. "

ويضيف الشدياق :

" وهنا ملاحظة من عدة اوجه :

- ان أهل المغرب مقتصرون على استعمال جبذ دون جذب .

- أن كلاً منهما يرجع الى اصل يدل على القطع ، اعني جذ وجبب ، " فان حقيقة معنى الجذب والجبذ تحويل الشيء عن موضعه جراً ، وفي الجر ايضا معنى القطع ، فهو دليل على اصالة كلا الفعلين (٢) . "

- أن قول ابن جني كان اوسعهما تصرفا أصلاً لصاحبه يستلزم معرفة الاوسع تصرفا . لان اهل اللغة لايصرحون بذلك ، فانهم يقولون مثلا : انضب القوس وانبضها :

- ان صاحب المصباح حكى في مادة " اين آن يئين اينا مثل حان يحين حينا وزنا ومعنى فهو آين . وقد يستعمل على القلب ، فيقال انى يأنى مثل سرى يسرى ، الى أن قال وآن يئين اينا تعب ، فهو آين على فاعل فجعل آن اصلا لانى . وهو عكس ما الى صاحب اللسان .

---

(١) الجاسوس ، ص ٤٤

(٢) نفس الصفحة .

./.

اللغة ٠

ـ ان الامام السيوطي دعا في المزهر عن ابن دريد في الجمهرة ما نصه باب الحروف التي قلبت وزعم قوم من النحويين انها لغات وهذا القول خلاف على اهل اللغة ثم ذكر جبذ وجذب وما اطيبه وما ايطبه الخ مع ان الخلاف واقع بين اهل اللغة انفسهم ٠

ان قولهم المقلوب ليس له مصدر ، وانما يرجع فيه الى مصدر الاصل المقلوب عنه غير متفق عليه ٠ فقد حكى الصغاني في الباب الفاشر والقاريش على القلب وله نظائر (١) ص ٤٥ ٠

اذن ، مشكلة القلب ، فيما يرى الشدياق ، وفيما هو الواضح من تعليقه على قول ابن جني لاتحل بهساطة ٠ وانما تحتاج الى استقراء وتتبع لهذه الالفاظ في الاقاليم المختلفة ، وهل تستعمل في كل اقليم او ان المستعمل منها لفظ واحد ؟ وهل بعضها اوسع تصرفا من الاخر او هما سواء ؟ وماذا يكون العمل لو ثبت ان كل واحد من اللفظين يرجع الى مايرجع اليه صاحبه (جبذ وجذب) الى القطع ٠

جرجي زيدان ، والثنائية في الجـذور :

يرى جرجي زيدان في " الفلسفة اللغوية " مارآه من قبله الشدياق في ان الاصول اللغوية تعود الى الاصل الثنائي غالبا ٠

لكنه لايتفق معه في تعميم الاحكام ، كما كان محددا بوضوح لتسميـة " الثنائية " ومعناها اللغوي عنده ٠

ويمهد زيدان ، في ذكر رأى اللغويين الذين " يردون كلا من الاسم والفعل الى اصول معظمها ثلاثية وبعضها رباعية ، ولا يرون هذه الاصول قابلة للرد الى اقل من ذلك (٢) ٠

---

(١) الجاسوس على القاموس ، الشدياق ص ٤٤ ـ ٤٥ ٠

(٢) الفلسفـة اللغوية ، زيدان ، ص ٩٨ ٠

٠/٠

ثم يعقب على ذلك بقوله : "وعندي انها قليلة " (١) لكنه يستدرك بقوله : " ولو بعد عنا" " (٢) .

وتبعا لذلك ، فـ " الاصول الرباعية (التي) اجمعوا مؤخرا على القول انها ثلاثية مزيد فيها " تبقى مزيدة في الثلاثي ايضا ، و " الاصل فيها ثنائي غالبا (٣) و " ان الالفاظ المائمة الدالة على معنى في نفسها يرد معظمها الى اصول ثنائية احادية المقطع ، تحاكي اصواتا طبيعية (٤) .

ويتناول ، زيدان ، الاصول الثلاثية ، لانها " الاكثر في اللغة ، فلذا كان للبحث فيها اهمية كبرى (٥) مركزا اهتمامه عليها ، كي يحاول اثبات ما اراده ، من ثنائيتها .

وقد بحث في بحثه هذا مسلكين :

الاول : " استقراء الفاظ اللغة العربية ومقابلتها (ويفيد غالبا في الاصول الفعلية (٦) والثاني : " استقراء بعض احوال اللغات الاجنبية وحملها بقياس التمثيل على لغتنا (٧) .

ويبيّن رأيه في المسلك الاول ، فيقول ان : " الباحث في دلالة الفاظ العربية المدعوة مجردة (يرى) ان للمعنى الواحد الفاظا عديدة تتقارب لفظا ، ويمكن تقسيم الفاظ المعنى الواحد الى مجموعات ، تشترك الفاظ كل مجموع منها بحرفين هما الاصل المتضمن المعنى الاصلي . والزيادة ربما نوعته تنويعا طفيفا (٨) .

---

(١) نفس المصدر السابق ، ص ٩٨ .
(٢) = = = ص ٩٨
(٣) = = = ص ٩٩
(٤) = = = ص ١١٣
(٥) = = = ص ٩٩
(٦) = = = ص ٩٩
(٧) = = = ص ١٠٨
(٨) = = = ص ١٠٠

./.

ويذكر الكاتب امثله ، منها : " قطّ وقطب وقطف وقطع وقطم وقطل جميعها تتضمن معنى القطع • الا ان كل واحدة منها استعملت لتنوع من تنوعاته ، فالثاني والثالث متضمنان مع القطع معنى الجمع ، والخامس العض والسادس الشدة والاصل المشترك بينها قط ، وهو بنفسه حكاية صوت القطع كما لا يخفى • ويجانس قط قص ومنها قصم وقصل وقصب وقصر وقصف جميعها تفيد القطع!

ويجانس قص قض ومنها قضّ وقاض وقضم وقضب وقضع ويجانس كس وكسها كسّ وكسر وكسع وكسم ، والاولى والاخيرة من هذه السلسلة تتضمن معنى الدق والفت ويجانس قص ، ايضا جذ ومنها جذ وجذب (١) •

وجذر وجذف وجذم وكلها بمعنى قطع • ويجانس جذ جزّ وهذه حكاية صوت المقص اذا جز شعرا اوصوفا ومنها جز وجزأ وجزر وجزع وجز وجزل وجزم وجميعها من باب القطع• وتنوعات هذا المعنى (كما يعتقد زيدان) تفوق المئات عدّا • وقد تصرفوا في استعمالها على طرق مختلفة حقيقة ومجازا • وكلها ترد بالاستقراء (حسب رأيه) الى اصل واحد • وهو حكاية صوت •• وهكذا الحال في القسم الاعظم من كلمات اللغة • (٢)

وينتقل الكاتب بعد ان اورد شواهد مناسبة الى الحديث عن الحروف المزيدة فيذكر " ان الحرف المزيد قد يكون في اخر الكلمة " وهذا هو الاغلب " • وذلك كما في الشواهد السابقة ، وقد " يكون في الوسط اي بين الحرفين الاصليين كشلق من شق ، وفرق من فق ، وقرط من قط ، وقرص من قص ، وقرض من قض •• وقد يكون في اول الكلمة نحو رفت من فت ولهب من هب ، ورفض من فض ، ولمس من مس ، ونطح ويطح من طح و•• قس عليها (٣)

ومما يلاحظ في هذه الامثلة التي ذكرها زيدان انها × جميعا × من الافعال فقط ، باستثناء مثال واحد (٤) (وهو التفت والتفت ، حيث يجمع بين الاسم والفعل) وان جل هذه الافعال افعال بدائية تتصل باصوات طبيعية وتؤدي معاني فطرية كالقطع والقص والقرط والعض •

---

(١) الفلسفة اللغوية ، زيدان ص ١٠٠

(٢) - - - - ١٠٠

(٣) - - - - ١٠٠

(٤) وهو قوله التفت والتفت ، وسع الاظافر ويقاربه تفى" وتفل وبصق وجميعها اشتراك بمقطع " تف " وهو من الاصوات التي ينطق بها الانسان غريزيا عند القرف• ومنها ايضا التفن اى الوسع ، وتفه قلّ وخس " زيدان ص ١٠١ " وهو يجمع في هذا المثال ، كما يلاحظ بين الاسم والفعل •

ويرى زيد ان ان كلاً " من هذه التنوعات اما ان يكون حاصلا في تركيب اصلين لكل منهما معنى في نفسه ، او لا (١) . فاذا كان الاول كان حصوله على طرق . منها النحت اى ادغام كلمتين فاكثر الى كلمة واحدة نحو " قطف " والاصل فيه - كما يعتقد - " قطّ لف " والاولى قطع والثانية جمع (٢) .

وهكذا في " بعج " حيث يردها الى " بعّ بجّ " او بتم " بواسطة الترخيم (اى اهمال القسم الاخير من الكلمة تفننا في اللفظ كقولهم " يا ابا الحكا " في " يا ابا الحكم " واحتمى في احتسب وتجمى في تجمع .. الخ ... (٣)

وهنا يقول " فهل يبعد تركيب اصلين ثنائيين وتحولهما معا الى اصل واحد ثلاثي على طريق الترخيم " (٤) غير انه لا يذكر مثلا على ذلك .

ثم يتابع فيقول : " واذا لم يكن لكل من اللفظين معنى في نفسه فلا يخلو ان يكون لاحدهما او لا ، فان كان الاول كان احد اللفظين فعلا ، والاخر حرفا زيد اعتباطا ، وهو في الغالب احد هذه (الاحرف) ، ل . م . ن . ر ، نحو فض ورفض ، وهب ولهب . وشق وشلق ، وكن وسكن (٥) . " واذا لم يكن لاحدهما معنى في نفسه اى ان لا يكون اسما ولا فعلا فلا يخلو ان يكون حرفا ، وربما كان اسما او فعلا في الاصل ، ولم يعد مميزا الآن (٦) " نحو لفظة " مالى " مركبة " ما " الموصولة و" لام الاضافة التي تعني " الذى لك " وكذلك " ويل " فانها مؤلفة من " وَىْ " و " لام " و " لام الاضافة " التي اصلها ويلي " وكلمة ليس . فانها مركبة من " لا " و " أيس " .

---

(١) الفلسفة اللغوية ، زيد ان ، ص ١٠٢

(٢) = = = ص ١٠٢ - ١٠٣

(٣) = = = ص ١٠٥

(٤) = = = ص ١٠٥

(٥) = = = ص ١٠٥

(٦) = = = ص ١٠٦

./.

اما المسلك الثاني الذى اراده ، زيدان ، بغية تدعيم نظريته الثنائية هذه فهو كثرة استخدام اصحاب اللغات الاخرى - ولا سيما الآرية منها - للنحت في تكوين الكلم ، مما حمله على الاعتقاد بان لا يستبعد ان يكون العرب - كغيرهم - قد لجأوا اليه ايضا في القديم لصوغ كلمات من العسير علينا ان نعرف اليوم الاصول التي اخذت منهـا .

ومن الواضح ان هذا الدليل لا يمكن الاخذ به من الناحية العلمية ، اذ ان لكل لغة ، او مجموعة من اللغات ، نظامها الخاص، وطرقها الخاصة في صياغة الكلام وبناء الالفاظ .

القلب والابدال عند زيدان :

يتابع زيدان ماذهب اليه ، الشدياق من قبله ، من ان القلب ، ناشيء " في الغالب (عن) الميل لتخفيف اللفظ او للتفنن فيه ، و (انه) " يحدث في الغالب اعتباطا (١) " .

ويورد امثلة على ذلك من الكلمات العامية اللبنانية فيقول :

" ومثل ذلك كثير الحدوث بين عامتنا فان معظمهم يقولون " رعبون " في " عربون " و " أجر " في " رجل " والسوريون ولا سيما البيروتيون يقولون " اجا " في " جاء " . (٢)

اما الابدال ، فيعطيه زيدان اهمية كبرى ، كسبب في التكثير اللغوى ، ويستدل على قابلية الحروف للابدال ، بما طرأ على اللغات السامية بعد تفرقها لانه " من المقرر - حسب رأيه - انها - اى العربية والعبرانية والسريانية - كانت لغـة واحدة تتكلم بها امة واحدة .. وانها بعد ان قدر للناطقين بها بالفراق اخذت تتنوع تبعا لمقتضيات احوال كل فريق منهم ، فوصلت الينا على مانشاهده (٣) .

---

(١) الفلسفة اللغوية ، زيدان ص ٦٠

(٢) نفس المصدر ص ٦٠

(٣) نفس المصدر ص ٦١ .

./.

ويرد هذا الاختلاف كله " لناموس الابدال "(١) ويرى زيدان ان هذا الناموس ينسحب على الاحرف بشكل قياسي ، وذلك " بدليل ثبوت النسبة بين الاحـــرف المتبادلـة (٢) " .

ويذكر امثلة مقارنة بين العربية والعبرانية والسريانية هاك احدها ،

" اذا كان احد المقاطع اللفظة العربية " تا " مثلا يكون في مكانهـــا في العبرانية " شتمن " وبالسريانية " تا " نحو وثب " العربية فانها في العبرانية (يشب " وفي السريانية " يتب " . و " ثدى " في العربية فانها " شدا في العبرانية و " تدا " في السريانية " (٣) .

وبعد ان يورد امثلة كثيرة تؤكد ماذهب اليه ، يختتم حديثه بمثل ما انتهى اليه الشدياق ، فيرى ان الابدال واقع في الالفاظ المتقاربة لفظا ومعنى وهي كثيرة ، مجددا اعتبار السبب الاساسي الذى هو " في الغالب نتيجة علة طبيعية في اعضاء النطق في اول الامر ، ثم بالاستعمال تحفظ التنوعات وربما خصصوا كل تنوع لفظـي بتنوع من المعنى الاصلي (٤) .

هذا عن نظرية الجذور ، والاصول الثنائية ، التي تمثلت في نظرية عند لغوي القرن الماضي ، وسنتناول في الفصل التالي ، الفكرة المعجمية ، طريقة الوضع التي آمن بها لغويونا ، وكيفية ترتيبهم للمواد في عملين كبيرين قام بهما البستاني والشرتوني .

---

(١) نفس المصدر السابق ص ٦١

(٢) = = = ص ٦١

(٣) = = = ص ٦١

(٤) الفلسفة اللغوية ، زيدان ، ص ٦٥ .

الفصـــل الثانـــي

الفكرة المعجمية عند لغويي القرن التاسع عشـــــر في لبـــنان

لم تنفصل الدراسات المعجمية ، في القرن الماضي عن اسباب للدرس اللغوي العام ، بل كانت مسألة يعرضون لها ، وينظرون في مناحي تطورهـــا التاريخي ، واسباب قصورها من ثم ، محددين رأيهم في ذلك كله من خلال اعمال تمثلت في معاجم اتسمت بطوابع الجدية في البحث ، والابتكار في التنظيم والتبويب والمنهجية الواعية ، النازعة الى ربط المادة باصولها وفروعها ، دونما اضطراب وفوضى ، كتلك التي شهدها المعجم العربي في تاريخه .

والجدير بالذكر ، ان الثقافـة الغربية ، وطريقة المعجم الاجنبي كانتا ذا اثر جلي في هذه الاعمال ، ولا سيما شكل المعجم ، وهيكليته العامة .

ولا يخفى ما لاثر شخصية هؤلاء القوية ، التي تجلت في ترتيب المادة وتنسيق مشتقاتها ، ومحاولة ضبط بنية الكلمة وفق نظام مطرد ، وغير ذلك مما يدخل في حيّز الشكل والمضمون .

وحين نتكلم عن العمل المعجمي ، في القرن الماضي ، فاننا نعني بذلـك ثلاثة لغويين لبنانيين في ثلاثة اعمال قاموسية لهم ، هم على التوالي :

بطرس البستاني في معجم " محيط المحيط " ومختصره " قطر المحيط " .
وسعيد الشرتوني في معجم " اقرب الموارد الى فصح العربية والشوارد " .
واحمد فارس الشدياق في معجم (لم يكتمل) " سر الليال في القلب والابدال " .

وقد حدد هولاء ، منفردين في العمل ، مناحي القصور في المعجم القديم منتهين الى حصر اسباب مشاكل المعجم العربي في اربع قضايا هي :

./.

اولا - الجمود : الذي ساد المعاجم القديمة .

ثانيا - سوء ترتيبها .

ثالثا - التقصير في شرح موادها .

رابعا - الغموض في التعريف .

وسنتناول كل قضية ، منفصلة عن اختها ، ليتسنى لنا دراستها في معاجم هؤلاء ، وتلمس البديل عندهم ، نظرية او تطبيقا .

اولا - جمود المعجم القديم .

انتقد ، هؤلاء ، قصور معاجمنا القديمة عن الاحاطة بما ند عن تطور في الفكر الانساني الحديث ، وما نتج عنه من تفتق حضاري ، تتوق الى مزيد من العلوم المستحدثة ، والرغبة في ايجاد مستلزمات لها من تقنية وتعبيرية وهو ماينطوي تحت مبحث " المصطلحات " .

هذا القصور عن اللحق بركب العلوم ، ومدلولاتها ، حدت بالبستاني الى تأليف معجم يضم عددا كبيرا من هذه المصطلحات العلمية والفنية والتقنية ، كي يتسنى للطالب ، او القارىء العربي ، معرفتها في كتاب معجمي عربي ، دون ان يبذل المشقة في تلمسها في معاجم اجنبية .

وهكذا فعل من بعده الشرتوني ، الذي احتذى حذو سلفه في كثير من ايراد هذه النماذج الجديدة في اللفظ .

ومما هو جدير بالانتباه ، ان البستاني والشرتوني لم ينتقدا جمود المعجم بشكل نظرية او كتب لغوية ، بل اقتصرا على تلافي العيب من خلال عملهما فحسب .

اما الشدياق ، فقد انتقد هذا القصور بشكل مباشر ، وذلك في مجموعة الاراء التي اندرجت بشكل منظم في عمله الكبير " الجاسوس على القاموس " حيث حدد في نقده لمعجم الفيروزابادي ، مشاكل المعجم عامة ، ومنها جموده هذا .

./.

كما اعقب ذلك ، بعد حين ، بمحاولة جريئة لم يقم بها احد من لغوي القرن الماضي ، أعني بها محاولة استحداث الفاظ عبر الاشتقاق والنحت . وضمها الى الثروة اللفظية في المعجم العربي (١) .

رأى الشدياق ، في كتاب " الجاسوس " ان الاقدمين قد الفوا لعصورهم ، وجروا في كتب اللغة على ماكانت تقضي به اصولهم اللغوية في ذلك الحين ، وانه لاعيب عليهم في ذلك (٢) .

ويبقى هذا الاحساس رائد العمل في كل فصول " الجاسوس " حيث ينتقد الشدياق بقاء المنهج على ماكان عليه في النسق الاول ، داعيا الى التأليف المستحدث ، الذى يهتم بالاصول اللغوية التي فرضتها الحياة ، وما اعقب ذلك من تجديد وتطور ، لا امل في ايجادهما ، او ايجاد دلالاتهما في الحياة اللغوية القديمة . " وانما العيب ان نقف نحن حيث وقفوا . وان لا نصدر نحن في عمل المعاجم عن فكرة جديدة تتفق وما في الحياة اللغوية من حركة ومن نمو وتجديد (٣) .

ويتابع نقده فيقول :

" ان المؤلفين الاولين رحمهم الله الفوا وبرعوا واجادوا ، وصنفوا ونفعوا ، وافادوا ، غير انهم الفوا كتبهم على حسب افهامهم واذهانهم وافهام اهل زمانهم . فاختصروا واوجزوا واشاروا ورمزوا (٤) " .

فهي دعوة جريئة الى وضع منهج جديد للعمل المعجمي ، ايمانا بانفتاح اللغة على غيرها من اللغات ، وتقرير حقها في الحياة [illegible] المتكلمين بها ، حيث لايمكن للغة من اللغات ان تعيش وحدها - كالامة - من غير ان تختلط بامة اخرى ، وانه من هنا تدخل الفاظ امة في الفاظ امة ثانية . مما يفهم منه ، ان الشدياق يقرر حق المحدثين في الوضع ، شرط ان يراعى فيه اللزوم والضرورة وتهذيب اللغة .

---

(١) انظر فصل " الالفاظ المستحدثة " ص
(٢) = الجاسوس على القاموس ، الشدياق ، ص ٣ وما بعدها .
(٣) = = = = = = =
(٤) = = = = = = =

./.

ويدافع الشدياق ، في مقال له في الجوائب ، عن احقية هذا الاتجاه والتحرر اللغوي ، وايجاد الالفاظ الجديدة ، التي استلزمتها الحياة الجديدة فيقول :

" ولو ان العرب الاولين شاهدوا البواخر وسكك الحديد او اسلاك التلغراف والغاز .. ونحو ذلك مما اخترعه الافرنج لوضعوا له اسماء خاصة (١) " .

وهنا يختلف الشدياق ، مع من جاء بعده من اللغويين اللبنانيين ، في معنى الجديد ، وكيفية رفد المعجم لتخليصه من جموده ، فالشدياق ، لا يكتفي باضافة هكذا الفاظ فقط ، كما فعل البستاني والشرتوني ، بل يرى ان فك المعجم من عقال قصوره يكون في تحريره من الخلل الذى اصابه ، فالجمود كامن فيما اصاب القاموس من اضطراب اللغويين في تحديد الهدف . وعدم تعرفهم على المقاصد التي من اجلها الفوا كتبهم .

وهكذا ، يتجلى الفرق بين مفهوم الجمود كعمل يخص المضمون عند الشدياق ، وعمل يخص الشكل واضافة او الصاق مواد عند البستاني وغيره ، فالشرتوني مثلا ، ذهب الى وضع مفردات كثيرة ، ليست من معجمات اللغة . اخذها من مفردات ابن البيطار ، والعقد الفريد ، والالفاظ الكتابية وسواها .. مقلدا سلفه البستاني ، الذى كان قد ادرج اصطلاحات في العلوم والفنون وكثيرا من كلام المولدين واللغة الدارجة . وغير ذلك مما لا يتعلق بمتن اللغة ، وذلك ليكون المعجم - حسب رأيه - " شاملا يجد فيه كل طالب مطلوبه " (٢) .

واننا لنخلص الى تأكيد نتيجة هي ان الشدياق ابرز هؤلاء ، وانضجهم فكرا في المباحث المعجمية فقد سار وفق مسار لغوى دقيق ، وذلك بابقائه مفهوم المعجم ضمن تناول المادة اللغوية على نسق القدامى ، وعني بالتركيز على اصلاح منهجية هذا التناول ، دون ان يدخل في المعجم مصطلحات تقنية او اسماء مخترعات ، او مفردات الطب والزراعة والصنائع .. كما فعل البستاني والشرتوني حيث كان يرى ان لكل من هذه المواد معجمه الخاص .

---

(١) منتخبات الجوائب ، مجموعة مقالات للشدياق ، ج ١ ص ٢٠٥

(٢) من محيط المحيط ، للبستاني ، خاتمة حرف الراء ص ٨٤٧ .

./.

ثانيا - سوء الترتيـــب :

اولى علماؤنا ، في القرن الماضي ، ثلاثتهم ، جانب الترتيب اهتمامهم الكبير ، لما فيه من تحقيق غرضين هامين : اولهما : سرعة الوصول الى الوقوف على المعنى المراد .

وثانيهما : بيان خصائص العربية ، والوقوف على سرها من خلال الوضع .

ويتفق العلماء الثلاثة في الغرض الاول . وهذا ماتمثل فعلا في معاجمهم بشكل تطبيقي ، وخاصة في " محيط المحيط " للبستاني ، و " اقرب الموارد " للشرتوني ، اكتفاء بالتطبيق ، دون درس لغوى للنظرية تاركين التخصص بالقضايا النقديـة والوقوف على دقائقها للشدياق ، الذى بز الجميع عمقا ووعيا . ونحن ، واجدون فعلا ان الغرض الثاني ، وهو بيان خصائص العربية والوقوف على سر الوضع لم يتجل بصورة علميـة الا في ابحاث الشدياق .

ولعل الشدياق ، في هذا ، يعتبر اول من انتقد طريقة الترتيب المتبعة في المعاجم القديمة وذلك بكتابه الكبير " الجاسوس على القاموس " فقد حلل سبـل العمل القاموسي ، وانتهى الى وضع ترتيب متكامل لجانبي المعجم ، جانب المواد ، وجانب المشتقات او الصيغ في المادة الواحدة .

ولمزيد من التفصيل ، سندرس طريقة الشدياق في ترتيب المعجم ، على حدة ، ثم نأتي على ذكر طريقة البستاني والشرتوني من بعده .

- الشدياق وترتيب المعاجم :

بين الشدياق ، ما انطوت عليه المعاجم القديمة ، من اضطراب في وضع المادة وسوء ترتيب لها ، موليا هذه القضية اهتماما كبيرا جاعلا النظر في جانبين :

اولهما : ترتيب المواد في المعجم

ثانيهما : ترتيب المشتقات او الصيغ في المادة الواحدة .

هذه النظرية الثنائية الجامعة لطرفي المشكلة ونتجت عن قراءة كتب اللغة جميعها على اساس تاريخي ، مما يسّر للشدياق من ثم ، طريقة العمل ، ومكنه من تفسير الكثير من الظواهر اللغوية والاجتماعية الخاصة بمسائل الترتيب هذه .

وكثيرا ماكان يقف في بعض الاحيان ، ليصحح من مسائل هذا التاريخ مدليا بآراء مهمة ، ان دلت على شيء ، فانما تدل على طول باع ونفاذ بصيرة وعمق ادراك لما هو بصدده .

ولنسمعه يقول في هذا :

" ثم ان اول من الف في اللغة الخليل بن احمد ، كما ان اول من الف في النحو خريجه سيبويه رحمهما الله " (١) .

هذا وقد وقف في بحثه للترتيب على رصد الطرق المتداولة في المعاجم القديمة أولا ، ليتسنى له نقد عيوب كل منها على حدة ، مبينا من ثم ، ان ترتيب المواد في الكتب هذه يجيء متكئا على الحروف ، واذا كان اللغويون يختلفون فيما بينهم في عدد الحروف ، وفي ترتيبها ، فقد اختلفت المواد في ترتيبها بالنسبة الى الكتب المختلفة .

كما اختلف هذا الترتيب لسبب آخر هو ان من اللغويين من يكتفي بجمع المواد التي على حرف واحد ، في موطن واحد ، ومنهم ينظر الى اوائل المواد واواخرها ، ومنهم من كان يكتفي بالاوائل من المواد (٢) .

هذه الطرائق الثلاث في الترتيب ، فسرها الشدياق على ضوء نظرية محددة آمن بها ، منتقدا في سبيلها طرق القدامى في الترتيب . هذه الطريقة التي ارتضاها لعمله تتمثل في نظرية " المضاعف الثنائي " الذى سبق الكلام عنها . وسنورد طريقة ترتيبها بعد تحديد موقف الشدياق من تلك الطرق الثلاث التي سار عليها العمل المعجمي القديم .

---

(١) الجاسوس ، الشدياق ص ٢٢ .

(٢) = = ص ٢٠ وما بعدها .

./.

١- جمع المواد على حرف واحد .

رفض الشدياق طريقة جمع المواد على حرف واحد ، تلتزم الترتيب الحلقي ، وهي طريقة الخليل بن احمد في " العين " والازهري في " التهذيب " وابن سيده في " المحكم " التي تقوم على جمع المواد حسب مخارج الحروف وقلب الالفاظ ، فقدر اى الشدياق ان الفائدة المعجمية غير محققة في هذا الترتيب . كما وليست مجدية في الوصول الى المعاني في سهولة ويسر .

و " بالجملة فالبحث عن الالفاظ في هذين الكتابين " التهذيب " للازهري و " المحكم " لابن سيده ، اصعب جدا ، لانك اذا اردت ان تبحث مثلا عن لفظة (رقب) لم تدر هل هي في الاصل ، فتبحث عنها في الراء ، او مقلوبة عن (قرب) فتبحث عنها في القاف . او عن " برق " وما بين هذه الحروف مسافة بعيدة (١) " .

ويبين الشدياق السبب الذى حدا بالخليل ومن تلاه - حسب رأيه - الى اخذه المبدأ الحلقي والبداية بالهمزة دون غير فيقول نقلا عن السيوطي في " المزهر " قال سمعت من يذكر عن الخليل انه قال : لم ابدأ بالهمزة لانه يلحقها النقص والتغيير والحذف . ولا بالالف لانها تكون في ابتداء كلمة ، ولا في اسم ولا فعل الا زائدة ، او مبدلة . ولا بالهاء لانها مهموسة خفية لاصوت لها . فنزلت الى الحيّز الثاني وفيه العين والحاء فوجدت العين انصع الحرفين ، فابتدأت به ليكون احسن في التأليف .

" وليس العلم بتقدم شيء على شيء لانه كله مما يحتاج الى معرفته ، فبأى بدأت كان حسنا واولاها بالتقديم اكثر تصرفا (٢) " .

ويعلل الشدياق طريقة العمل هذه ، باهتمام الائمة الاولين في جمع اللغة وصونها من التبدد والضياع فقط .

---

(١) الجاسوس ، الشدياق ، ص ٢٣

(٢) = = ص ٢٢ .

./.

اما ان يكون الترتيب هذا خطوة تيسيرية للمعجم فهذا مايرفضه اعتقادا منه بان فكرة الجمع هذه ما استوجبته من ترتيب ، لم تخدم الا بيان الصيغ المهملة والافعال العقيمة او الميتة ٠

٢ـ طريقة اوائل الكلم واواخرها

يرى الشدياق ان طريقة أوائل الكلم وأواخرها ، كالطريقة التي جرى عليها الجوهري في ترتيبه " الصحاح " وابن منظور في " اللسان " و الفيروزابادي في " القاموس المحيط " فهي ـ لاريب ـ مسهلة للمطلوب وخصوصا جمع القوافي ٠

غير انه ـ حسب رأيه ـ فاصل لتناسق معانيها (اى القوافي) ، ومسوار لاسرار وضعها ومعانيها ، وفيه اجحاف باحرف الكلمة ٠

كما ، ويبين الشدياق ، بانتقاده هذا الطريقة الوضع التي اهتدى اليها صاحب الصحاح واللسان والقاموس ، خطأها من خلال الاستعمال ، الكمي للفظ الواحد ٠ فقد ترد الفاظ كثيرة في المعتل ٠ كانت قد وردت في المهموز " نرى كثيرا من الالفاظ التي وردت في المهموز تعاد ايضا في المعتل نحو : برأ الله الخلق وبراهم ، وبارأ امرأته وباراها ٠٠٠"

وان الالفاظ التي تأتي من الثنائي المضاعف تعاد غالبا في غيره ٠

٣ـ طريقة اوائل الكلم دون اواخرها ٠

يرى الشدياق ، في مراعاة طريقة اوائل الكلم دون اواخرها صنيع الزمخشري في " الاساس " والفيومي في (المصباح) صلاحية الترتيب ، وحسن العمل ، وحكمة لحظها امام العربية الزمخشري ٠

والذى جعل الشدياق يميل الى تفضيل هذا الترتيب ، اخذه بنظرية ثنائية الجذر وقيام فكرته اللغوية على حكاية الصوت المتأتية من المضاعف وهذا مايبين اصراره على رفض طريقة اواخر الكلم لما فيها ـ حسب رأيه ـ من

٠/٠

تفريق لمعاني الالفاظ وتشتيت لمبانيها ٠

لكن الشدياق يزيد على طريقة اوائل الكلم ، نظريته او طريقته في ذكر المادة ومقلوبها ٠ وذلك لاعتقاده بدلالة الاصوات على المعنى او فحواه ٠ وان ترتيب الاصوات على تقديم وتأخير في الكلمة الواحدة دال على اصالتها في اللغة ، ودال على اصالة هذا المعنى ودورانه في هذه الاحرف او هذه الاصوات ٠

هذا مارآه الشدياق في سوء الترتيب لمواد المعجم القديم ، وما اعتقده من خطوات تكفل اصلاح سوء الترتيب هذا ٠

- اما الجانب الثاني : ترتيب المشتقات او الصيغ في المادة الواحدة فيعتقد الشدياق ان ما اصاب اللغة من اضطراب ، ناتج عن عدم التزام اللغويين نظاما معينا في هذا الشأن وعن قصورهم في تحديد الهدف ٠

ويرى ان ما اصاب الافعال والمشتقات من خلط ، خير دليل على هذا الاضطراب ٠ فهو يقول :

" ان من اعظم الخلل واشهر الزلل في كتب اللغة جميعا ، قديمها وحديثها ، ومطولها ومختصرها ، ومتونها وشروحها ، وتعليقاتها وحواشيها ، خلط الافعال الثلاثية بالافعال الرباعية والخماسية والسداسية ، وخلط مشتقاتها ٠ فربما رأيت فيها الفعل الخماسي والسداسي قبل الثلاثي والرباعي ٠ او رأيت احدهما في الفعل في اول المادة وباقي معانيه في آخرها ٠

ويعجب الشدياق - اشد العجب - من ان احدا من المصنفين وكتاب الشروح والحواشي لم يتنبه لهذا الخلل اللغوي الناتج عن خلط الافعال ومشتقاتها ٠

ويرد الشدياق ، هذا القصور الى البلادة والفتور العلمي حيث يعني ايثار التقليد على الاجتهاد سنة البحث والتأليف ٠

٠/٠

ويزيد في تبيين هذا الاضطراب ، فيرى اعائد الى انحصار اللغويين القدامى في جمع الالفاظ فقط ، دون ان يراعوا مستلزمات الجمع من " الترتيب والانتظام ووضع كل شيء في محله " (١) .

طريقة الشدياق في ترتيب المعجم :

يطرح الشدياق ، بعد هذه المقدمة من الانتقادات فكرة الترتيب المعجمي عنده ، غير انه ينبه قبل طرح الفكرة الجديدة ، الى وجوب الاخذ بما جاء في كتب اللغة ، وذلك لتحقيق غايتين :

- الانتفاع من القراءة في هذه الكتب .
- للانتفاع في التأليف للمستقبل .

وهو ماقلنا عنه في بداية البحث ، ان طريقة علمائنا في القرن الماضي كانت تسعى الى تحرير اللغة من روابطها القاسية ، وتجديد دمها ، وذلك عبر شعار : " اولى خطى التجديد قتل القديم بحثا " .

ولنستمع الى الشدياق في رأى له حول كيفية النظر في مواد المعجم القديم :

" ولهذا انصح مطالعي كتب اللغة ان لا يقتصروا على فهم اللفظ في موضع واحد . بل لابد لهم ان يطالعوا المادة من اولها الى اخرها . لاجرم ان هذا التخليط والتشويش في ذكر الالفاظ ليذهب بصبر المطالع ، ويحرمه من الفوز بالمطلوب فيعود حائرا بائرا . فاذا رأى المطالع ان المادة تملأ صفحتين او ثلاثا عاد نشاطه ملالا ، وجده كلالا ، فربما تصفح المادة كلها او اخطأه الغرض . بخلاف ما اذا كانت الافعال مرتبة على ترتيب الصرفيين ، فانه ينظر اولا الى الفعل الثلاثي ومشتقاته في اول المادة ، والى الخماسي والسداسي ومشتقاتهما في آخرها ، والى الرباعي ومشتقاته في وسطها . فلا يضيع له بذلك وقت .

ثم يقول :

---

(١) الجاسوس ، الشدياق ص ١٠ و ١١

(٢) = = ص ١١ و ١٢ .

./.

" ولا بأس ايضا بان توضع حهال المواد الغزيرة رقم بالهندى على الحاشية فيوضع رقم (٣) مثلا قبالة الفعل الثلاثي ، (٤) قبالة الفعل الرباعي وهكذا " ..

وانسجاما مع رغبته في الوصول الى نسق افضل ، يعصمنا من الاضطراب والتكرار في ذكر المادة ومشتقاتها ، ويكفل حرص المؤلف والقارىء في الوصول الى كل معاني الالفاظ والاطلاع على اصل وضعها وحكمة مبناها ، يجرى الشدياق في كتابه " سر الليال في القلب والابدال ، على هدى منهج ليس فيه من نسق القدامى شيء " . رغم انه يرى في مخالفة ما اجمع عليه بدعة .

هذا النسق الذى ارتضاه لنفسه ، والذى يقوم على نظرية " المضاعف الثنائي " ، يبدأ بالمضاعف ثم الاجوف الواوى واليائي ، ثم بالمهموز . فاذا لم يكن الاجوف فانه يذكر المهموز (١) .

ولا يخفى ، فالحذاية الصوت من اثر في تقرير المنهج عند الشدياق ، واخذه من ثم ، للمضاعف كقاعدة متأتية عن ذلك .

" فأقول ان من شاء ان يطلع على سر وضع الافعال وتناسب بعضها ببعض واصل مبانيها وكنه معانيها فلا يرى محيصا عن الاقرار بان الابتداء بالثنائي المضاعف على نسق كتابي سر الليال في القلب والابدال بقطع النظر عن قلب الافعال هو المتكفل بجميع هذا وحسبك شاهدا على ذلك هذا المثال . وهو ان تبتدىء مثلا بفعل فت وهو حكاية صوت فيظهر لك منه معنيان وهما الانكسار والانفتاح والاول مستلزم للثاني بالضرورة فان كل ما انكسر انفتح ثم تأخذ بعده فتأ كمنع ومعناه كسر واطفأ وفتىء عنه كسمع نسيه فكأنك قلت انكسر عنه ومنه قولهم مافتىء زيد يفعل فان فعل المكسور العين كثيرا ماياتي مطاوعا لفتوحها ولا سيما فيما كان متضمنا معنى الكسر والقطع فانهما متلازمان(٢)

وهو يقول في هذا الصدد : " لعمرى ان من لم يكن يدرى شيئا من لغة العرب فاذا سمع مثلا لفظة طنطن ودندن وجلجل ورنم وكان ذا ذوق سليم فلا بد وان يتوهم انها حكاية اصوات (٣) .

---

(١) الجاسوس ، الشدياق ، ص ٦٠٧

(٢) سر الليال ، الشدياق ، ص ٢٥ وما بعدها .

./.

وعلى هذا الاساس الصوتي ، يكون الترتيب هادفا الدلالة على المعنى الاصيل - حسب رأيه - بغية تبيين اسرار الوضع " والكشف عن خصائص اللغة ." ان من شاء ان يطلع على سر وضع الافعال وتناسب بعضها ببعض . واصل مبانيها وكنه معانيها فلا يرى محيصا من الاقرار بان الابتداء بالثنائي المضاعف على نسق كتابي سر الليال في القلب والابدال ، بقطع النظر عن قلب الافعال هو المتكفل بجميع هذا " . (١) .

كما يقول في موضع آخر من الكتاب : " ... فهذا النسق هو الذى يكشف عن سر وضع الالفاظ ونسبة بعضها الى بعض . وهو الذى اختاره الزمخشرى وبنى عليه الاساس . واقتدى به صاحب المصباح . والسابق الى ذلك ابن فارس في المجمل رضي الله عنهم اجمعين " (٢) .

ومما لاريب فيه ، ان هذا الترتيب ييسر لنا الوصول الى المعنى ، ولا يدفعنا بالتالي الى البحث عن اصل المادة في المزيد وفي المعرب او الاعجمي . الامر الذى اتعب اللغويين الذين اعتمدوا في الترتيب اوائل المواد واواخرها . فقد كانوا يختلفون في تحديد الاصل . ومن هنا كانوا يوردون اللفظة الواحدة في موطنين باعتبار انها قد ترد الى اصلين لغويين متساويين في الدلالة . او لم يستطع اللغوى ان يقرر اى هذين هو الاصل .

يقول الشدياق :

" ونظير هذا الخلل في ترتيب الالفاظ ايراد الجوهرى (ترجم) ، و (الترجمان) في " رجم " وحقه ان يذكر في مادة على حدتها . لانك اذا جعلت التاء مزيدة كان الترجمان ، على وزن تفعلان (وترجم) على تفعل . وكلاهما مفقود .

" ثم ان اعتبار هذه الزيادات لغرى الامام " ابن سيده " والامام النواوى " باشتقاق (الاندلس) من مادة (الدلس) وهو الظلام .

ويضيف فيقول :"

---

(١) الجاسوس ، الشدياق ص ٨٦

(٢) = = ص ٩٠ .

./.

" واغرب من كل غريب اعتبار المصنف والصغاني الهمزة في (ابجد) زائدة ولذا ذكراها في (بجد) فكيف تكون زائدة وهي اولى الحروف (١) .

اما البستاني فقد اقتصر عمله على المعجم ، ملتزما طريقة وضع المادة ، من الفعل الثلاثي المجرد ، ثم حسب الحرف الاصلي الاول ، ثم تأتي باقي المشتقات . وسنأتي على ذكر هذه الطريقة في فصل خاص حين نتكلم عن معجمه محيط المحيط .

وهكذا الشرتوني ، الذى اتبع طريقة سلفه . او ماصرح به هو في مقدمة معجمه "اقرب الموارد " انه اتبع طريقة المجمل وما شاكله من حيث ايراد الالفاظ باعتبار اصولها " وهو ما سنأتي على ذكره بفصل خاص .

ثالثا - التقصير في شرح المواد :

حاول البستاني ان ينعي شروح الالفاظ ، بما اضافه من معاني جديدة استمدها من مطالعاته الغزيرة لكثير من المعاجم الاوروبية ، او المعاجم المقارنة بين العربية واللاتينية لفوليوس وفريتغ مثلا ، او بما قام به من مقابلات ومعارضات بين المعاجم العربية القديمة وكتب اللغة .

ورغم ذلك كله ، بقي " محيط المحيط " دون بلوغ الغاية المرجوة منه . ولعل الشرتوني في " اقرب الموارد " كان اكثر منه عوا في تطوير الشرح وتوسيع معانيه ، رغم بقائه في حيز التقليد اجمالا .

ومما اورده الشدياق عن القصور قوله :

" ومن هذا القصور تعريفهم لفظة بلفظة اخرى من دون ذكر
" الفرق بينهما بالنظر الى تعديتهما بحرف الجر . كقول
" الجوهري مثلا : الوجل الخوف ، ومثلها عبارة القاموس والمصباح
" مع ان وجل يتعدى بمن وخاف يتعدى بنفسه .

---

(١) الجاسوس - ص ٢٩ - ٣٠ .

./.

" وقوله ايضا الجنف الميل ، وقد جنف بالكسر يجنف جنفا • ومنه
" قوله تعالى : فمن خاف من موص جنف • وهو يوهم انه يقال :
" جنف عنه وعليه واليه ، كما يقال مال عنه وعليه واليه • وعبارة
" المصباح جنف جنفا من باب تعب وظلم ، وهو يوهم انه يقال :
" جنفه • كما يقال : ظلمه • وعبارة العباب : الجنف الميل
" والجور والعدول • "١" •

رابعا - الغموض في التعريف :

استرعى غموض عبارة المعجم القديم ، انتباه الشدياق ، فطالب بوضوح التعاريف ، وانتقد ماجاء فيها من لبس وتعمية ، وقد ارجع اسباب ذلك الى الجهل او الغفلة او الاهمال •

ويلوم الشدياق المعجميين القدامى الذين لم يتحاشوا قضية مثل هذه بشيء من الفطنة والذكاء او من الجدة والمثابرة •

ويورد في سبيل ذلك ، بعض نقود ، تنم عن عمق لغوي ، ونفاذ بصيرة في شؤون المعجم • فقد رأى ان اعتماد المؤلف القديم على معرفة الناس للتعريفات ، او نقله من غيره دونما تحقق ، او اكتفائه بنقل الالفاظ من الكتب التي نقل عنها ، دون تفسير للمادة ، ظنا منه ان ايرادها دون تفسير يكفل له الايجاز ، وان المطالع لها لابد وقد اطلع عليها في غير كتابه •

" نشأ هذا الخلل في القاموس ان مصنفه كان يرى هذه الالفاظ مفسرة في الكتب التي نقل منها فاوردها من دون تفسير اما لتوهمه ان المطالع قد اطلع عليها قبل مراجعة كتابه او انه يعرفها من سياق عبارته • (٢) •

---

(١) الجاسوس ص١٢

(٢) الجاسوس ، ص ٣٤٩ وما بعدها •

هذا ، وقد اضاف الشدياق نقدا جديدا على النقود السابقة ، مستهدفا به قاموس الفيروزابادى بما اسماه الشمول للالفاظ التي استعملها الادباء والكتاب . وكل من اشتهر بالتأليف ، وهو مطلب يقوم اولا وقبل كل شيء على الاحصاء الدقيق .

وكل مايطلبه الشدياق من المؤلف هو الا يخلط بين مسائل اللغة ومسائل " دوائر المعارف " او الكتب العلمية ، فيضيع في القواميس ماحقه ان يكون في غيرها .

ولعل هذا النقد موجه الى البستاني ، الذى اضاف الى المعجم القديم كثيرا من المصطلحات العلمية والتقنية واسماء المدن والاعلام وغير ذلك .

هذا ، وقد ذكر لنا الشدياق مسائل كثيرة لايكون محلها كتب اللغة . جاءت في بعض هذه الكتب القديمة .

" ومن دأب المصنف - سامحه الله - التهافت على الالفاظ التي اختلف فيها المفسرون ، وجعلها من كلام العرب كقوله في جزأ و جعلوا له من عباده جزءا الى اثلثا " .

ويتابع فيقول " ونظائر هذا كثيرة ، التصدى لها في كتب اللغة فضول كما قال المحشي " . (١)

اما المعاجم ، ففي الفصل التالي .

---

(١) الجاسوس ، ص ٥٠ = ٥٢ .

الفصـــل الثالـــــث

معاجم القرن التاسع عشـــر
في لبـــنان

١ - معجم " محيط المحيط " ومختصره " قطر المحيط " للمؤلف : بطرس البستاني (١)

---

(١) - بطرس البستاني : ١٨١٩ - ١٨٨٣ م .

ولد بطرس البستاني عام الف وثماني مئة وتسعة عشر في قرية " الدبيه " تعلم في صغره ، على طريقة رجال العصر الماضي ، في مدارس السند يانة ، على يد الخوري مخائيل البستاني ، كاهن القرية ومعلم اولادها . ثم ارسله المطران عبد الله البستاني ، راعي ابرشية صور وصيدا ، الى مدرسة عين ورقة بكسروان ، حيث تلقى فيها فنون الادب في لغة العرب ، من صرف ونحو وبيان وعروض ومنطق ، واخذ بقسط وافر من علم الفلسفة واللاهوت الادبي والنظري ، ومبادىء الحـــق القانوني . كما تمكن من اللغة السريانية ، وعرف اللاتينية والايطالية . تعرف عام ١٨٤٢ على بعض المرسلين الاميركان ، من دعاة المذهب الانجيلي فواظبهم على العمل . يعلمهم العربية ، ويترجم لهم الكتب بها ، ومن الذين تعرف عليهم مـــن هؤلاء الدكتور كرنيليوس فانديك ، وصار البستاني انجيليا ، فكان من مؤسسي الطائفة الانجيلية في بيروت .. اعان فانديك المذكور على انشاء مدرسة في عبيه ، ثم عمل مترجما في قنصلية اميركا ، ثم انصرف بعدها الى التأليف والترجمة ، عمل مع الدكتور عالي الميث في ترجمة جل اسفار التوراة . وقد درس من اجل ذلك ، العبرانيـــة واليونانية والارامية . ثم اشترك مع لفيف من اخوانه ، كناصيف اليازجي ويوسف الاسير ، في مساعدة فانديك على ترجمة البقية من اسفار الكتاب المقدس . ثم اخذ بإعداد مادة قاموسه من محيط المحيط ومختصره ، فيما بعد ، ثم اخذ يعد النفس الى انشاء دائرة المعارف . طبع اول نشرة عربية ظهرت في سوريا في سنة ١٨٦٠ ، سماها " نفير سوريا " وفي عام ١٨٦٣ انشأ في بيروت مدرسة عالية سماها " المدرسة الوطنية " وفي عام ١٨٧٠ انشأ مجلة علمية ادبية سيلميـــة سماها " الجنان " .

./.

اصدر بطرس البستاني ، هذا القاموس في جزءين ، فرع من الجزء الاول[١] في ٢١ تموز ١٨٦٦ / ١٢٨٣ هـ . ومن الجزء الثاني [٢] في ١٢ تموز ١٨٦٩/ ١٢٨٦ هـ .

ولم يبن الدافع المباشر ، الذى حدا به الى تأليف هذا المعجم الكبير ، كما لم يمهد لهذا العمل بدراسة نظرية ، كما فعل الشدياق في " الجاسوس على القاموس " مثلا . وانما اكتفى بمقدمة وجيزة ذكر فيها مصادر دراسته التي قامت على مافي محيط الفيروز ابادى ، بشكل رئيسي ، ثم ماند له من زيادات كثيرة وجدها في كتب السلف والمعاصرين ، ومما يحتاج اليه القارئ - في عصره - من اصطلاحات العلوم والفنون .

يقول المؤلف في مقدمة الجزء الاول من المعجم :

" ولما كان هذا المؤلف يحتوى على مافي محيط الفيروزابادى الذى هو اشهر قاموس للعربية من مفردات اللغة وعلى زيادات كثيرة عثرنا عليها في كتب العلوم القدم ، وعلى مالا بد منه لكل مطالع من اصطلاحات العلوم والفنون سميناه بمحيط المحيط " . (٣)

..... - انظر بطرس البستاني :

١- تراجم مشاهير الشرق ، جرجي زيدان ، ص ٢٩ .

٢- مصادر الدراسة الادبية ، يوسف دلفر .

٣- المعلم بطرس البستاني ، ميخائيل صوايا ، ص ١٨ وما بعدها .

---

(١) يبدأ بباب الهمزة ، ص ٣ ، وينتهي بحرف الشين ، مستغرقا ١١٥١ صفحة قطع كبير .

(٢) يبدأ بباب الصاد ، ص ١١٥٢ ، وينتهي بحرف الياء ، مكتملا بـ ٢٣٠٧ صفحة قطع كبير .

(٣) من مقدمة الجزء الاول ص ٢ .

./.

غير ان البستاني مالبث ان ذكر الدافع ، الى عمله هذا في معجمه الثاني (المختصر) " قطر المحيط " حيث قال : " ... فلما كان احياء اللغة العربية التي هشمتها ايادى الزمان ، وحالت دون نور محياها الساطع ودون اهلها براقع الهجر والجهل والنسيان ، فرضا على كل من نطق بالضاد ، وكان امر تحصيلها وتسهيل اسبابه من مرغوبات من اتصف بالحماسة الوطنية والحمية العربية ، رأينا ان نضع فيها هذا المؤلف على وجه هين المراس ، سهل المأخذ ، ليكون للطلبة مصباحا يكشف لهم عما اشكل عليهم من مفردات اللغة التي معرفتها عند المحققين هي نصف العلم لان افادة العلم واستفادته تتوقفان عليها " (١) .

ويبدو من النص ان بعث العربية ، واحياء تراثها ، هدف البستاني اولا وآخرا ، ورغبة منه في تيسير المادة اللغوية لابناء العربية ، والطلاب خاصة .

ولعل رغبته الاخيرة في تسهيل الامر على الطلبة ، هي التي دفعته من بعد ، لعمل مختصر سماه " قطر المحيط " كي يمكنهم من تناول المادة المطلوبة باقرب سبيل ، ويحقق بالتالي طلبتهم في البحث العلمي .

وقد اهدى معجمه " محيط المحيط " للحضرة الشاهانية ... السلطان عبد العزيز خان " (٢) .

- مصادر معجم البستاني :

ذكر المؤلف في مقدمة الجزء الاول ، ما انطوى عليه المعجم من مادة استقاها بشكل رئيسي ، من " محيط الفيروز ابادى " مضافا اليها ، ماجد على المجتمع من علوم ومخترعات ، استلزمتها الحياة الجديدة ، مما يحتاج اليه القارىء في القرن التاسع عشر وعصر النهضة .

---

(١) من مقدمة قطر المحيط .

(٢) من مقدمة الجزء الاول (محيط المحيط) .

./.

مادة معجم البستاني :

يبين البستاني مادة كتابه على انها تحتوى "على ماني محيط الفيروزابادى .. من مفردات اللغة ، وعلى زيادات كثيرة عثرنا عليها في كتب العلوم وعلى مالابد منه لكل مطالع من اصطلاحات العلوم والفنون " .

ويتابع في تبيان ذلك في خاتمة باب الراء من الكتاب فيقول :
"وقد اضفت الى اصول الاركان فروعا كثيرة ، وتفاصيل شتى ، والحقت بذلك اصطلاحات العلوم والفنون ، وكثيرا من المسائل والفوائد والقواعد والشوارد وغير ذلك مما لا يتعلق بمتن اللغة " .

ويكمل هذا القول في خاتمة "قطر المحيط" متحدثا عن المحيط " :
"وقد ادرجنا فيه كل ماقدرنا ان نقف عليه من مفردات اللغة واصولها وفروعها واصطلاحات ... وكثيرا من كلام المولدين ، واللغة الدارجة ، ورصعناه بالشواهد من القرآن (الكريم) والحديث (الشريف) والشعر وامثال العرب الى غير ذلك من الفوائد والنوادر والشوارد مما لاغنى عنه للمطالع " (١) .

من كل ماتقدم ذكره ، يتبين ان هذا المؤلف ، قد احتوى على الكثير من المواد والفوائد مما جعله يقول عنه "محيط المحيط " .

- نسق المادة في "محيط المحيط"

التزم البستاني في وضع المواد طريقة اعتبار الحرف الاول - وحده - من المادة الاصلية للثلاثي المجرد ، ثم قسم الباب الى فصول ، سالكا مسلك الزمخشرى في " اساس البلاغة " ، في تنظيم مواد المعجم حسب الحرف الاول فالثاني فالثالث فالرابع من حروف المادة الاصلية .

---

(١) من خاتمة "قطر المحيط" .

و " اذا شئت كشف لفظة ، فاذا كانت مجردة فاطلبها في باب اول حرف منها ، واذا كانت مزيدة فجردها اولا من الزوائد ، ثم اطلبها في باب اول حرف منها ، واذا كان في الكلمة حرف مقلوب عن آخر فاطلب تلك الكلمة في مكان الحرف الاصلي المقلوب عنه (١) " .

هذا ، وقد استهل كل باب بتعريف عام للحرف الذى هو بصدده ، حدد فيه موقع الحرف من الالفباء ، واسمه في العبرية والسريانية ، واحوال نطقه عند العامة ، وقدره في حساب الجمل ... فالحاء مثلا .. (الحاء وتقصر الحرف السادس من الحروف الهجائية ، وهو في العبرانية والسريانية حِث ومعناه حائط لان صورة مسمّاه بالفينيقية تشبه الحائط والحاء في حساب الجمل عبارة عن ثمانية من العدد " (٢) .

الصرف في معجم " محيط المحيط " :

بدأ البستاني محاولة منهجية ، في التزام طريقة الترتيب ، لكنه لم يكملها ، فقد حاول مراعاة تسلسل انتقال المادة من الفعل الى المصدر الى الوصف ... دون ان يأخذ وجهة محددة ، فكثيرا ماكان يقدم ويؤخر بدون ضابط ، متصرفا في ترتيب الالفاظ في داخل المادة ، كما يشاء . غير انه راعى طريقة ضبط بنية الكلمة ، واحوال تغيرها من مفرد الى تثنية فجمع . كما ظل وفيا بوضع الفعل الثلاثي المجرد فالمزيد .. وهكذا ..

٢ - ضبط بنية الكلمة :

لم يذكر البستاني علامة او رمزا لابواب الاوزان الستة ، مما جعله يذكر الماضي مع رسم الشكل احيانا ، منعا للالتباس ، وايراد المضارع بعده ، موسوم العين واللام بالحركة المناسبة ، مصرحا بالحركات على طريقة الفيروز ابادى مع اهمال طريقة التمثيل ، كقوله في مادة : " د ش " :

---

(١) من المقدمة ، تحت عنوان ، فائدة .

(٢) انظر باب (الحاء) .

./.

دشّ فلان يدُشّ دشّا ٠٠ دون ان يذكر رمزا يشير الى ان الفعل من باب نصر ، فيعفي نفسه من ذكر مضارعه ٠

واذا سمع للفعل الثلاثي وزنان ، فانه يذكرهما مع ذكر مضارعهما ٠ كقوله في مادة : "رفد ٠ رفِد عيشه يرفَد رفدا
ورفُد يرفُد رفَادة طاب واتسع ٠

ب ـ الصيَغ

يقول البستاني في خاتمة حرف الراء :

"ولاجل التسهيل على الطالب ميزت بين الافعال والاسماء وبين المجرد والمزيد من الفريقين "كل نوع على حدته مندرجا مع نظيره من الابنية " (١) ٠

لكن البستاني لم يحقق ماذهب اليه من وعد ، بل كثيرا ماينقل المادة ، مرتبا الفاظها حسب ما يتهيأ له من ترتيب ينطبق مع منهجه مرة ، ومع محيط الفيروز ابادى مرة ثانية ، وهكذا حيث يقدم ويؤخر بدون اى ضابط ٠

اما الجمع فقد قلد فيه رمز صاحب القاموس ٠ فللجمع (ج) ولجمع الجمع (جـج) ٠

اما المثنى فلا يذكر الا ان يكون للاثنين في الاستعمال شأن خاص ٠ وهذا شأن المعاجم القديمة ٠

مصطلحات الشكل عند البستاني :

اتبع البستاني في رسم هيكلية الصفحة شكل جدولين ، يقسمانها الى يمين الصفحة ويسلوها كلمة عن يمينها ايضا تشير الى الكلمة الاخيرة في جدولها ، ويسار الصفحة ويعلوها كلمة عن يسارها ايضا ، تشير الى الكلمة الاخيرة في جدولها ٠

(صورة عن حرف الالف)

---

(١) من خاتمة حرف الراء ص ٨٤٧ ٠

٠/٠

نقـد وتعليـق

تعرض معجم " محيط المحيط " للبستاني ، لموجات نقدية عارمة ، كان اعنفها حملة احمد فارس الشدياق على الكتاب ، والجدير بالذكر ان الشدياق لم يصرّح بهذا النقد بشكل مباشر ، وليس هذا عن خوف من البستاني ، وانما عن ترفع وزهو . فقد عمد الشدياق الى انتقاد كتاب " القاموس المحيط " للفيروز ابادى وهو الكتاب الام الـذى استقى منه البستاني كل مادته تقريبا ، وقد تمثل هذا الانتقاد في عمل معجمي كبير سماه " الجاسوس على القاموس " .

وقد وصف هذا العمل غير المباشر ، مارون عبود بقوله :

" ولا اكتمك هنا ان الشدياق انتقد قاموس الفيروزابادى ليهدم محيط المحيط الذى اعتمد فيه البستاني على القاموس . فاصاب عصفورين بحجر واحد " (١) .

كما عمد الاب انستاس الكرملي الى نسخة من الكتاب " تقع في خمسة مجلدات واضاف الى كل جزء قوائم بيضاء بعدد قوائم الاصل ثم حشاها بزياداته ومستدركاته مما فات البستاني " (٢) .

"ونبه ايضا على ماني الكتاب من اوهام واغلاط ، وهي على مايقول كثيرة جدا ، واول غلط وقع فيه البستاني ، حسب راى الكرملي - تسمية كتابه . فمن رأى الكرملـي ان يقال " المحيط بالمحيط " لان الصحيح احاط بالشيء " لا احاط الشيء " (٣) .

هذا ، وقد نبه ابراهيم اليازجي على هنات غفل عنها البستاني ايضا ، في الكتاب ذكرها بشكل تعليقات على حواشي ، الكتاب بالقلم دون ان يطبعها . وقد جمعها المؤلفان سليم شمعون وجبران النحاس في كتاب لم يصدر من اجزائه الا باب الهمزة فقط ، في مائة صفحة قطع كبير .

وسنأتي على ذلك بذكر النقد المعجمي ، بالتفصيل ، لكننا نورد ، هنا مثالين من امثلة نقد اليازجي هذه :

---

(١) صقر لبنان ، مارون عبود ، ص ١٤٢ .

(٢) انظـر ، مقالة لمحمد رضا الشبيبي ، مجلة المجمع (القاهرة) ٩٢/ ١٩٥٧ صفحة ٤٢ .

(٣) نفس المصـدر .

./.

صفحة	جدول	سطر	
٢٣	١	٢ -	(البلية) في المتن ، (والالبة البلية) اهـ . وانما الألب لغة في اليلب وهي الترسة والدروع الخ .. واحدتها الالبة ولا معنى للبلية هنا .
٤	١	٢٤ -	مآبر : في متن المحيط ، والمِئْبَر والمِئبار بيت "لابرة ، والتميمة وافساد ذات البين وما يُلقَح به النخل وما رقّ من الرمل ج مآبر ، اهـ . " كتب الشيخ ابراهيم على الهامش : " ومآبير وكثير من هذه المادة لم يذكر في القاموس ولا الصحاح . " اهـ . " التنبيه على مآبر لانها جمع المِئْبَر فقط واما المِئبار فالقياس ان تجمع على مآبير .

- لاريب ، ان مؤلف محيط المحيط للبستاني ، كان نواة معجم عصري جديد ، فيه الكثير من مآمن العثار . وتلافي كثير من عيوب المعاجم القديمة ، مما لا يجوز نكرانه باى حال من الاحوال .

ويمكننا ايجاز حسنات هذا المعجم الكبير بالنقاط التالية :

١- سهولة التعبير في الاسلوب ، ووضوح الدلالة في تركيب العبارة ، حيث اعتمد البستاني لغة استجمع فيها شتات اللغة واستدنى اليه شوارها على اسلوب لين ومأخذ سهل . بما سوّى بين العالم والجاهل ، والمنتهي والمبتدى في التناول منه .

٢- اسقاطه للمهمل من الاستعمال ، ومالم يتداول الناطقون بالضاد . ايماناً منه ان تلك الثروة الواسعة مما خلفه العرب ، والذى بات في حكم المهمل ، يجب ان يصير الى مخزونات امّات المعاجم الكبرى . فلكل عصر لغة ، ولكل زمان بيانه وذوقه .

./.

٣- تركه لكثير من المترادف ، مما نتج او ينتج عن تضارب اراء العلماء فيه ، فكل مترادف غريب ، كاسم مهجور او لفظ ثقيل على اللسان ، لم يجد أية فائدة من الاحتفاظ به ، كان يسقطه .

٤- قلما اهتم للاضداد ، كأنه رأى فيها مضيعة للوقت ، والاهتمام بها ضرب من التعنت وارهاق الذهن فيما لاجدوى من ورائه .

٥- قلة اكتراثه للفروقات اللغوية ، فهي - برأيه - وان دلت على دقة تصور البدوي ، وفسحة خاطره ، فانها تحمل رواد هذه اللغة على ان ينقلبوا عن موردها نافرين ، ولا سيما في هذا العصر ، الذي ازدحمت فيه الحاجات وضاقت وجوه الارتزاق واصبح الناس اميل الى تعلم احدى اللغات الحية في اسرع مايمكن الوقت .

٦- كما اوضح اصل كلمات عديدة ذهل اللغويون عنها ، او جهلوا اصلها ، واشار ايضا ، الى اصل كثير من الكلام العامي فائدة للاعاجم الذين يقبلون على درس اللغة العربية .

كذكره مثلا لـ " الخرجة (قطعة من البناء حولت الى الخارج) .
" الدبلغة (موضع الدبلغة) .
" المرجوحة (مهد يعلق لينام فيه الطفل) .
" السارقة (منشار صغير له نصاب كالسكين) .
" الشقفة (القطعة من كل شيء و " صفن " (بهت كالمفكر في امر) . وغير ذلك ...

٧- وشرح اصول بعض الالفاظ الاعجمية ، وجمع شيئا كثيرا من اصطلاحات العلوم والفنون المختلفة الداخلة في اللغة مع المعربات .

٢- معجم " اقرب الموارد في فصح العربية والشوارد " للمؤلف : سعيد الشرتوني (١) .

انتوى سعيد الشرتوني اصدار معجم في قسمين كبيرين :

---

(١) سعيد الشرتوني : ١٨٤٩ - ١٩١٢ م .
١٢٦٥ - ١٣٣٠ هـ .

ولد سعيد عبد الله الشرتوني عام الف وثماني مئة وتسعة واربعين في قرية " شرتون " تعلم متأخرا في سنه ، عند المرسلين الاميركان في " عبيه " عام ١٨٦٢ وبعد عامين انتقل الى مدرسة " سوق الغرب " فاتم دروسه فيها ، كان للمطالعة اكبر الاثر في حياته ، فهي المدرسة الاولى التي تخرج منها الكاتب . امتهن التعليم في مدارس الاباء اليسوعيين حفيلة ١٥ عاما ، وكان قد تولى تصحيح مطبوعات اليسوعيين نحو ٢٢ سنة . لم يكن يفتر فيها بحكم الضرورة وعامل الرغبة من مواصلة البحث والتنقيب في اسفار اللغة العربية .

صرف بقية عمره ، باحثا منقبا ، لفائدة ابناء العربية ، واحياء ماطمس من معالم اللغة ، وظل يؤلف وينشر المقالات في الجرائد والمجلات حتى وفاته في عام ١٩١٢ م .

- انظر سعيد الشرتوني :

١- الاعلام للزركلي طبعة ثانية ، جـ ٣ ص ١٥١ .

٢- المقتطف م/ ٤١/ ص ٤٢٥

٣- الآثار م/ ١٠٥/

٤- المشرق م/ ٢٤/ ص ٢٤٢ .

./.

الاول : في مفردات اللغة الصرفة .
الثاني : في المصطلحات العلمية والكلم المولد والاعلام .

غير ان المؤلف لم يصدر الا القسم الاول مستدركا اياه بـ " ذيل " .
اما القسم الثاني فلم يصدره ولا ندرى السبب في ذلك .
وقد استغرق القسم الاول مع الذيل ، اثنين وخمسين والفي صفحة من القطع الكبير ، توزعت على ثلاثة مجلدات ، جمع المجلد الاول والثاني تحت عنوان " معجم اقرب الموارد الى فصح العربية والشوارد " وجعل المجلد الثالث تحت عنوان "الذيل" كملحق للمعجم .

آ ـ مجلد القسم الاول :

صدّر المجلد الاول منهما بمقدمة " وسبعة مقاصد " تحدث فيها عن منهج الكتاب وما ارتضاه لنفسه من تنظيم . رجا منه فائدة الدارس مع تبيان الدافع الذى حدا به الى القيام بتأليف الكتاب .

وقد تضمن القسم الاول هذا ، بمجلديه ، على " مفردات اللغة الصرفة ، مع ذكر شيء من مصطلح العروض ونزرا لا يحفل به من الالفاظ المولدة والاعلام ذهابا مع عادة السلف من مؤلفي اللغة رحمهم الله " (١) .

ب ـ الذيـــل :

صدّر المؤلف هذا الملحق ، الذى استدرك به القسم الاول من المعجم ، بثلاثة مقاصد موسما بها دائرة العمل الذى بدأه . فجعلها كما قال في مقدمة كتابه (٢) :

ـ الاول : ماكنت قد اهملته وذهلته من الكلم الوارد في كتب اهل اللسان .
ـ والثاني : كل ماند عن التدوين مما افلتته اقلام العلماء من اصحاب الشأن ، وهو الضوالي التي من الله علي بها باستدراكها على المتقدمين في العلم والزمان " (٣) . وقد استخرجها المؤلف من تصانيف البلغاء ودواوين الشعراء ومن كتب اللغة التي عنيت في مثال هذه البحوث (٣) .

---

(١) من مقدمة الجزء الاول " اقرب الموارد " ص ٦ .
(٢) من مقدمة الذيل ص ٤ .
(٣) المعاجم العربية ، عبد السميع احمد ص ١٦٩ .
وانظرا المعجم العربي الكتاب القيم . للمؤلف الدكتور حسين نصار ٠/ .

ـ والثالث : اصلاح ما آدب اليه الاطمئنان الى القاموس وغيره من الالفاظ اللغوية .

هذا ، وقد ختم " الذيل " بجدول مطول يقع في اربع وتسعين صفحة كبيرة ضمنها بحثا يشتمل على بيان الاغلاط التي وقعت في معجمات المتقدمين مع اصلاحها ، كتلك الاغلاط الواردة في معجم الاساس والتاج والقاموس المحيط . معتمدا في تصحيحها على مانقله من كتب ائمة اللغة والبيان .

ثم يقترح " تذييل كل كتاب من كتب اللغة بذيل يتضمن اصلاحا تاما .. لما وقع فيه من اغلاط التأليف والطبع وفاء بحق هذه اللغة الشريفة وتعميما للفضل " (١)

اما الدافع على تأليف هذا المعجم الكبير ، فهو كما يقول صاحبه : " نقصان مكتبتنا العربية لمعجم يضم فرائد هذه اللغة " (٢) .

ويستعرض المؤلف محاولات العرب الاولين في هذا المضمار ، فيرى انهم قصروا وعقدوا معاجمهم . " فقد جاءوا بمعاني الكلمة الواحدة شتات شتات . كأنها ازماع بنات . فأيم الله ليوشكن جلد الناشد ان ينفر قبل الظفر بضالته . ووقت الطالب ان يتجرم دون امساك نادته . وهم فوق ذلك لم يكتبوا النظر فروع المواد ، بل اثوابها كالمتوارى في خمر الواد " (٣) .

فما يؤخذ من عبارته ، انه كان يهدف التيسير وتوفير الوقت على الباحثين وتدقيق النظر في المواد . " وكأن اليسير غرضا هاما لدى المؤلف ، فاقام عنوان المعجم عليه ، ولاول مرة نرى صاحب معجم يشعر بقيمة الوقت ويريد ان يوفره للباحثين " (٤) .

---

(١) من مقدمة " الذيل " ص ٥

(٢) من مقدمة الجزء الاول ص ٦

(٣) من مقدمة الجزء الاول ص ٦

(٤) المعجم العربي ، حسين نصار ، ص ٧١٧ .

./.

الا ان الشرتوني ، صرح في موضع آخر من المقدمة ، بسبب الدافع على عمله هذا ، الذى كان استجابة لرغبة المرسلين اليسوعيين في لبنان " الذين سألوه المرة بعد المرة وضع معجم يطل بالطالب على طلبته ويواجه المبتغي ببغيته ، حرصا على الزمان ان يذهب كلفا " (١) .

هؤلاء اليسوعيون " الذين جذبهم حب هذه اللغة الشريفة وعرفان مرتبتها المنيفة ، مع اجنبيتهم عنها ، الى ان يفرضوا تعليمها في مدارسهم ، وذلك ليأتي الطالب على اللغة ، ولو مرة في مدة الطلب ، فتتعرف المعاني في ذهنه الى مايليق بها من الالفاظ ويتمرس باساليب اللغويين ، وتتراءى له بلاغة كلامهم " (٢) .

هذا ولم يجد الاباء اليسوعيون في كتب اللغويين السابقة مايحقق اغراضهم التربويـة وما " يواجه مقصودهم ، ويشايع مرادهم ، وذلك لالتزام المؤلفين ذكر الفاظ السوءات وما يتعلق بها " (٣) .

وبهذا ، يكون الشرتوني ، قد استهدف في معجمه " اقرب الموارد " فرضا تربويا بجانب اغراضه اللغوية والعلميـة ، حيث تحذف الفاظ السوءات . " ومايضاف اليها من الالفاظ المبذوءة رعاية لحرمة الادب (٤) ، غير اننا لانجد هذا التحـرج من الفاظ السوءات في " ذيل المعجم " وكأن الشرتوني اراده للمتخصصين ، وليـس للطلبة ، وهذا ماجعله يأتي على ذكر المادة دون نقصـان .

- مصادر معجم الشرتوني ، ومادته :

اعتمد الشرتوني في استقاء مادته ، على مصادر لغوية كثيرة ، وعلى الاخص القاموس المحيط . حيث اجرى عليه بعض التغييرات ، وقد تصرف فيما نقل بالحذف لاسماء البقاع والاعلام والادوية ، وماكان يدخل من توهيمات اخذها صاحب القاموس عن الجوهرى ، كما تصرف في معظم العبارات التي كان الفيروزابادى يضبط بهـا الالفاظ ، والمشتقات القياسية ، وبعض المواد والصيغ والمعاني والصفات والمصطلحات وتعليل الاسماء والتنبيه على اللحن ، وبعض التفسيرات . مقتصرا على تفسير واحـد

---

(١) من مقدمة الجزء الاول ص ٦

(٢) من مقدمة الجزء الاول ص ٨ .

(٣) من مقدمة الجزء الاول ص ٨ .

(٤) = = = = =

او اثنين من التفسيرات الكثيرة المتقاربة ذات الدلالة الواحدة للفظ الواحد ، مضيفا بعض الصيغ والمعاني والشواهد النثرية والشعرية والاسجاع من اساس البلاغة ، والاقوال وبعض المرادفات وبعض الكلمات في التفسير لتوضيحه ، آخذ اكثر هذه الزيادات من تاج العروس ، او اللسان ، او الصحاح .

كما رجع الى " مصباح " الفيومي ، والراغب الاصفهاني ، والمطرزي " وابن فارس في المجمل " مع اخذ زيادات من معجمي جوليوس وفريتاج ومحيط المحيط وقطر المحيط للبستاني .

- نسق المادة في " اقرب الموارد "

التزم الشرتوني طريقة البستاني في اعتبار الحرف الاول - وحده - من المادة الاصلية للثلاثي المجرد ، مقسما معجمه الى ثمانية وعشرين بابا ، لكل حرف من الحروف باب ، وهكذا فعل في " الذيل " ايضا . فباب الهمزة للكلمات المبدوءة بهمزة اصلية ، وباب الباء للمواد المبدوءة بالباء اصلا وهكذا ... ثم قسم الباب الى فصول ، حسب الحرف الثاني من حروف المادة الاصلية ، ورتب المواد في كل فصل حسب الحرف الثالث ، فالرابع ، فالخامس ان كانت المادة ثلاثية ، او رباعية او خماسية على التوالي .

" ومع اتصال الشرتوني بالمعاجم الاوروبية ، كمعجم جوليوس وفريتاج ، واختيار هذه ترتيب كلماتها ترتيبا يخضع لهجائها ، فان الشرتوني ، عاد باختياره للكلمات الى اصول موادها ، اقتناعا لما فطن اليه اللغويون العرب من الصلة القوية بين اصل المادة ومشتقاتها وسائر صورها من جهة ، وللرابطة التي تربط اصل المادة بسائر فروعها وصورها المنبثقة منها بطرق التنمية اللغوية المعروفة ، في العربية : الاشتقاق وغيره من جهة اخرى ، ولان اختيار نهج اللغويين العرب يعين في الحفاظ على حجم الكتاب المعجمي وصورته ، اذ يحول دون اضطرار الكاتب الى تكرار الحديث عن المعنى الواحد في اكثر من موضع تبعا لكثرة المشتقات المنبثقة من اصل واحد ، وتعددها ودلالتها على ظلال او صور لمعنى واحد " (١) .

---

(١) المعاجم العربية ، عبد السميع احمد ص ١٧٠ - ١٧١ .

./.

هذا ، وقد احتذى الشرتوني ، حذو سلفه البستاني ، في طريقة التقديم لكل باب بكلمة عن الحرف المعقود له الباب ، ذكر فيها اقسامه لينة او مهموزة ، وموقعه من الحروف الهجائية ، واستعمالاته ومعانيه ، وقيمته في حساب الجمل ٠٠ غير انه غفل عن ذكر اسم الحرف في اللغات السامية الاخرى ٠

الصرف في معجم " اقرب الموارد " :

التزم الشرتوني ، التزاما صارما ، بترتيب المادة ومراعاة تسلسلها من المادة الاصلية في الفعل الثلاثي المجرد الى المصدر الى الوصف ٠٠ الا ان بعض المواد جاءت دون تحقيق لهذا ، رغم انه بذل جهده في سبيل جعل الكتاب في نسق واحد ٠

اما :

آ - ضبط بنية الكلمة :

فقد عنى الشرتوني بضبط المادة ، عناية لاتخلو من جهد ، وخاصة الفعل الثلاثي منها ٠ وقد استخدم لذلك رموزا تشير الى باب كل فعل يذكره ، ليبين تصرف ماضيه ومضارعه ٠

وهذا هو جدول برموز الابواب او الاوزان الستة في معجمه :

- الباب الاول : باب نَصَر ينصُر

يفتح عين الفعل في الماضي وضمها في المضارع ، وعلامته (ن)

- مثال دشَ فلان (ن) دشا : بمعنى انه (دشَ يدشُ) بفتح عين الفعل في الماضي ، وضمها في المضارع ٠

و - رجَ الشيء (ن) رجا ، فهو (رجَ يرجُ) وهكذا ٠٠٠

الباب الثاني : باب ضَرَب يضرِب

بفتح عين الفعل في الماضي وكسرها في المضارع وعلامته (ض)

مثال خَبَز الخبز (ض) خبزا : عمله بمعنى انه (خبَز يخبِز بفتح عين الفعل في الماضي وكسرها في المضارع ٠

٠٠٠

٠/٠

ـ الباب الثالث : باب قطـع يقطع

بفتح عين الفعل في الماضي والمضارع معا ، علامته (ع) .
مثال ربَع الرجل ع ربعا ، وقف وانتظر ، بمعنى انه (ربَع يربَع) بفتح العين في الماضي والمضارع معا .

ـ الباب الرابع : باب عَلِم يعلَم

بكسر عين الفعل في الماضي وفتحها في المضارع ، وعلامته (ل) .
مثال بَرِش ل بَرَشا بالتحريك . بمعنى انه (برِش يبرَش) بكسر عين الفعل في الماضي وفتحها في المضارع .

ـ الباب الخامس : باب كرُم يكرُم

بضم عين الفعل في الماضي والمضارع معا ، وعلامته (ر) .
مثال حَلُمَ حلما (ر) بمعنى انه (حَلُم يحلُم) بضم عين الفعل في الماضي والمضارع معا .

ـ الباب السادس : باب حسِب يحسِب

بكسر عين الفعل في الماضي والمضارع معا ، وعلامته (س) وهو قليل .
مثال ورِث (س) بمعنى انه (ورِث يرِث) بكسر عين الفعل في الماضي والمضارع معا .

اما اذا ذكر لعين الفعل وزنان ، فانه يورد علامتي الوزنين المسموعين كقوله :
* خَرَط الورق ن ض خَرطا : قشره عن الشجرة اجتذابا بكفه . بمعنى انه (خَرَط يخـرُط وخَرَط يخـرِط) .
بفتح العين في الماضي وضمها وكسرها في المضارع .

كما قد يرد الفعل مسموعا بتثليث عينه ، فيورد العلامات الثلاث : كقوله :
* سنَع ن ع ر سنوعا وسناعة ، بمعنى انه على اوزان ثلاثة هي :
سنَع يسنَـع
وسنَع يسنَـع
وسنَع يسنُـع

./.

هذا الضابط لبنيـة الفعل ، والكلمة ، جعله الكاتب اساس البدء في تناول المادة ، والتزمه التزاما صارما ، وبشكل ترتيبي للوزن . ولعل هذا ماجعله - احيانا - يقدم الفعل المتعدي على اللازم اذا ورد على وزن نصر او ضرب ، ثم يتلوه باللازم ، لانه يرد من باب علـم .

واذا ذكر اسما وعقبه بقوله : " بالضم " نحو (الذُرعة) بالضم ، فالضبط لاول الاسم ، واذا عقبه بقوله : " بالتسكين " كان الضبط للحرف الثاني ، لان العربية لاتبدأ بساكن ، واذا عقبه بقوله : " بالتثليث " او بقوله : " مثلثه " فذلك اشارة الى ان في اول هذا الاسم ثلاث لغات مثل : الطحمة) مثلثة ، من الوادى والسيل : دفعته ومعظمه . فحرف الطاء من هذه الكلمة فيها لغات الضم والفتح والكسر .

وان ذكر الاسم وقال بعده : بالتحريك " او " بحركة " كان المراد فتح الحرفين الاول والثاني ، مثل (السَحَر) محركة : قبيل الصبح ، ومثل : (الشَبَر) محركـة ...

وكذلك ، يضبط ، - احيانا - الحرفين الاول والثاني من الاسم بمثل قوله : بضم ففتح ، او بفتح فكسر ، او بفتح فضم .

واذا كانت الكلمة رباعية وعقبها بقوله : " بالتثليث " كان الضبط لاولهـا وثالثها ، مثل : (الطحربة) مثلثة القطعة من القيم ، من الثوب ...

وكذلك يضبط الحرفين الاول والثالث من الكلمة الرباعية وبمثل قوله : " بالضم او بالفتح ، او بالكسر ، اشارة الى اشتراكهما في الحركـة .

كما توسل بالمثيل احيانا ، لذكر وزان بعض الالفاظ وما يقابلها ، كقوله في مادة علم : (العُلام) كغراب : الصقر . وقوله في مادة (عرب) . (العرابة) كسحابة ... و (العُرب) ككتف . وهكـذا ...

./.

ب - الصيـــــغ :

راعى الشرتوني ، في ترتيب مواده ، ورود الصيغ وتسلسلها الصرفي والنحوى ، بشكل يكاد يكون تاما . فقد التزم بشكل صارم ، تقديم الافعال ، الا اذا كانت المادة لافعل فيها . حيث يتناول الفعل وفق ترتيب الوزان ، من لازم ومتعد ، ومجرد ومزيد فيذكر المزيد بحرف ، ثم المزيد بحرفين ، ثم المزيد بثلاثة . ان في الافعال او في الاسماء . ثم يذكر - دون ضبط تام - الصيغ المقيسة ، مثل اسم المرة والنوع ومصادر مافوق الثلاثي ، وجمع السلامة بقسميه ، وكثيرا مايغفل عن ذلك للعلم بطريقة اخذها . كقوله في مادة "مدّ" (١) :

" مدّ الحبل وغيره ومدّه مدا بسطه
(مده في غيه) اى امهله وطول له .
(مدّد الشيء) تمديدا .
(مادّه) مدادة .. ومدادا بمعنى مده .
(وأمده) امهلـه .

. . .

(وتمادا) الثوب تجاذباه
(وامتد) انبسط وهو مطاوع مد .
(واستمد)
(المادّة) اسم فاعل للمؤنث
(المادّى) نسبة الى المادة
(المُداد) مصدر ماد
(المدّة) بالفتح ، المـدّة
(المِدة) بالكسـرة ، النـوع .

---

(١) انظر اقرب الموارد جـ ٢ ص ١١٩٢ .

حيث بدأ بتصدير الفعل المجرد (مـدّ) محددا وزنه ، ثم بفك الادغام فهو (مدد) ثم المزيد بحرف (مادّ) و (امد) ، فالمزيد بحرفين (تمدد) و (امتدّ) فالمزيد بثلاثة (استمد) .

فاسم الفاعل ، مكتفيا بالاشارة الى صيغة المؤنث (المادة) فقط ، دون الاشارة الى المذكر لوضوحه ، وهو من قبيل الاختصار ـ الذى لزمه المعجم ، ثم ذكر النسبة (المادى) فمصدر مادّ (المواد) فمصدر مد (المدّ) فمصدر المدة (المدة) فالنوع (المدة) .

وهكذا فعل الشرتوني في المواد الاخرى ، محافظا ـ تقريبا ـ على ذات النسق والترتيب . كما حدد ـ وقت اللزوم ـ الجمع وجمع الجمع بعلامتين هما ، "ج" و "جج" وهذه طريقة الفيروزابادى في قاموسه . يقول الشرتوني في مادة عرب مثلا :

"والعرب العرباء ج اعرب وعروب .

"والعربون اعجمي معرب ج عرابين .

ومنعا للالتباس يوضح ـ وقت اللزوم ـ صيغة الجمع ، محددا اياها ونوعها كقوله : و " اعرابي لا واحد له . وليس الاعراب جمعا لعرب كما كان الانباط جمعا لنبط وانما العرب اسم جنس .

اما المثنى فلا يذكره الا ان يكون للاثنين في الاستعمال شأن خاص (١) .

مصطلحات الشكل عند الشرتوني :

اتبع الشرتوني في رسم هيكلية الصفحة شكل ثلاثة جداول ، او اعمدة ، ووضع فوق كل عمود كلمة . اما الكلمة التي على العمود الايمن فهي التي يبدأ بها ذلك العمود . واما اللتان على الاوسط والايسر فهما ماينتهي بهما هذان العمودان .

وهذا مايسر التعرف على الكلمات التي تضمها الصفحة بمجرد النظر الى الكلمة اليمنى واليسرى لان جميع هذه الكلمات تقع بينها في ترتيب الالفباء (٢) .

---

(١) وهذا شأن المثنى في المعاجم القديمة .

(٢) انظر المعجم العربي (حسين نصار) ص٧١٧ ومابعدها

كما وضع المادة التي يريد شرحها اولا بين نجمتين صغيرتين * ... * ثم يحصر صيغ المادة بين قوسين (...) ، واكثر مايكون ذلك في اول السطر الا اذا كانت متصلة بالعبارة التي قبلها ، ولا شك ان هذا التنظيم المقتبس عن المعاجم القديمة يسهل للباحث طلبته في سرعة .

كما رمز المؤلف الى الصيغ المكررة بعارضة — على نسق صاحب القاموس ، ليتجنب اعادة اللفظ مع معانيه الكثيرة .

كما وضع علامتي تنصيص " ... " كرمز يشير به الى ماتناوله من استشهادات تأيد بعض كلماته .

— نقد وتعليق :

ساهم هذا المعجم ، دون ريب ، في تطوير العمل المعجمي ودفعه الى دائرة افضل من التنظيم والعمل الجاد الهادف كما اضاف الى مكتبة التراث ثروة قيّمة عظيمة النفع .

ولئن افاد الشرتوني من تجارب سابقيه ومعاصريه ، فلقد خطا باقرب موارده خطوات تجديدية يمكن لها ان تكون نواة عمل منظم ، افاد الكثيرون منه في عصر النهضة ، في مطلع القرن العشرين .

ويمكننا حصر ميزات المعجم هذا بالنقاط التالية :

١ — سهولة العبارة ، ووضوح دلالتها ، وقرب فهمها سواء بالنسبة للقارئ العادي او المتخصص .

٢ = تنبيه الكاتب على الدخيل والمعرب ، وذكر مايقابلهما من لغاتها الاصيلة ، كقوله في " العفص " مثلا : (العَفص) ، حمل شجرة البلوط .. وهو مولد وليس من كلام اهل البادية " (١) .

---

(١) اقرب الموارد ، ص ٨٠٣ ع ١ .

./.

و " المردقوش " بالفتح : من الرياحين التي تزرع في البيوت ٠٠ معرّب مرده كوش بالفارسيـة ومعناه آذان الفـار " (١) ٠

و " السّمونية " الارتقاء بالمال الى المراتب الروحية كمرتبة القس والاسقف نسبة الى سيمون الساحر (نصرانيـة) " (٢) ٠

٣ـ تعريفه بالنبات والحيوان والمعادن وبعض الامكنة الحديثة بايجـاز ٠

٤ـ كثيرا مايورد الكاتب استشهادات من القرآن الكريم والحديث الشريف ، ومأثور الكلام ، تأييدا لمعنى الكلمة المفسّرة ، غيرملتزم بما ورد في عصور الرواية ٠ كما كـان يلتزم ذلك السابقون من اللغويين ٠

٥ـ الاكتفاء بالمدلول دون الاستغراق بالشواهد الشعرية الكثيرة ، واعتماده على الصحيح منها دون الشاذ ٠

٦ـ مراعاة لحرمة الادب والعلم في حذف الالفاظ البذيئة ، او الجارحة ٠ ليس " الذيـل " ٠

٧ ـ اخذه مفردات كثيرة من كتب ليست من معجمات اللغة ، كما فعـل البستاني من قبله ، كمفردات ابن البيطار والصاغاني وغير ذلـك ٠

٨ـ ايراده بعض الكلمات العامية اللبنانية ، وما يقابلها من معنى بلهجات الاقطار العربية ، ليس دائما ٠

٩ـ استغناؤه عن ذكر اغلب القواعد النحوية والصرفية مما ليس له اهمية فـي توضيح معنى الكلمة ٠

١٠ـ كما لم يكثر من ذكر اسماء الرواة ، ولم يصرح في اغلب الاحيان باسماء الكتب التي نقل عنهـا ٠

وعلى الرغم من هذه المحاولات المخلصة في اخراج معجم خال من عيوب المعجم القديم ، فقد اضطرب الشرتوني كثيرا في كتابه هذا ٠ حتى طغت هذه المساوىء على ما للكتاب من محاسن ومنافع لا تنكسر تعود الى جودة تبويبه وحسن تنسيقه وترتيبه ٠

ويمكننا تقسيم اخطاء " اقرب الموارد " الى صنوف :

---

(١) اقرب الموارد ص١١٩٨ ع ٣ ٠

(٢) = = ص٥٦٤ ع ٣ ٠

٠/٠

ـ الاول : مطبعي : وهو كثير على نحو ماجاء من ان " المكر بالفتح هو الصفير بالغين المعجمة " (١) والصواب الصفير (بالفاء) . (٢) .

وتأيد الرجل " طالت عزبته ، (بعين مهملة بعدها زاي) (٣) ، والصواب غربته (بغين معجمة يليها راء) . وقوله " ح ف د المحفد شيء تعلق فيه الدواب " (٤) والصواب تعلف " (٥) . وغير ذلك مما يطول استقصاؤه .

ـ الثاني : ماهو خطأ في الاعجام وضبط القلم ، وهو كثير . كقوله : " أفدف الخاتن اى استأصل العزلة " (٦) فضبطها بضم الالف وكسر الدال على صيغة المجهول خطأ . والصواب افدف بفتح الالف (٧) والدال على صيغة المعلوم .

ـ الثالث : ماكان عن تسرع اوغفلة في النقل . فقد جاء في تفسير الخلب (بكسر فسكون) انه " حجاب الكبد وقيل غلاف البطن و ـ الحبل منه " (٨) .

فظاهر العبارة ان ضمير (منه) راجع الى غلاف البطن لانه اقرب مذكور . وعلى تقدير ان المراد ارجاعه الى حجاب الكبد ، او الظفر المذكور قبل حجاب الكبد بين معاني الخلب فانه ليس لحجاب الكبد ولا للظفر ولا لغلاف البطن حبل . والذى في القاموس الخلب) بالضم ، وبضمتين) الليف والحبل منه اهـ . اى من الليف . فأدخل المؤلف عبارة " والحبل منه " ضمن معاني الخلب (بالكسر) التي لايصح ارجاع الضمير الى اى منها مع ان محلها ضمن معاني الخلب (بالضم) بعد كلمة الليف كما جاء في القاموس " (٩) .

---

(١) اقرب الموارد ، ص ١٢٣١ ع ٣
(٢) تاج العروس ، ج ٣ ، ص ٥٤٨
(٣) اقرب الموارد ص ١ ع ٣
(٤) اقرب الموارد ص ٢٠٨ ع ٣
(٥) لسان العرب ج ٣ ص ١٥٤
(٦) اقرب الموارد ، ص ٨٦٢ ع ٢
(٧) انظر لسان العرب ص ٢٦٢
(٨) اقرب الموارد ص ٢٦٧ ع ٢
(٩) انظر القاموس المحيط ج ١ ص ٦٣ ، ولسان العرب ج ١ ص ٣٦٤ ع ٢ .

./.

— الرابـــع : شروح مخترعـة مخطئة لم يذكرها ائمة اللغة . فمن ذلك عبارة غريبـة اتى بها في تفسير الخريطة ، وذلك بعد ان نقل عن القاموس قوله : " الخريطة وعاء من آدم وغيره " . زاد " ومنه الخريطة لما ترسم عليه هيئة الارض او هيئة اقليـــم منها " (١) . فهذه الزيادة من عنده لم ترد في اى معجم من الاصول . جاء فـــي اللسان : " الخريطة هنة مثل الكيس تكون من الخرق والادم تشرج على مافيها ، ومنه خرائط كتب السلطان وعمالـه " (٢) .

وعلى هذا فلا دليل على ماجاء عند الشرتوني لان كلمة " خريطة " التي نستعملها للصور الجغرافيـة ليست مستعارة من الخريطة للوعاء من آدم كما توهم ، وانما هي مأخوذة من (كـرت) الافرنجية) (Carte) حتى ان بعض الناس لايزال يلفظهـا خارطـة .

الخامس : ذكر الفاظ عامية غير عربية متسربة في هذا الزمان من اللغات الاعجمية وخاصة التركية . فمنه قوله " الفرمان " (بفتح الراء) قال " انه عهد السلطان للولاة فارسيـة والجمع فرامين اهـ . (٣) .

وهي بالفارسية (بسكون الراء) ومعناها الامر مطلقا ، ثم خصها الترك بامر السلطان . والغريب ان المؤلف اشتق لها فعل فرمن وادخلها في صفوف المواد العربية ثم اخترع لها جمعا على فرامين .

ومنه " الوجاق " (بضم الواو) والاوجاق (بضم الهمزة) فقد اقحمها بين المواد العربية وفسرها بانها " موضع النار " (٤) . مع انها تركية الاصل تسربت الى لغتنا العامية في هذا العهد ...

ولو كان المراد من هذه المواد العامية بيان مادخل منها في لغتنا ، لكان يجب على المؤلف ان يجمع نظائر هذه الالفاظ كلها ، وهي تقدر بالمئات ، في فصل خاص ، او كتاب خاص . لا ان يقم بعضها بين مواد العربية فيؤدي الى الاضطراب والتشويش ، وعدم التمييز بين العربي والدخيل وبين العامي والفصيـح .

---

(١) اقرب الموارد ص ٢٩١ ع ٢
(٢) لسان العرب ج ط ص ٢٨٦ .
(٣) اقرب الموارد ص ٩٢٢ ع ١ .
(٤) = = ص ١٤٢٩ ع ٢ .

./.

السادس : تصرف مخل" في عبارات ائمة اللغة افسد المعنى الصحيح واخرجه عن اصله . مثال ذلك ماجاء في القاموس" املاج الصبي واملاج طلع " (١) باطلاق الطلوع دون بيان مكانه ، ولم يتعرض شارح القاموس لايضاحه بل اقتصر على ضبط الفعلين واهملهما اصحاب اللسان والمصباح والاساس . واذ بصاحب " الاقرب " يخترع قيدا للطلوع بقوله : " اى من بطن امه (٢) " . ولا قائل به ولا دليل عليه . والاقرب الى الصواب ان (طلع) محرّف من (رضع) لان معظم معاني ملج وجميع مشتقاتها تدور حول الرضاع وليس فيها مايدنو من الطلوع (٣) . فقول الشرتوني " من بطن امه " زيادة شوّهت المعنى الاصلي وقلبته رأسا على عقب مع ان امانة النقل تقتضي بان يكون بلا زيادة ولا نقص .

ومن هذا الصنف ايضا قوله في مادة (د ب ج) : " الديباج ج ديابيج وديابيج بلفظ مفرده " اما ديابيج على زنة مساجد فلم ترد في جمع الديباج بل جمعه ديابيج وهي جمع ديباج وديابيج بهائين . كما قالوا دنانير في جمع دينار . وفي المادة نفسها الديباجة : الوجه (هكذا على اطلاقه) وليس هو كذلك ، بل الذى قاله الائمة " ديباجة الوجه : حسن بشرته " (٤) اذ ليس للوجه القبيح ديباجة .

السابع : عدم دقته في ايراد نص الايات القرآنية والاحاديث الشريفة ، بشكل مطرّد ، لا ندرى ما السبب في اغفال التأكد من صحتها . كقوله في مادة (ب ق ع) " ونادى موسى في البقعة المباركة " (٥) . وانما الاية الكريمة " فلما اتاها نودى من شاطئ الوادى الايمن في البقعة المباركة من الشجرة ان ياموسى اني انا الله رب العالمين " (٦) .

---

(١) القاموس المحيط ، ج ١ ص ٢٠٨

(٢) اقرب الموارد ص ١٢٣٤ ع ٣

(٣) انظر لسان العرب ج ٢ ص ٣٦٩ ع ١

(٤) = = = ج ٢ ص ٢٦٢

(٥) اقرب الموارد ص ٥٤ ع ٣

(٦) سورة القصص ، آية ٣٠ .

./.

وقوله في مادة (ح س ن) "ومنه في القرآن "[١] كل هل تربصون الا احدى الحسنيين " (٢) سقط من الاية (بنا بعد تربصون ٠ (٣) ٠

وفي مادة (ر هـ ن) حرّف الاية فقال : "واذا السماء انشقت فكانت وردة كالدهان " (٤) ونص الاية الكريمة : "فاذا انشقت السماء فكانت ٠٠ " (٥) ٠

وغير ذلك من الامثلة التي وردت اما محرفة واما ناقصة ، واما مضطربة في عودة الضمير ،

وقد تتبع هذه الاخطاء كثير من اللغويين اللبنانيين والعرب ، منهم العلامة اللبناني احمد رضا ، واصدرها في مقالات متوالية على صفحات مجلة المجمع العلمي العربي (٦) ، متعقبا الشرتوني كلمة كلمة ، وصفحة صفحة ، حتى زادت الاخطاء التي وجدها العلامة رضا على المئات ٠ كما قام الاستاذ محمد جميل الخاني بنقد للمعجم ، سجل عليه الكثير من المآخذ والاغلاط الفاضحة ٠ ومن الطبيعي ان لا يسلم المعجم هذا من نقد العلامة الاب انستاس الكرملي ٠٠٠ ونقد اللغويين غيره مما يضيق عنهم المجال ٠

---

(١) القرآن الكريم ٠
(٢) اقرب الموارد ص١٩٣ ع ٢
(٣) سورة التوبة ، آية ٥٢ ٠
(٤) اقرب الموارد ص٣٥٦ ع ٣
(٥) سورة آية
(٦) انظر مجلة المجمع العلمي العربي لسنة ١٩٤٧ م ٠

الفصـــل الرابـــع

(١)
التعريـــــب ووضع الالفـــاظ

لم يكن العمل في التعريب مقتصرا على نقل بعض ملذّ عن حضارة او مخترع او استحداث آلة ، او متوقفا على الاستجابة لمتطلبات العصر فتبادر الاقلام الـــى بث مظاهره وملامح تطوره الى الامة . او منتهيا عند حد الصحافة وترجمة المقـــالات والكتب الى اللغات الاخرى ، فتتنسم لغتنا اهواء تفتح وانطلاق . لم يكن الحـــال جزءاً ينكمش على حدود الكلمات الضيقة ، او الاكتفاء بعرض مصطلحات جديدة . لقد

---

(١) نعني بالتعريب : أ — البحث عن لفظ جديد لمعنى جديد مع مراعاة الاشتقاق

ب — اقتباس اللفظ الاجنبي بحروفه على ان يصاغ صياغـــة عربية . ومن البديهي بانه لا ينبغي لنا العمل بهذه القاعدة الا عند عجزنا عن اشتقاق لفظ عربي للدلالة على المعنى الجديد . فاذا كانت كتب العلم القديمة لاتحتوى على لفظ نقتبسه . كما هو او نبدله ، واذا كانت اللغة نفسها لاتشتمل على اسم قريب من المعنى نشتق منه فعلا او صفة ، كان استعمال اللفظ الاجنبي اوفـــى بالقصد واقرب الى الوضوح من اطلاق لفظ عربي غير مألوف يفرض على العلم فرضا . ان علماءنا القدماء لم يجدوا في استعمال كلمة (جغرافيا) و (كيمياء) مثلا اى انتقاص من حقوق اللغة العربية .

ويقول صاحب كتاب الهوامل والشوامل في الجواب عـــن احدى المسائل — لابي حيان التوحيدى ص ١٠٤ : "على اني رأيتك تستعفي ان تفهم حقيقة الا ان تكون في لفظ عربي . فان عدمت لغة العرب رغبت في العلوم . لكن — ايدك الله — لاتترك البحث عن المعاني في اى لغة كانت وبأى عبارة حصلت . "

لابدّ ان نفرق بين مصطلحين ، حسب استعمال المدققين . فـ "التعريب" هو نقل الاجنبية الى العربية و "الترجمة" هي عملية نقل من العربية الى الاجنبية .

./.

كان عمل التعريب ، في القرن التاسع عشر ، محاولة تجوهر ، واثبات تراث ، احتدم الصراع حوله • وتنازعت الاهواء هدفه • وتناهت من حوله الابعاد • لقد انغمس الحاضر العربي برؤى ليست له • وما عرف يوما هويتها ، فكيف له ان ينتسب الى حضارة الانسان ، ولا لسان يعصمه • من هذا المنطلق نطرح قضية اللفظ المستحدث ، والتعريب فالقضية قضية التزام بهوية الانسان ، لا قضية خاطرة ندت على البال فتجسدت في كلمة عابرة ؟ فلقد اصبح الكاتب — عصرئذ — مضطرا الى وضع مئات بل آلاف من الاسماء التي لا يجد لها رديفا في لسانه ، ولا في وسعه نقل تلك الالفاظ بصورتها الى لغته لشدة التباين بين طبيعة لغته ولغات اولئك الاقوام • لان الالفاظ فيها محصورة الاوضاع محدودة الصيغ ، لا تقبل الزيادة عليها الا منها ، ولا يمكن ان تدس اللفظة الاجنبية بينها الا بعد ان تجانسها وتؤاخيها • وما يزيد من حدة الموقف ، قصور الهمة عن ان تدرك مدى التعريب ووضع الالفاظ ، فعامة الناس ، وهم الذين يقررون بتداولهم للفظ عمره او موته ، ابعد الناس عن القضية ، بل جلهم من يفتخر بتداوله لفظا اجنبيا او يؤكد على اضطراره امام متطلبات العصر ومستلزماته ان يستعمل مصطلحات تخفق الحياة بين جنباتها • ولا عجب ، فالمرحلة الحضارية التي مرت بها البلاد في القرن الماضي ، ولما تزل ، هي اشبه بسجين غفلت عيناه الا عن الظلام ، فارتاحت لمرآه ، حتى اذا ما انبثق النور ، نور الحضارة الجديدة ، الوافدة ، باهرا عشي ، واضطرب بصره ، فلم ير الا معارض طبيعية او صناعية ، وانواعا من المسميات وضروبا من الادوات واصنافا من المعادن واجناسا من المصنوعات ، وفنونا من المنافع الحياتية • وهو الذي لا يملك بين يديه الا بقايا حضارة غابرة ، ولا يلهج لسانه الا باسماء ذهبت مشخصاتها ، وامحت آثارها " ثم ماهو فاعل لو اراد الكلام فيما يحدث كل يوم من المخترعات العلمية والصناعية والمكتشفات الطبيعية والكيماوية ، والفنون العقلية واليدوية ، وما لكل ذلك من الاوضاع والحدود والمصطلحات التي لا تغادر جليلا ولا دقيقا الا تدل عليه بلفظة المخصوص (١) •

من هذا المفهوم للمسؤولية العلمية ، والواجب القومي الملقيين على عاتق الجيل الماضي ، نهض علماء اوفياء لرسالتهم ، كأحمد فارس الشدياق وبطرس البستاني ، وابراهيم اليازجي ، وخليل اليازجي ثم نجيب الحداد وشاكر شقير والدكتور خليل سعادة والدكتور بشارة زلزل وغيرهم ليتحملوا عبء المهام الجسام هذه ، ويسهموا في تأسيس مذهب ذوقي

---

(١) مجلة الجنان " ابراهيم اليازجي " في مقال " اللغة والعصر " انظر " روائع البستاني ايضا •

اسمه الكلمة الموفيــة بحق التقدم . فالفوا الكتب والمقالات ووضعوا الرسائل ، طارحين في ثنايا ذلك كله مجموعات من الالفاظ المقترحة ونظريات في تأليف المصطلح ، كما نقلوا الكثير من الكتب عن الغرب باسلوب رصين ، وعربية سليمة . دون ان ينسوا حث ابناء الجيل ، او لومه احيانا عن القصور والتقليد الاعمى . حاملين لواء الدفاع عــن العربيــة ورد مالحق بها من لوم وتجن واتهام بالجمود . ويمكننا تحديد تصور الموضوع بالشكل التالي :

١ـ اسباب التفكير في وضع الالفاظ .
٢ـ الحلول المقترحة في ذلـــك .
٣ـ نماذج من الالفاظ المستحدثة في القرن الماضي .

ـ اذا ماعدنا الى اسباب التفكير في وضع الالفاظ ، لرأينا انها تتشعب الى اسباب عامة ، ترتبط كل الارتباط بواقع الحياة . واسباب خاصة ترتبط بواقع الافراد المهني في التدريس او الصحافة او الترجمة والتعريب في الوظائف الحكومية .

آ ـ الاسباب العامــة :

تعود هذه الاسباب الى واقع لغوي عام ، اعتقد به اللغويون ، وآمنوا به . هذا الاعتقاد يقوم على فهم اللغة فهما صحيحا ، يجعلها بنت الحياة ، ويعرف انه من غير المعقول ، ان تكون اللغة قد نشأت دفعة واحدة ، بل هي تنمو عبر الاجيال وتتطور ، كغيرها من الصنائع والموضوعات البشرية لايحدث شيء منها تاما كاملا من اول وهلــة ، ولكن على التدريــج (١) . وهذا مايعطي المحدثين حقا في الوضع والا حكموا علــى نفسهم ومن ثم على لغتهم بالموت المحتم .

ويدافع الشدياق عن حق المحدثين في الوضع فيقول :

" ولو ان العرب الاولين شاهدوا البواخر وسكك الحديد واسلاك التلغراف والغاز والبوسطــة ونحو ذلك مما اخترعه الافرنج لوضعوا له اسماء خاصة ناصة . فهم على هذا غير ملومين " (٢) .

(١) سر الليال ، الشدياق ، ص ٢٥ .
(٢) منتخبات الجوائب ، الشدياق ، جـ ١ ، ص ٢٠٥ .

./.

ويتابع فيقول :

" وانما اللوم علينا حالة كوننا قد ورثنا لغتهم وشاهدنا هذه الامور باعيننا ، ولم نتنبه لوضع اسماء لها على النسق الذى الفته العرب ... افيظن احد ان لفظة السفير والوالي والمتصرف ، والمدير ومجلس الشورى لا ينبغي ان تعد من الالفاظ العربية لانها لم تكن معروفة للدولة العباسية ؟ فاذا برأ احد تلك الدولة لعدم اتخاذها هذه الالفاظ اذ الحاجة لم تمس اليها لم يكن له ان يلوم دولة اخرى على اتخاذها مع وجود الحاجة ، فقس عليها غيرها " (١) .

وهو على هذا ، يعمد الى تقرير حق ثابت ان اللغة بمنزلة المتكلمين ، وانه لا يمكن للغة من اللغات ان تعيش وحدها ، لانه لا يمكن لامة من الامم ان تعيش وحدها من غير ان تختلط بامة اخرى ، وانه من هنا تدخل الفاظ امة في الفاظ امة اخرى . ان ذلك غير منكر .

هذا ، والشدياق لا يذهب في امره مذهبا متحللا معه من كل قيد ، فهو مع تقريره لهذه الحقيقة اللغوية يحرص — اشد الحرص — على ان يجعلها في اضيق الحدود . ومن هنا نراه ينص " على ان هذا الدخيل انما يغضي عنه اذا لم يوجد في اصل اللغة مايرادفه ، او لم يمكن صوغ مثله . اما اذا امكن فالاغضاء بخس لحق اللغة لامحالة " (٢) .

وكأني بالشدياق قد اراد ان يفتح امام اللغويين باب الاجتهاد في التعريب ووضع الالفاظ ، وهذا ماتجلى فعلا في حديث جرجي زيدان ، فيما بعد ، عن الموضوع ذاته ، حيث قال مستعرضا اوجه القضية ، منذ تطور الالفاظ الجاهلية حتى عصر النهضة ، حاثا على مزيد من التقدم في هذا المضمار لانه امر ينبثق عن ناموس الارتقاء ، لا سبيل الى الوقوف بوجهه اراد اصحاب اللغة ذلك ام لم يريدوا . فلقد " تولدت في العصر الاسلامي الفاظ وتراكيب لم تكن في العصر الجاهلي ، وتولدت في العصور التالية مالم يكن فيما قبلها . واخيرا تولدت في نهضتنا الاخيرة من الالفاظ والتراكيب مالم يكن

---

(١) منتخبات الجوائب ، الشدياق جـ ١ ص ٢٠٥

(٢) منتخبات الجوائب ، الشدياق ، ص ٢٠٢ — ٢٠٣

./.

معهودا من قبل ... فالوقوف في سبيل هذا النحو مخالف للنواميس الطبيعية ، فضلا عن انه لا يجدي نفعا " . "فاللغة كائن حي تام خاضع لناموس الارتقاء . ولا بد من توالي الدثور والتولد فيها .. اراد اصحابها ذلك ام لم يريدوا ، تتولد الفاظ جديدة وتندثر الفاظ قديمة على مقتضيات الاحوال لحكمة شملت سائر الموجودات (١) .

وهو حين يدعو الى وضع الالفاظ ، ينبه — كالشدياق — من الاطلاق ، ويحذر من مغبة الافراط والفوضى في النظم والوضع حيث يقول :

" فلا بد لنا .. من الرجوع الى القواعد العامة والروابط الاساسية ، فلا نفسد اللغة بالفاظ العامة وتراكيبهم .. ولا نكثر من الدخيل حتى تصير لغتنا مثل اللغة التركية العثمانيـة ...

" فلا بد من المحافظة على (سلامة اللغة العربية) والاهتمام باستبقائها على بلاغتها وفصاحتها ... فلا يستحسن الاكثار فيها من الدخيل والمولـد . وانما يؤخذ منهما بقدر الحاجة ، على ان نعد ذلك الاقتباس نموا وارتقاء ، لا فسادا او انحطاطا " (٢) .

وكذلك الشأن عند ابراهيم اليازجي في ارجاعه لاسباب التفكير بالوضع الى الضرورة الحتمية التي فرضتها الحياة المتجددة ، بغية انقاذ اللغة من جمودها .

وقد حدد اليازجي ، مناحي هذا الجمود بما صارت اليه اللغة — يومها — من التقصير بخدمة اهلها والعقم بحاجات ذويها .. حتى " اصبحت الكتابة في كثير من الاغراض ضربا من مشاق التكليف ، وبابا من ابواب العنت ، واللغة لا تزداد الا ضيقا باتساع مذاهب الحضارة ، وتشعب طرق التفنن في المخترعات والمستحدثات ، الى ان كادت تنبذ في زوايا الاهمال .. ومست الضرورة الى تدارك ماطرأ عليها من الثلم قبل تمام العفاء ...

فلو ان كاتبا " رام ان يصف حجرة منامه لم يكد يجد فيها مايكفيه هذه المؤونة اليسيرة ، فضلا عما وراء ذلك من وصف قصور الملوك والكبراء ، ومنازل المترفين والاغنياء وشوارع المدن الغناء ، وما ثم من آنية واثاث وملبوس .. وغير ذلك من اصناف الماعون

---

(١) من خلاصة " اللغة كائن حي ، جرجي زيدان

(٢) اللغة كائن حي ، زيدان ص ١٣٩ — ١٤٠ .

وادوات الزينة ، مما لا يجد الشيء منه اسما في هذه اللغة ، ولا يكون حظ العربي من وصفه الا العي والحصر وطي لسانه على معان في قلبه لا يتسنى له ابرازهـــا بالنطق ، ولا يجد سبيلا الى تمثيلها باللفظ ، كأن المقاطع التي يعبّر بها عن هذه المشخصات لم يخلق لها موضع بين فكيه ، وليست مما يجرى بين لهاته وشفتيه ، فعاد كالابكم يرى الاشياء ويميّزها ، ولا يستطيع ان يعبر عنها الا بالاشارة ولا يصفها الا بالايمـــاء " .

ويتابع اليازجي قولـــه :

" ويا ليت شعرى ما يصنع احدنا لو دخل احد المعارض الطبيعية او الصناعية ورأى مائة من المسميات العضوية وغير العضوية من انواع الحيوان ، وضروب النبات ، وصنوف المعادن ، وعاين ماهناك من الالات والادوات .. ثم ماهو فاعل لو اراد الكلام فيما يحدث كل يوم من المخترعات العلميـــة والصناعية والمكتشفات الطبيعية والكيماوية والفنون ... وما لكل ذلك من الاوضاع والحدود والمصطلحات التي لا تغادر جليلا ولا دقيقا الا تدل عليه بلفظة المخصوص " (١)

ومما هو واضح من النصوص السابقة ، ان ائمة اللغة في القرن الماضي ، ما ذهبوا الى ماذهبوا اليه الا لفرط حبهم لهذه اللغة وغيرتهم عليها ، وخوفهم من ان تتبدد وتندس الى الفاظها اقوال الاجانب فهم ، مع تحديدهم مناحي القصور ، لا ينسبون ذلك الى اللغة ، بل الى ابناء اللغة ، الذين قصرت مداركهم عن فهم الحياة ومتطلباتها منتقدين فتور الهمم وتقاعس ابناء اللغة عن البحث في اسرارها " تلك اللغة التي طالما وصفها الواصفون بانها افزر الالسنة مادة واوسعها تعبيرا وابعدها للاغراض متناولا واطوعها للمعاني تصويرا " (٢) .

ولذا ، " فان كان ثمة هرم فانما هو في الامة لا في اللغة ، لان ماعرض لها من الهجر والاهمال غير لاحق بها ولا ملحق بها وهنا ولا عجزا . وانما هو عجز في السنة الامة ومداركها ، وتأخر في احوالها واستعدادها . ولو صادفت من اهلهـــا

---

(١) الروائع ، عن اليازجي ، ص ٢٩ — ٣٠ عدد / ٤١ / .

(٢) = = ص ١٣ .

./.

البقاء على عهد اسلافهم من السعي في سبل الحضارة وتوسيع نطاق العلم ، لم تقصر عن مشايعتهم في كل مافاتهم من الاطوار حتى تبلغ بهم الى مجاراة العصر الحالـي " (١) .

ثم يستقرى الكاتب اوجه هذا القصور ، مدافعا عن اللغة وجودها فيقول :

" اذا ... سبرت غور اللغة في نفسها ، وقست مبلغ استعدادها ، علمت انه ليس منها في شيء (اى القصور والهرم) ، وايقنت انها لاتزال في ريعان شبابها وطور ترعرعها ، وان فيها بقية صالحة لان تجارى اوسع اللغات واكثرها مادة .

" ولكن ما ادركها من ذلك وارد من قبل الامة وتخلفها في حلبة الحضارة والمدنيـة ، اذ اللغة باهلها تشب بشبابهم وتهرم بهرمهم ، وانما هي عبارة عما يتداولونه بينهم لاتعدو السنتهم مافي خواطرهم ولا تمثل الفاظهم الا صور مافي اذهانهـم " (٢) .

وعلى هذا القصور العام للغة ، عند علمائنا ، تأخذ اللغة مرآة احوال الامة ، وصورة تمدنها ، ورسم مجتمعها وتمثال اخلاقها وملكاتها ، وسجل مالها من علوم وصنائع وآداب . وهي ان ظلت على جمودها ، فلن يلحقها الا مزيد من القصور المطرد ، باطراد الحضارة والتقدم العلمي . ولن يعتورها الا الانكماش والانزواء ، وتمسي بين اللغات دراسة ، كما درست غيرها في الحقب السالفة .

لذا ، بات من الضرورة الحتمية ان تنفض عنها غبار الزمن ، وتفك عقال التحجب والتقوقع لتتلمس انسام الحياة الجديدة ، وتأخذ عن غيرها ، وتعطي بمرونة وخصب كافييـن .

---

(١) المصدر السابق ص ١٧

(٢) المصدر السابق ص ٣٢ .

./.

فهي دعوة قومية ، تأخذ طابع التحدى العام ، ثقافة وحضارة ، منبثقتين عن جوهر لغوى . اى ان حياة الامة من حياة اللغة ، وما ذلك الا بالتجديد واحياء اللفظ او وضعه حتى لايضطر اهل اللغة الى اخذ لفظ اجنبي يعبرون به عن متطلبات حياتهم . فمن " اوجب الواجب في المحافظة على بقاء الامة وصيانة الجنسية بينها احياء لغتها بين عامة اهلها ، وتكثير سواد اهل العلم منها ، والتجافي بها ما امكن عن لغات الاعاجم " (١) .

ويبين اليازجي حقيقة اللغة كما يجب ان تكون وكيف فهمها الناس ، حيث اعتقدوا الكمال للغتهم ، ووقفوا متأملين في تراثها دون تطوير او تبديل ، ومع ان حقيقة الكمال في اللغة ان تكون بحيث يمكن ان يستنبط من نفس اوضاعها الفاظ لما يحدث من المعاني ، لا ان تكون بحيث تستغني عن المزيد ، اذ المعاني ابدا تتجدد ، وليس من المحتمل ان قوما يضعون الفاظا لمعان لاتوجد ".

وكأني باليازجي ، هنا ، يميل الى اصلاح الامة من داء الغرور ، حيث اعتقد البعض بان العربية لغة الكمال المطلق ، فاطبق سفر الابداع دونها . ولم يعد يفكر في امر حياتها ، وهو امر لا يتوافق وطبيعة اللغات ، فاللغة ايا كانت — لم توضع دفعة واحدة ، ولكنها — ابدا — كانت تابعة لاحوال المجتمع ، ومبلغ الامة من الحضارة . . فهناك سلسلة من المعاني لاتنقطع ولا تنتهي الى حد تقف عنده ، ولذلك كان المحال ان لغة قوم مهما بلغت من الكمال ، وتاهت في الاتساع ، تصل الى حد تصلح فيه لان تستعمل في كل عصر ، لان ذلك الكمال انما يكون بالقياس الى زمن مخصوص ، ومبلغ من الحضارة لايتعداه ، فهو على هذا كمال نسبي " (٢) .

وعلى هذا ، فالاسباب العامة للتفكير في وضع الالفاظ ، قومية ، تدخل في نطاق الحقيقة اللغوية تلك الحقيقة التي تحتم وجود اللفظ المستحدث ، حتى تأخذ اللغة في ديمومة الحياة نصيبها .

ب — الاسباب الخاصة :

اما الاسباب الخاصة ، فنعني بها اسباب حركة الانبعاث ، والعوامل المساعدة

---

(١) المصدر السابق ، ص ٢٣ .

(٢) = = ص ٢٣ — ٢٤ .

./.

لها ، كانتشار الصحافة والمجلات والطباعة والنشر ، وتوزيع الكتاب ، وبدايات الحركة المسرحية والتأليف في مصر وسوريا ولبنان ، كل ذلك ، دعا الى مزيد من الاهتمام بالتعريب والنقل عن الاجنبية ، الامر الذى استدعى خلق الفاظ ومصطلحات جديدة ، نذت عن البحث المتفرع حسب الوان التقدم من علمية وتقنية وفنية . كما ان وقوف هؤلاء الكتاب والادباء واللغويين من اسباب المعرفة تلك ، اثارت فيهم حب الاستقلال الذاتي ، وشرف المحافظة على الشخصية ، الامر الذى استوجب معه ، رغبة مخلصة في خلق كلمات جديدة اما عن طريق احياء لفظ قديم ، او عن طريق الاشتقاق او النحت او النقل الحرفي وغير ذلك مما سنأتي على ذكره في القسم الثاني .

هذا وقد لعبت الاسباب الشخصية ، دورها في التعريب ووضع الالفاظ ، ايضا ، وهو امر تتطلبه المصلحة الشخصية ، كما حصل لاحمد فارس الشدياق ، مثلا ، الذى اضطرته دواعي السفر ، والعمل في الترجمة للكتاب المقدس . وتسلم مهام تحرير الجوائب المصرية وغيرها من الاعمال ، اضطرته الى استعمال الفاظ جديدة لمعاني مستحدثة ، ونخص بالذكر هنا ما اورده الشدياق من الفاظ كثيرة في كتابيه " الواسطة في معرفة احوال مالطة " و " كشف المخبا عن فنون اوربا " اللذين ضما في كتاب واحد حكى فيه الكاتب انطباعاته وخواطره كما سجل ما رأته عيناه ، ذاكرا الكثير من المعلومات المهمة والاحصاءات ، ووصف ما رآه من مخترعات وعمران في المدن الاوروبية ، وجزيرة مالطة . وما عرفه من انظمة الحكم السائدة يومئذ فادرك اسسها ومناهج تطبيقها ودرس مافي المجتمع الاوروبي دراسة عميقة ، ثم اخذ بعد ذلك ، عهدا بنقل ذلك الى لغته القومية ، مما حمله على تطويع اللغة كي تضم هذا العباب الضخم الذى فجأه ، ناهضا بالعمل وحده من غير ان يستعين بانسان او لجنة من اللجان .

ولعل هذا ماقابل ، فيما بعد ، يعقوب صروف وجرجي زيدان ، وخليل اليازجي ، والدكتور بشارة زلزل ، وغيرهم من الذين اقاموا فترة طويلة على كتابة المقالات العلمية ونقل المخترعات والمستحدثات العصرية الى لغة العرب .

هذه هي الاسباب العامة والخاصة ، التي حملت علماءنا على التفكير في وضع الالفاظ . اما الحلول المقترحة في سبيل ذلك فهي التالية :

./.

٢ــ الحلول المقترحــة :

توسل اللغويون اللبنانيون في القرن الماضي ، عدة وسائل تحقق لهم حل القضيــة التي نبحث . وقبل البدء بتعداد هذه الوسائل وكيفيتها ، لابد من القول ان هؤلاء العلماء ، تأملوا القضيــة وانفذوا بصيرتهم بعتمة محتواها ، فادركوا جللها وابعادها . مما حملهم على دعوة البيئات الثقافيــة في الوطن العربي دعوة حارة كي تنهض بالمشكلة وتجد لها الحلول ، وهذا مايفسر طلب الشدياق ومن بعده اليازجي من البيئــة المصرية بان تقوم بعمل وضع المصطلحات ، هذا العمل اللغوى الكبير ، لان مصر ــ كما يقول الشدياق ــ " مورد العلوم العربية ومصدرها . وكلام مشايخها متبع في جميع الامصار . فاذا قرروا طريقة لصوغ الالفاظ المنحوتة اقتدى بهم جميــع الكتاب والمؤلفون ...

وهو يرجو من " همة كتاب الروضة ولا سيما العالم الشهير رفاعة بك ان يريحونا من الالفاظ العجمية اراحهم الله ، واغناهم عن التعريب الذى هو اشد عذابا على من عاناه (١) . وهو ماذهب اليه جرجي زيدان في قولــه :

" نتقدم الى ائمة اللغة وكتابها وعلمائها ان يزيدونا من هذا الموضوع خدمة لهذه النهضة " (٢) ويقرر ذلك ابراهيم اليازجي ، متوجها بالكلام الى مجمع اللغة المصــرى :

" على انك لو طفت اليوم في جميع انحاء البلاد التي كانت مباءة للعرب ، ومعرضا لحضارتهم وفنونهم ، لم تكن تجد موضعا تتسم فيه آثار ذلك القديم سوى الديار المصرية التي هي مستودع ذخائر السلف ، ومجمع شمل علومهم في شمل بقاياهم ، والتي ، ان كان قد كتب لهذه اللغة ان تستأنف البقاء مدة اخرى ، فان مبعثها انما يكون مــن ناحيتها وعلى ايدى رجالها " (٣) . " اذن ، القضية عند علمائنا قومية بالدرجــة الاولى ، تحتاج الى اجماع لغوى ، يصدر عن هيئات ثقافية ، ذات كلمة مسموعة ... وليست القضية فردية ، ترتد الى خاطرة او مجرد سوانح لغوية . ومع ان علماءنا رأوا في التعريب اراء خاصة ، وذهبوا في وضع المصطلح مذاهب مختلفة ، الا انهــم

---

(١) كنز الرغائب جـ ١ ، ص ٢٠٥ ــ ٢٠٦

(٢) اللغة كائن حي ، زيدان ، ص ١٤١

(٣) اليازجي ، روائع البستاني ، ص ٣٥ ــ ١٩ .

./.

جميعا اتفقوا على مايجب تعريبه ونقله ، ووضع المصطلح له ، وما يجب الامتناع عنه . فقد حصر ابراهيم اليازجي موضوع المصطلح ، ووجوب غلبة التعريب في " اسماء الاجناس لانها موضع التفاوت بين اللغات ، على الغالب ، واليها ترجع تسمية كل محدث من المخترعات والمكتشفات على اختلاف ضروبها " (١) محتذيا بذلك حذو احمد فارس الشدياق الذى رأى من قبله (ان اكثر هذه الاسماء هو من قبيل اسم المكان او الالة " (٢) .

هذا ، وقد قسم اليازجي اسماء الاجناس هذه الى ضربين :

الاول : اسماء الجواهر المخلوقة ، بسيطة كانت كالاوكسجين والفسفور والكربون ، او مركبة كالزمرد والبترول . جامعا مع هذه اسماء انواع النبات والحيوان كالفارنج والنيلوفر والباشق مما لا مرادف له عندنا ؛

ويلحق بهذين القسمين الاخيرين ما اشبههما من اجناس من المصنوعات مما يتميز بتركيبه كالسمنت او بهيئته كالديباج والتفتة .

ويرى ان جميع هذه الاسماء لا يتأتى نقلها ، على الغالب الا محكية بلفظها ، لانها اما ان تكون مرتجلة ، اى لم يسبق استعمالها في معنى آخر ، فلا سبيل الى تعريبها بالترادف . واما ان تكون شبيهة بالمرتجلة ، وهي ماكانت مجهولة الاصل كالشمبانزى ، او كانت منقولة عن معنى سابق ، الا ان لفظها لا يدل بنفسه على المعنى الذى نقلت اليه ، وانما تعينت له بالعرف والاستعمال ، فاذا عربت بمرادفها لم يفهم منه المعنى المقصود بها الا بعد النص عليه .

ويبين ذلك بمثال كلمة الفسفور ، فـ " انك " اذا اخذت هذه اللفظة وجدته (اى الفسفور) مركبا من كلمتين معنى مجموعها ، " حامل النور " ولا يخفى ان هذا اللفظ يصدق على كل مادة مضيئة من المعادن وغيرها فتقييده بالمادة المسماة به ليس من مفاد اللفظ في شيء ، وانما هو مجرد تواطؤ واصطلاح " (٣) .

---

(١) اليازجي ، من مقالة له في مجلة الضياء السنة الثانية (١٨٩٩) ص ٤٤
(٢) الجوائب ، جـ ١ ص ٢٠٢
(٣) انظر نفس المقال لليازجي .

./.

الثاني : اسماء المصنوعات المختلفة ، من الادوات والاثاث ، والماعون ، وغير ذلك من اشياء الحضارة ومرافق العمران ، والالات العلميـة والصناعية .

ويرى اليازجي هنا ، رأى سلفه الشدياق ، في ان هذه الاسماء المتأتية عن المصنوعات الحضارية لا يتعين ان يعرب اللفظ الموضوع لها بمرادفه ، ولكن يكفي ان يعبر عنها بما يدل عليها ، ولو من طريق العرف ، لان هذه المذكورات انما تصنع لضروب من الاغراض ويتوخى بها وجوه من الاستخدام ، فيشتق لها لفظ يدل على معنى من المعاني التي تعتبر فيها او يستعار لها لفظ يجمع بينها وبينه علاقة من علائـق المجاز . وحينئـذ ، فهذه المسميات كلها تعتبر تسميتها من قبيل الوضع الابتدائي ، سواء وافقت اللفظ الموضوع لها ام لـم توافقه ، لان هذه الموافقة ليست شرطا في صحة الاستعمال .

وهو ماتوسله الشدياق في باب الاشتقاق كطريق اول لوضع المصطلح حيث يقول : " ان اكثر هذه الاسماء هو من قبيل اسم المكان او الالة ، وصوغ اسم المكان والالة في العربية مطرد في كل اسم ثلاثي . فما الحاجة الى ان نقول " فابريقه اوكارخان ولا نقول (معمل او مصنع) . او ان نقول بيمارستان ولا نقـول مستشفى . او ان نقول ديوان ولا نقول مأمر . وان نقول اسطرلاب ولا نقول منظـر ... " (١) .

ويشرح اليازجي هذا العمل الاشتقاقي في تطبيقه نظرية المعربات العصرية على كلمة كالمنطاد مثلا التي اعطت لفظ " البالون " فيقول :
" فانه اخذ من معنى الارتفاع لصدقه عليه وان لم يطابق معنى اللفظ الاصلي " (٢)
ومثله الرقاص للبندول ، او المـأساة للتراجيديه ، والمجهر للمكروسكوب .. " (٣)

ثم يقول : " وربما عرّب الشيء بما يقاربه او بما يدخل تحته لا بما هو نفسه ، نحـو الجناح للبلكون ، وهو في الاصل نحو الرف يتصل بحائط البناء ، وكالخوذى بالضم ، لسائق خيل العربة ، معرّب (Cocher) وهو في الاصـل

---

(١) منتخبات الجوائب ، الشدياق ، ص ٢٠٢ (ج ١)
(٢) المقال السابق ، ص ٤٦ (روائع)
(٣) = = =

./.

الطارد المستحث على السير ، وقس على ذلك " (١) .

هذا في الاسماء ، اما في الافعال ، فلم نر عند اي منهم ، من حاول تعريب شيء منها لانهم لم يجيزوا تعريب الفعل ، ايمانا منهم ان " للافعال عندنا ابنية مخصوصة لاتوافقها الاوضاع الاعجمية ، فانها معرضة للتصريف والاشتقاق وانواع الزيادات ولكلها اوزان وقوالب لاتخرج عنها بحال " . و " حينئذ فلا بد في الفعل المعرب من تغيير كثير حتى ينطبق على هذه الاحكام ، فضلا عما يلزم احيانا من تبديل بعض مقاطعه على ماتقدم بحيث يتنكر لفظه جملة ، ويعود كأنه ضرب من الارتجال ، وفي ذلك من التداخل والفساد مالايخفى " (٢) .

ويؤكد اليازجي على وجوب الامتناع عن تعريب الفعل ، لانه (اى الفعل) في العربية زيادة على ذلك اصل اكثر الالفاظ فيها ، لانها لغة اشتقاقية ، فمنها اكثر اسماء الذوات والصفات " بحيث انك لو اسقطت كل مشتق في العربية لم يبق من اللغة الا اقل من العشر ، وحينئذ فكل فعل ادخل من اللغات الاعجمية دخل معه بالضرورة المصدر ، واسم الفاعل ، واسم المفعول . والصفة المشبهة ، وصيغ المبالغة ، واسماء المكان والزمان ، واسم الالة ان كان مما يبنى منه ، فضلا عن المزيدات وتصاريفها ، فلزم ان يخالط اللغة بكل فعل اجنبي سلسلة طويلة من الالفاظ بين افعال واسماء فتنكرت اللغة وفسدت اوضاعها بكثرة الدخيل " (٣) .

وينتهي اليازجي الى التشدد في الامتناع عن ذلك فيقول :

" لايمكن ان يتسامح في الافعال بما يتسامح به في الاسماء " .

هذه هي الوسيلة الاولى للتغلب على اقتحام المصطلح على مجتمعنا ، تمثلت في الاشتقاق الذى تكيف بشروط عند علمائنا ، اما الوسائل التالية على الاشتقاق فهي النحت والترادف .

---

(١) نفس المصدر ، ص ٤٦

(٢) نفس المصدر ص ٤٧

(٣) نفس المصدر ص ٤٧

(٤) نفس المصدر ص ٤٧ .

ـ النحـــــــت :

رأى هؤلاء العلماء في النحت وجها اخر لحل القضية ، وصوغ الفاظ تسد سد الالفاظ العجميـة التي اضطررنا اليها .

وكيفما كان الامر " فان النحت طريقة حسنة تكثر بها مواد اللغة وتتسع اساليبها .. ولها نظير في اللغة اليونانية وسائر اللغات الافرنجية ، وهي التي كثرت مواد لغاتهم واحوجتنا الى الاخذ منها " (١) .

ويدلل الشدياق على ذلك بامثلة فيقول :

" فقولنا : الجغرافيا والفلسفة والجومتريا والجيولوجيا كلها الفاظ يونانيـة منحوتـة او مركـبة . ولولا هذا التركيب لما كان للغة اليونانية فضل على غيرهـا بشيء . وهي ان فضلت لغات الافرنج لاتفضل لغتنا لان الالفاظ البسيطة عندنا اكثر من المركبة . وهي افضل مالم تحوج الضرورة الى التركيب او النحت وحينئذ يعمـد اليـه " (٢) .

ـ اما الترادف : فيبنيه الشدياق مثلا على اساس النظرية الصوتية ، ولا باس عنده من ان ينحت عن الفاظ ترادف معانيها ذلك المعنى الذى اصطلح عليه الاجانب عندما اخترعوا هذه الصناعات الكثيرة والالات العجيبـة .

وهذا ماحدا بالشدياق ، الى محاولته بعث الفاظ عربية تقابل المصطلحات الاجنبية ، او اعتقد انها تقابلها . وماورد من مصطلحات في " الساق على الساق " وكشف المخبا عن فنون اوربا " لخير دليل على مانذهب اليـه .

هذه الوسائل من اشتقاق ونحت وترادف ، دفعت بعلمائنا الى وضع مصطلحات تعد بالمئات ، وهي ان لم يكتب لبعضها النجاح ، وكتب للبعض الاخر ، فستكون لبنة حجـر الزاوية لكل عمـل لغوى حديث يهدف الى وضع اللفظ او استحداثـه .

---

(١) منتخبات الجوائب ، الشدياق ، ص ٢٠٣ و ٢٠٤

(٢) = = = =

٣ـ نماذج عامة في التعريب ووضع المصطلحات

سنتناول في هذا المبحث ، نماذج من تعريب الكتاب المقدس ، ونماذج من الالفاظ المستحدثة في المخترعات واسماء الالات ، او مما احتاج اليه التداول الاجتماعي وفرضته المشاهدات والتأمـلات ٠

آ ـ تعريب الكتاب المقـدس :

حظي تعريب الكتاب المقدس ، في القرن الماضي باهتمام المبعوثين الاجانب ، اهتماما بلغ حد التنافس بين بعضهم بعضا ٠

وقد شهد القرن ، صدور طبعتين لنسخة الكتاب المقدس باللغة العربية ، طبعة المرسلين الاميركان ، وطبعة المرسلين اليسوعيين ٠

ـ الطبعة الاميركيـة (البروتستانتية : (١٨٦٠ ـ ١٨٦٤) ٠

قام بمهمة تعريبها ، المرسلون الاميركيون في بيروت ، وقد تألفت لجنة من العلماء جمعت خمسة اعلام ، هم المبشر عالي سميث (؟ ـ ١٨٥٧) والمستشرق كرنيلوس فانديك (١٨١٨ ـ ١٨٩٥) وثلاثة من العلماء اللبنانيين هم : الشيخ ناصيف اليازجي (١٨٠٠ ـ ١٨٧١) والمعلم بطرس البستاني (١٨١٩ ـ ١٨٨٣) والى حد ما الشيخ يوسف الاسير الحسيني (١٨١٧ ـ ١٨٨٩) ٠

"وقد كان اعتمادهم في التعريب (هذا) على النسخة العبرانية في الاكثـــر " ٠ (١) ٠

---

(١) انظر ، بروتوكولات حكماء صهيون ، عجاج نويهض المجلد الثاني ص ٢٧٩ ـ وما بعدها ٠

٠/٠

ـ الطبعة اليسوعية (اللاتينية) : (١٨٧٨ ـ ١٨٨٠) :

قام بمهمة تعريب هذه النسخة ، المرسلون اليسوعيون ، كمنافسة لعمل الاميركيين ومقاومة لنشاطهم في نشر المذهب البروتستانتي .

وقد تألفت لجنة من العلماء خاصة بهذا ، قوامها الاب روديت اليسوعي احد المستشرقين والمبشرين اللاتين ، والشيخ ابراهيم اليازجي (١٨٤٧ ـ ١٩٠٦) الذى اشتغل في تنقيح التوراة العربية اكثر من (٩) تسع سنوات .

وقد كان اعتماد اليسوعيين في تعريبهم على النسخ العبرانية واليونانية والسريانية والنسخة اللاتينية التي عليها معول الكنيسة الكاثوليكية " .

هذا ، وقد اورد العلامة عجاج نويهض في كتابه " بروتوكولات حكماء صهيون " معارضات من عبارات النسختين الاميركية البروتستانتية واليسوعية اللاتينية .

وهذه احدى نماذج الاستاذ نويهض ، نذكرها على سبيل التقابل بين العملين . (١)

الاميركية ـ البروتستانتية	اليسوعية ـ اللاتينية
(٨) هلمي معي من لبنان ياعروس معي من لبنان . انظرى من " رأس امانة " من رأس شنير وحرمون من خدور الاسود من جبل النمور .	(٨) هلمي معي من لبنان ايتها العروس معي من لبنان . انظرى من " رأس امانة " من " رأس سنير " وحرمون من مرابض الاسود من جبال النمور .
(٩) قد سبيت قلبي يا اختي العروس قد سبيت قلبي باحدى عينيك بقلادة واحدة من عنقك .	(٩) قد خلبت قلبي يا اختي العروس قد خلبت قلبي باحدى عينيك وقلادة من عنقك .
(١٠) ما احسن حبك يا اختي العروس .	(١٠) ما الطف حبك يا اختي العروس .

(١) بروتوكولات حكماء صهيون م/ ٢/ ص ٢٨٨ .

٠/٠

الاميركية — البروتستانتية	اليسوعية — اللاتينيـة
كم محبتك اطيب من الخمر وكم رائحة ادهانك اطيب من كـل الاطياب . (نشيد الانشاد ٤ : ٨—١٠)	ان حبك الذ من الخمر وعرق ادهانك فوق جميع الاطيـــاب . (نشيد الانشاد ٤ : ٨ — ١٠) (١) .

وهناك تعريب ثالث للكتاب المقدس ، قام به احمد فارس الشدياق (١٨٠٤ — ١٨٨٧) في لندن في منتصف القرن الماضي ، بطلب من " جمعية ترقية المعارف المسيحية) سنة ١٨٥١ ، وطبعت في لندن . لكن تعريب هذه النسخة لم يظهر حتى الان ، رغم انه " اسبق الجميع في الظهور لكن في بلاد الانكليز لا في بلاد العرب " . (٢) . ويتساءل عجاج نويهض مع الكثيرين من علماء العربية عن سر اختفاء هذه النسخة المخطوطة وغيرها من المخطوطات التي تتعلق بهذا الدرس الديني ، كمخطوط " المرآة في عكس التوراة " وهو سفر ضخم يقع في نحو ٧٠٠ صفحة (٣) قيل انه " افرغه في قالب بديع لم ينسج احد على منواله (٤) . ويذكر الاب شبلي ان الشدياق كان " قد شرع في انشائه على اثر ترجمة للتوراة في لندن .. واتمه في آخر مرحلة من حياته " (٥) .

ويحاول الاستاذ نويهض تبيان ذلك بقوله : " قد تكون اراء الفارياق في بعض المسائل الواردة في التوراة لا تتفق ورأى غيره من الناس . (وربما) كان يذهب في تفسير القضايا الدينية ، في المسيحية والاسلام مذهبا عقليا ، او " معتزليا " اذا جاز التعبير " (٦) .

نضيف الى هذا الاحتمال ، ترجيحا اخر هو ان تعريب الشدياق ، سار في جعل العبارة على نسق نغمي يشبه لحن العبارة في القرآن الكريم . ودليلنا على ذلك ماذكره الشدياق نفسه ، واورده مارون عبود ، عن مجادلته (اى الشدياق) مع المبشر والمستشرق الدكتور " لي " حول كيفية اختيار العبارة ، واهتمام " لي " بان

(١) المصدر السابق ، ص ٨٨ ، وما بعدها .
(٢) = = ص ٣٠٠
٣ ، ٤ ، ٥ : الشدياق واليازجي ، للاب انطونيوس شبلي ، ص ٥١
(٦) : بروتوكولات حكماء صهيون ، ص ٣٠٠ وما بعدها (بتصرف) .
./.

تكون بعيدة كل البعد عما يشبه نسق العبارة في القرآن الكريم او الحديث الشريـف ٠

وهذا شي " مما اورده مارون عبود في " صقر لبنان " نقلا عن الشدياق في " كشف المخبا " ، وكلما رأى جملة (اى الدكتور " لي ") تنتهي بالواو والنون والياء والنون ، قال انها مضاهئة لكلام القرآن فيبدلها ، حتى انه رأى هذه الجملة وهي : " وانتم على ذلك شهود " ، فقال : " ان هذا الوقف يشبه وقف القرآن ، فمن ثم بدلها بقوله : " وانت شهود على هذا ، ووجد عبارة اخرى وهي : " وما اولئك بعابرين من هناك الينا ، فقال : " هذا التركيب فصيح ، فبدلى عابرين ب " يعبرون " ولم اتعجب (اى الشدياق) من تغييره ، وانما تعجبت من انه شعر بحسن هذا الترتيب " (١) ٠

ب ـ تعريب الكتب العلميـة والادبية والفلسفة والتاريخية :

اتسعت دائرة التعريب ، باتساع النشاط التبشيرى في لبنان ، فقد تطور الاهتمام بالنقل من اللغات الاجنبية في منتصف القرن الماضي تطورا ملحوظا ، حيث قامت الارساليات الاجنبية وبعض مؤسساتها بتعريب بعض الاثار ونشر العديد مـن المخطوطـات ٠

ولعل اهم خطـوة قام بها مبشرو هذه الارساليات ، هو ما ادخلوه من العلوم الى البلاد ، وما اوجدوه من مصطلحات تقنيـة وفنية ٠ ونخص بالذكر ، من هذه الارساليات الكلية الاميركية في بيروت التي اشتغلت في نقل العلوم العصرية الطبيعية والطبية ٠٠ غير ان هذا حصل لفترة مابعد تأسسها واخذها التعليم باللغة العربية ، وهي فترة لاتتعدى العشر سنوات ٠٠ اما بعد ذلك فقد عاد التدريس الى الاخذ بالمصطلح الاجنبي واللغة الاجنبية ٠

وكان قد نقل الاساتذة في تلك الفترة لتلاميذهم عديدا من الكتب الـى اللغة العربيـة عن المؤلفين الاميركيين والانجليز ، وذلك في مدرسة " عبيه " بالذات ٠

---

(١) صقر لبنان ، مارون عبود ص ٩٤ ـ ٩٦ نقلا عن الشدياق في " كشف المخبا " ٠

٠/٠

ونذكر من هؤلاء الدكتور كرنيلوس فانديك (١٨١٨ — ١٨٩٥) الذى الف في موضوعات علميـة كثيرة ، كاعماله في الطب والرياضيات ، والفلك ، والطبيعيات ، والكيمياء والجغرافيا والتاريـخ . ثم الدكتور يوحنا ورتبات (توفي سنة ١٩٠٨) الذى الف في التشريح والفسيولوجيا ، كما قام بعمل مشترك مع الدكتور بورتر في اصدار معجمين انكليزى عربي وعربي انكليزى .

ثم الدكتور جورج بوسط (توفي سنة ١٩٠٩) الذى الف في الطب والتاريخ الطبيعي . وغير هؤلاء الاساتذة (المبشرين) .

هذا وقد نبغ من تلاميذ الكليـة الاميركية طبقة من العلماء اللبنانيين اشتغلوا بالعلوم الطبيعية وعربوا الكثير من الكتب ، لم يظهر منها الا القليل ، كتلك المصطلحات الطبية والتقنيـة التي قام بتعريبها الدكتور " بشارة زلزل في سنة ١٩٠٥) والذى ينسب له الكلمات :

— الاخ (للزلال)
— الامرط (لما ليس له ريش ، ولا زغب من الطير)
— الانسلاخ (لتحول الهوام من حالة الى حالة)
— الاشرع (للطويل الانف من القرود)
— البطريق (للسمين من الطير) .
الـخ ...

وغير ذلك من المصطلحات التي تسلطائفة اخرى من الكتاب ، كمجموعة الكلمات التي انشأها ابراهيم اليازجي ، نورد منها على سبيل المثال :

الأربـة مقابـل		Cravate
الذنبوبيات مقابل		Bacilles
الباخرة	=	Bateau à vapeur
البطاقة	=	Carte
البهـو	=	Salon

./.

البـؤرة	Foyer
الجـناح	Balcon
العدسية	Lentille
الرُدهـة	Salle

وغيرها من الكلمات الواردة في مظانهـا ٠

ووضع خليل اليازجي بُعيد ذلك الفاظا ، منها : الجواز ، والقفاز ، والنوط ، والصبحة (لطعام الصباح ، خاصة) والجديل (لسير اللجام) ، اذ اكان حبلا مجـدولا) ٠

كما وضع نجيب الحـداد : الصحافـة ٠ ووضع شاكر شقير : المنظرة ، والدكتور خليل سعادة : آداب السلوك ٠

اما أحمد فارس الشدياق فسنخصص له المبحث التالي ، لما له من فضل على التعريب ووضع الالفاظ ٠ قام هذا اللغوي بعمل جبار ، اتحف به المكتبة العربيـة بوافر من الكتب اللغوية ، والادبية المهمة ، التي انطوت على كثير من الالفاظ المستحدثة والمصطلحات الجديدة ٠ وقد وردت هذه الثروة اللفظية اكثر ماوردت في كتابه " كشف المخبا عن فنون اوربا " وقد عددنا منها مايزيد على المائتي مصطلح جديد ٠ كما حفل كتابه " الساق على الساق " وفرة من هذه الكلمات التي اخذت طابع الاحياء اللفظي في حين تميزت الفاظ " كشف المخبا " بطابع التجديد الوضعـي القائم على الاشتقاق او النحت او النقل الصوتي ٠ والذى حدا بالشدياق الى الاهتمام هذا ، كونه رحالة جاب بلادا كثيرة ، فقد عاش في مالطة حينا من الدهر ، استاذا للغة العربية في النصف الاول من القرن الماضي ، فرأى في هذه الجزيرة مظاهـر حضارة حديثة جاء بها الانكليز الذين استعمروهـا ٠

وكانت هذه المظاهر متصلة بالحياة السياسية والاجتماعية والثقافيـة وغيرها ، ثم انتقل في عام ١٨٤٨ ، الى بريطانيا ، مجتازا فرنسا ، واقام في الاولـى عشرين شهرا ، او اكثر ، وسكن الثانية مدة لم يحددها ٠

٠/٠

كل ذلك أسعفه في التعرف على الحياة العصرية ومنجزات الحضـارة الاوروبيـة ، فاندفع من غيرته على العربية ، يضع اللفظ العربي لكل ماتراه عينـه رافضا ان ينقل اللفظ بحرفيته ، لما تتمتع به لغته من طواعية على المعرفة وتقبل العلوم ، وقدرة على الاستيعاب • متوسلا لذلك :

- بعث الفاظ عربية تقابل المصطلحات الاجنبية ، او اعتقد انها تقابلها •
- طريقة التعريب ، واجراء الالفاظ المعربة على اوزان العربية ، اذا امكن والا فأبقاها على حالهـا •
- الترجمة الحرفية ، وقد عمد الى ايضاحها ليقينه انها ستكون مغلقة على القارىء •
- التعبير بجملة عن اللفظ حين الحاجة •
- استعمال الفاظ عامية (احيانا) درجت على الالسن والفها الناس •

وإنا نورد بعض هذه المصطلحات على سبيل المثال لا الحصر ، مختتمين بذلك هذا الفصل :

- البَـدَل (١) • داء المفاصل مقابل rhumatisme
- فلانلة • وقد سماها غلائل الصوف مقابل flanelle
- كشك (١) وقد سماها روشن مقابل kiosque وهي كلمة عامية يراد منها المأوى الذى يقام على ضفاف الأنهر ، أو في الحدائق ، من اعمدة خشبية ومن اوراق الشجـر •
- الكرنيفـال (٣) : هكذا باليا مقابل Carnaval
- الملهى : مقابل Théatre • قال : الملهى وهو المسمى عندهم بلفظة "التياطر" او "التياطـرو" •

---

(١) انظر "الواسطة في معرفة احوال مالطة •
كشف المخبا عن فنون اوروبا ص ١٤ •
(٢) = = ص ١٨ •
(٣) = = ص ٢١ •

- البدال [1] اطلقها على بائع الاطعمة . صحح فيها ماجاء في القاموس من ان بيّاع الاطعمة هو البقال .
- مدرسة جامعة [2] : مقابل Université
- المشائخ ج شيخ [3] مقابل Professeur واستعملت في ص ١٢٥ لفظي المعلم والاستاذ .
- دار كتب [4] مقابل Bibliothèque
- برنيطة (٥) مقابل Chapeau ولم يستعمل قبعة .
- بارون [6] مقابل Baron وهكذا مركيز Marquis ودكطور ودكطر Doctor ص ٤١ . وجعل مؤنث دكطور دكطرية ص ١٧٥ .
- بوسطة المكاتيب : مقابل Poste ص ٤٥ ورد في ص ١٤٤ لفظ : البريد .
- مستوفي الاموال مقابل Percepteur ص ٤٥
- ناظر الجمرك مقابل Douanier =
- كبير القضاة : Juge suprême =
- الجعة " مقابل La bière ص ٤٦
- حافلة المجد Diligence ص ٧٠ بمعنى عربة سفر
- قبوة : مقابل Tunelle قال : دخل الرتل - اى القطار - في قبوة مظلمة منقورة في الصخور فسار فيها نحو عشر دقائق ..
- دوائي : مقابل Pharmacien ص ٧٤ واسماه : عقاقيرى ص ٢٢٨ وسماه صيدلي ص ٣٧٢
- ميزان الهواء ، مقابل Baromètre ص ٩١ .
- ابرة المغنطيس : مقابل Boussole ص ٩١ .
- الرتل : Train ص ١٠٠
- مزجية : Locomotive ص ١٠١ قال : وهي الالة التي يقال لها انجن (بالانكليزية (Engine) .

---

(١) نفس المصدر ، ص ٢٥ ، (٢) ص ٢٥ ، (٣) ص ٢٦ ، (٤) ص ٢٦
(٥) ص ٣١ ، (٦) ص ٤١ .

./.

ـ كواعد مالية مقابل monnaie en papier ص١٠٣ يعني بها الاوراق المالية ٠

ـ الظلل ج ظلة : مقابل Parasol ص١٠٧ ، للاتقاء من الشمس٠

ـ الملاكمة مقابل Boxe ص١٢٠

ـ المسايفة مقابل escrime ص١٢٠

ـ الفقـه Droit ص١٢٧ وهي اليوم : حق ٠

ـ الشرع : مقابل Loi ص١٣٨ وهي اليوم القانون ٠

ـ المناصع : مقابل Pissoires publique-urinoires قال (ص٢٧٣) : هي المواضع التي يتخلى فيها الانسان للبول او لقضاء الحاجة " ٠

ـ نجـي مقابل Secrétaire

ـ قاعة البلد مقابل Hotel de ville يعني بها دار البلدية ص٢٠٠ ٠

ـ عيبة ج عياب مقابل valise ص٢١٦

ـ الازج آزاج او القنطرة : مقابل arc ص٢٢٥

ـ المنطاد مقابل ballon ص٢٧٧ ٠

وكثير غيرها من الالفاظ الوفيرة التي جاءت في ثنايا هذا الكتاب ، هذا عدا عن عشرات الالفاظ التي وردت في الساق على الساق ٠ يتضيق عن ذكرها المجال ٠

الفصل الخامس

النقد المعجمي عند لغويي
القرن التاسع عشر
في لبنان

المحنا في الفصل السابق الى ان الدرس المعجمي ، عند علمائنا اللبنانيين في القرن الماضي ، لم ينفصل عن الدرس اللغوي . وانتهينا الى القول ان اسباب مشاكل المعجم العربي - كما رآها هؤلاء - تنحصر باربع قضايا هي على التوالي :

- الجمود الذى ساد المعجم القديم
- سوء الترتيب
- قصور الشرح
- الابهام والغموض في التعريف .

كما اشرنا في حينه الى وقفة الشدياق التي نحت بالعمل المعجمي ، منحى جديدا جعلته في مأمن من العثار او التخلف . وذلك بنقده لمعاجم القدامى ، بدءا بمعجم القاموس المحيط للفيروزابادى ، وختاما بقاموس محيط المحيط لمعاصره بطرس البستاني .

هذا ، وقد ظهر في القرن ، نقود معجمية اخرى ، الى جانب اعمال الشدياق الكبيرة .

تبدأ بعمل رشيد دحداح في تصحيحه وتنقيحه لمعجم المطران جرمانوس فرحات " احكام باب الاعراب عن لغة الاعراب " واشرافه مع اخيه سمعان الدحداح على طبعه في مطبعة باراس وسافوريني في مرسيلية سنة ١٨٤٩ م .

اما العمل الثاني ، فهو كما اسلفنا ، للعلامة احمد فارس الشدياق في معجمه الانتقادى " الجاسوس على القاموس " الذى سنفرد له بحثا خاصا .

ويتلو هذا العمل الكبير مبحثا نقديا للمعلم سعيد الشرتوني ، اورده في نهاية ذيل معجمه " اقرب الموارد " بين فيه كثيرا من الاغلاط التي وقعت في القاموس المحيط .

/٠ .

كما ، لم يخل الامر من بعض المقالات النقدية كتلك التي فتجت عن المناقشة بين الشدياق وابراهيم اليازجي — وما كان منها داخلا بسبب او بآخر في مبحثنا هذا ، سيما بعد ان انتقد اليازجي معجم سر الليالي للشدياق .

وعلى هذا ، يمكننا ان نرتب هذه النقود حسب تدرجها التاريخي ، مبتدئين بنقد الدحداح ، فالشدياق فالشرتوني .

١ — النقد المعجمي عند رشيد الدحداح : (١)

لما كان الدحداح يرى ان اللغة مادة العلوم ، ولما كان بالتالي ، لابد من طبع كتاب جامع لشمل نوادر العربية ، متحل بلطائف حركات تجعلها قريبة المتناول " لتكون قواما لاساطين الكتاب . ومسرود/نوادر تكتحل باشراقة عيون الالباب ، وقواما لجثمان قرائح اولي الذوق السليم ، فقد استوجب ذلك جمع كتب لغوية كثيرة تكون مادة بحثه ، واصول منهجه الذي يريد ، ويبدو ان الدحداح لم ير كتابا يعول عليه ، لكنه يقول في مقدمة الكتاب انه رأى " اجل ما الف في اللغة من كتاب : القاموس المحيط ومختصره باب الاعراب عن لغة الاعراب " (٢) .

بيد ان الدحداح ينتقد صاحب القاموس (الفيروزابادي) حيث قال : " انه كان الف في اللغة كتابا ستين سفرا وسماه باللامع المعلم العجاب ، الجامع بين المحكم والعباب . وانه لما اعجز الطلاب تحصيله ، وفات المراجعين تفصيله ، سئل تقديم كتاب وجيز فاختصر منه كتابا محذوف الشواهد ، مطروح الزوائد وسماه بالقاموس المحيط " . (٣) .

---

(١) رشيد الدحداح : ١٨٢٨ — ١٩٠٩ م / ١٢٤٤ — ١٣٢٧ هـ

(٢) و (٣) : انظر مقدمة احكام باب الاعراب للدحداح ص ٢ .

./.

ويرى الدحداح ، انه كان من الاولى للفيروزابادى ان يقول : " بعض الزوائد لانه لم يزل يحوى منها جما غفيرا " (١) .

كما ينتقده في اهماله عن ذكر كلام كثير ، تداولته السنة العلماء ، واودعته بطون كتبهم " فتعرض لذكرها شارحوه . وعاب عليه اهمالها متصفحوه (٢) مما جعل بالمطالع لا يجد فيه الا الكلل والملل قبل ان ينال بغيته منه .

وهذا ماحدا بالدحداح الى ان يضمن كتاب " باب الاعراب " هذا ، شروحات فيها عدة فوائد ، عثر عليها " لدى المطالعة " . وقد قدم بالفصل " نبذة تعلن بعض ماذكره مما لا يختص بكتب اللغة وطلابها ، وبعض ما اهمله وهو من اخص مايلزم لاربابها " . (٣) .

والحقيقة ان الدحداح لا يريد انتقاد الفيروز ابادى وانما هدف الى تصحيح ماجاء من اغلاط وتحريف وتصحيف وقصور في معجمه " باب الاعراب " للمطران جرمانوس فرحات ، الذى لخص فيه القاموس المحيط .

ويعرف الدحداح بهذا الكتاب وبغرض صاحبه منه فيقول : " انه لما كان دبدنه (اى المطران فرحات) اكساب الفوائد للناس . . ورأى عدم شمول نفع القاموس للخاص والعام . اشهد لنا صافي شهداته ، وزيد خلاصة زبدته وبمختصر سماه باب الاعراب عن لغة الاعراب ، وآثر فيه الايجاز على الاطناب ، واحسن ترتيبه " (٣) .

ويرى الدحداح ان المطران قد تعمد ترك كل مالم يره كثير النقل والتداول رغبة في تصغير الحجم وتسهيل النسخ والتناول . واكتفى ببعض معاني الفعل

---

(١) و (٢) : انظر مقدمة احكام باب الاعراب للدحداح . ص ٢ .

(٣) : انظر مقدمة باب الاعراب . ص ٣ .

. / .

وتعدياته وببعض الجموع والمصادر والاسماء عن بعض . وكان ابي المطران قد اعتمد في عمله هذا على " نسخة من القاموس محرفة ذات اغلاط " .

لذا ، قام الدحداح بمقابلة خمس نسخ من باب الاعراب مع نسخة اختارها من القاموس ، محكمة الضبط ، " وهي المطبوعة في الهند " ، واخذ يراجع كلمة فكلمة ، ملاحظا كيفية تصرف المختصر ، ملتقطا ماتركه ، مصلحا مايتخيل انه ابهم عليه لعدم صحة النسخة التي نقل عنها ، ثم يعود الى باقي الكتب واحدا واحدا ليجتني منها مايجده مهملا من القاموس ، وليحل كل شيء محله " (١) .

هذا ، وقد ظل الدحداح متتبعا اثر المؤلف " فرحات " في النص على بعض الحركات واستعمال الاحرف التي استعملها علامات لوزن الفعل الثلاثي ولكلمة "معروف" وكلمة " جمع " لكنه زاد " جج " علامة لجمع الجمع " لانه حباه الله قد كان ادرجه بجملة الجمع مرة وتركه اخرى " . كما جعل اضافاته بين قوسين .

اضف الى ذلك ، ان الدحداح ، صرف وقتا طويلا في المطالعات حتى جمع المواد التي كانت متروكة منه بتمامها ، واكمل لكل فعل مصادره وانواع معانيه وتعدياته واسماءه ، ولكل اسم فعله وانواع جموعه قياسية كانت او غير قياسية لاسيما جمع التكسير الذي اكثره سماعي ولا سبيل الى معرفته الا من كتاب اللغة .

كما نبه على المتضاد وعلى الشواذ من الجموع وغيرها ، وعلى المذكر والمؤنث وعلى مايحتمل الوجهين ، وعلى الكلمات الاجنبيات انها معربة .

كما ذكر جملة من امثال العرب الذائعة بين العلماء ، ومن اسماء مشاهيرهم المعروفين بمدح او ذم ، واشكل بالحركات كل كلمة يمكن ابهامها او التباسها . دون ان يؤدي به ذلك الى التعرض لتغيير شيء من الاصل الا مالاح له انه غير صحيح . وذلك ببعض عبارات وكلمات واحرف وحركات .

ويوضح الدحداح ، بتواضع كبير ، " ان ماصححه وغيّره عما كان عليه ان هو الا نقل عما تعب فيه المطران جرمانوس فرحات ، مقتصرا عمله على التدقيق في المقابلة .

---

(١) نفس المصدر السابق ص ٣ .

./.

وهذه بعض نقود رشيد الدحداح على كتاب باب الاعراب • وتصحيحه لما جاء فيه من توهم او غلط او تصحيف او خلل في اوزان الفعل وغير ذلك مما سيأتي ذكره • نوردها بشكل يجمع بين صورة المادة في القاموس المحيط وباب الاعراب عند المطران •

١ ـ ماجاء من تصحيف واستوهم عليه من النسخة التي نقل عنها :

أ ـ عبارة الفيروزابادي	ب ـ عبارة جرمانوس فرحات	جـ ـ تعليق الدحداح وتصويبه •
ـ خَلَب عقله سلبه اياه	وخلب عقله ملكه بوعظه	يقول الدحداح وذلك لانه صاحب القاموس قال سلبه اياه وعضه فتصحف عليه العض بالوعظ •
ـ الطبخ الانضاج استواء واقتدارا	الطبخ الانضاج والاستواء	مع ان الاستواء الاستقامة والاعتدال ، لا كما تستعمله العامة بمعنى النضج •
ـ وذو القَعدة شهر كانوا يقعدون فيه عن الاسفار ج ذوات القعدة •	قال المطران : " وذو القعدة شهر كانون	
ـ الجمهور جُلّ الناس	اجلاء الناس • (١)	

٢ ـ ماجاء من تغييرات دقيقة :

ـ الغِرار القليل من النوم (وغيره)	فقال المطران : والغرار النوم القليل
ـ والوجه المُلوّز المليح	= = والمُلوّز بالضم وفتح المشدد الوجه المليح
ـ وصَدَع بالحق تكلم به	= = وصدع تكلم بالحق (٢) •

(١) و (٢) : انظر نفس المصدر ص ٦ •

• /•

٣ ـ ماتعمد استعماله بخلاف ما استعملته اهل اللغة فارجعه الدحداح الى اصله :

آ ـ عبارة الفيروزابادى	ب ـ عبارة المطـران
ـ رَهَبوت خيرٌ من رَحموت اى لان تُرهَبَ خير من ان ترحم	فقال المطران ، ورهبوت خير من رحموت اى الرهبنة خير من الرحمة (١) .
ـ وانتدب الله لمن خرج في سبيله تكفل به وغفر له وسارع بثوابه .	... وانتدب الله الراهب تكفل بـه .
ـ الكفّارة ماكفّر به عن الاثام من صيام و (صلاة) وصدقة ونحوهم .	قال المطران : والكفارة مشددة مايضعه الكاهن على المعترف من صيام وصلاة وصدقة تفي عن آثامـه .

ويعلق الدحداح فيقول : " فالعرب ماخصصوا هذه الكلمة لامر الكاهن ، فلا يسوغ لنا اذا تخصيصها ولا داع لذلك فهي تعم مايكون بامر الكاهن او بدونه .

ـ ومن الناس من يعبد الله على حرف اى على وجه واحد وهو ان يعبده على السراء لا الضراء الـخ ..	فقال المطران : وهذا راهب يعبد اللـه على حرف اى على حال واحدة في السراء والضراء (٢) .

٤ ـ مانص فيه على حركات بعض الكلمات بخلاف الصواب لالتباس قياسها عليه :

يقول الدحداح في هذا النقـد :

" لا يخفى ان صاحب القاموس يستعمل غالبا القياس والتشبيه عوض النص على الحركـات .

---

(١) نفس المصدر ، ص ١٠

(٢) نفس المصدر ص ١١ .

" مثلا ، لو شاء ان يعبر عن حركات : مَعصِر ومَعصَر • قال كمَحسِن ومَبرَعوش قوله : بضم الميم وكسر القاف او بكسر الميم وفتح القاف • فلوزن " فعال " جعل لفظة " كتان " قياسا •

ويتابع الدحداح قوله :

" وكأن المؤلف اى جرمانوس فرحات) كان يعتقد كسر كاف (الكتان) ، فاذا كل كلمة قيست عليه نص عليها بالكسر وفتح المشدد • فمن ذلك : الكذاب والنباح — الطراد — النجاد — الخ ••

" واما الوضاح والصراخ •• فنص عليهم بالضم وفتح المشدد •

" والمحاح والسوار والفسان • نص عليهم بالكسر فقط •

" والنساج والقداح والطساس والنقاش •• نص عليهم بالشد فقط ، ويعلق الدحداح على هذا بقوله : " مع ان صاحب القاموس قاس الجميع على " كتان " (١) •

٥ — ذكر بعض ما اختصره الدحداح مما لا يختص بكتب اللغة :

حذف الدحداح في هذا المبحث كثيرا مما تناوله المطران في مواده ، وكان داخلا في اصول الشريعة او الطقوس المسيحية •

كتعليقه على ماورد في مادة رح م مثلا " في رح م حذفت ما شرحه (اى المطران) عن الرحمة الروحية والرحمة الجسدية لكونه سمى كتابه " باب الاعراب عن لغة الاعراب ، لا كتاب التعليم المسيحي (٢) •

ومثله ماجاء في " الغفران " وهو مسامحة العذاب الواجب من اجل الخطيئة المعقولة وتركت (اى الدحداح) التطويل الذى كان هنا لانه ليس هذا محله " (٣) •

---

(١) انظر نفس المصدر ص ١١

(٢) = = = — ١٠

(٣) = = = = ص ١٠ •

٠/٠

" وقوله حذفت ماذكره عن اختلاف اسم " قارون " باللغة الرومية ، اذ لافائدة في ذلك " والكلام هنا على العربية لا على غيرها ٠

٦ — ما انتقده فيه على خطأ القياس :

آ — مما يقاس من المجموع على " قرادة " ونص عليه بالتحريك :

وخلدة من ديكة ٠٠ ونص على قراصة وقططة بالفتح ٠
ويعلق الدحداح بقوله : مع ان صاحب القاموس قاسها على قرادة ايضا (١) ٠

ب — ومما يقاس على " زنبور " ونص عليه بالفتح وضم ماقبل الواو :

— المنقود ، الزحلوقة ، الخرطوم ، الزلقوم ٠٠

ج — ومما يقاس على " سكيت " و " قنديل " ونص عليه بالفتح :

— الحديث ، القسيسة ، الاشبين ٠٠٠

د — ومما يقاس على " مسكن " ونص عليه بكسر العين لحكمه بان كاف " المسكن " مكسورة ، مع ان كسرها شذوذ وقياسها الفتح :

— المفتح ، المطبخ ، المعشر (٢) ٠

هـ — مانص عليه بالفتح من مصدر واسم الثلاثي وحقه بالضم :

النشور ، الكزوزة ، الطموس ، القسوسة ٠٠٠

و — مانص عليه بالفتح من اسماء الحرف التي حقها بالكسر :

الخبازة ، الخياطة ، البزازة ، الخرازة ٠٠٠
هذا وقد جعل " الجبارة " بالضم مع انه — كما يقول الدحداح — كسر النقاشة ، والخراطة والشاطة والطباعة ٠٠ ولم يذكر للنساجة والقداحة والنبالة حركة ما ٠

(١) و (٢) : نفس المصدر — ص ١٢ ٠

٠/٠

ز - مانص عليه بالفتح من وزن فعالة المضموم :

- الحثامة ، القلامة ، الفكاهة .

ح - مانص عليه بالفتح من المصادر والاسماء التي هي على وزن فعال المكسور :

- العواس ، الشقاق ، الثقالة ، الحكاية .

ط - مانص عليه بالفتح من المجموع التي حقها الكسر :

- العنز - عناز . المحض - محاض . القط - قطاط . الضعف - ضعاف (١)

ى - مانص عليه بالفتح من وزن مفعال المكسور :

- المنظار ، المنخار ، المخلاف ، المعناق .

ك - ذكر بعض كلمات مختلفة الحركات ونص على جميعها بالفتح :

- السنور - الاوز - الحجاز - العكاز - خراسان .
- ضعف ضعفا وضعفا وضعافة وضعافة . فقال (اى المطران) بفتحهن
ومثله قوله ج ضعاف وضعفاء وضعفة وضعفى بفتحهن .

٧ - ما انتقده عليه في مساواته الجائز (عند الفيروز ابادى) بالكثير وبالافصح :

مثال : الصلد ويكسر . فقال المطران : الصلد بالفتح والكسر .

- القميص ويؤنث . فقال المطران يذكر ويؤنث

- الام وقد تكسر فقال المطران الام بالضم والكسر .

- القفا وقد يمد = = بالقصر والمد .

---

(١) نفس المصدر ص ١٣ .

./.

٨ ـ بعض مانقله الدحداح الى محلـه : (١)

مثال : صراه ـ يصريه ، وما بعدها . كانت في باب الواو ، فنقلها الى باب الياء . وهكذا : الصميان ، وصمى يصمي الى آخره .. نقلها من باب الواو الى باب الياء .

ـ الطخاء وما بعدها ايضا ، كانت في باب الواو فنقلها الى باب الياء ووضع الطخوة بمحلها في باب الواو .

هـذا ، وقد ورد نقود اخرى في الكتاب ، اذا رتبت بشكل مجرد ، بالاضافـة الى مختصـر المطران لقاموس المحيـط ، فانها تشكل مادة معجمية جديرة بالاهتمام والرعايـة .

ويستدل من كل ماتقـدم ، ان رشيد الدحداح ، في عمله هذا ، قام بعمل كبير استهدف من خلالـه ضبط بنيـة الكلمة ، ووزان الافعال ، وتصحيح العبارة ، ورد المحذوف ان كان مفيـدا ، ومقابلـة الكلمات المزيدة بالنسخة الاصلية ، وحذف ما زاده المطران من طقوس مسيحية . كما صحح ماجاء مقيدا فاطلق ، او ما اطلق فقيد ، وغير ذلك من المباحـث ..

٢ ـ النقد المعجمي عند احمد فارس الشدياق :

ثمة علاقـة مشتركة في كل مباحث النقد المعجمي عند لغوييننا في القرن الماضي هذه العلاقـة كثيرا ماجعلت نقودهم تصدر عن مورد واحد ، او انها استهدفت معجما بعينه ، دون غيره . نعني بهذا القاموس المحيط لمجد الدين الفيروزابادي . فلقد دارت اعمالهم حوله ، وتناولوه بالكثير من نقـد حتى صار قاسما مشتركا لكل ماجاء من دراسات معجمية رأيناها في " محيط المحيط " للبستاني واقرب الموارد للشرتوني .

---

(١) راجع نفس المصـدر صفحـة ١٤ .

ويحدثنا الشدياق عن اهتمام الناس — يومها — بهذا الكتاب ، وهو مادفع به الى مطالعته ، والتأمل في مادته . لكن الشدياق ، بعد المراجعة ، والتدقيق ومقابلة الكتاب بمعاجم اخرى ، خلص الى نقد عام حدد فيه موقفه للغوى من المعجم العربي عامة ، والقاموس المحيط خاصة .

وقد ضمّن نقوده هذه في كتاب سماه " الجاسوس على القاموس " بين فيه مناحي القصور والابهام او الايجاز والايهام وسوء ترتيب الافعال ومشتقاتها في هذه المعاجم القديمة .

كما شرح الاسباب الرئيسية التي حملته على تأليف كتابه هذا بقوله :

" فاني لما رأيت في تعاريف القاموس للامام القاضي مجد الدين الفيروزابادى قصورا وابهاما وايجازا وايهاما ، وترتيب الافعال ومشتقاتها فيه محوج الى تعب في المراجعة ، ونصب في المطالعة . والناس راغبون منه ، راضون عنه ، احببت ان ابين في هذا الكتاب من الاسباب مايحض اهل العربية في عصرنا هذا على تأليف كتاب في اللغة يكون سهل الترتيب واضح التعاريف . شاملا للالفاظ التي استعملها الادباء والكتاب وكل من اشتهر بالتأليف ، سهل المجتنى وافي الفوائد ، بيّن العبارة ، وافي المقاصد " .

ويرى المؤلف في موضع اخر ان الحاجة ، باتت ماسة ، الى زيادة تفصيل لمفردات اللغة ومركباتها ، وتبيين لاصولها من متفرعاتها ، وافراز لافعالها من مشتقاتها . وهو امر لا يتأتى — حسب رأيه — الا " باظهار ماني القاموس من القصور والخلل بنوع لا يحمل القارىء على الملل ، ولا يقنطه من تحصيل فوائد اللغة التي هي خير محصل . غير قاصد بذلك التنديد بالمعايب او التمديد للمثالب " (١) .

ويعتبر الشدياق ، بشكل جازم ان المؤلفين الاولين الفوا وبرعوا ، واجادوا ، وصنّفوا ونفعوا وافادوا ، غير انهم الفوا كتبهم على حسب افهامهم واذهانهم ، وافهام اهل زمانهم ، فاختصروا واوجزوا واشاروا ورمزوا .

ويحدد الشدياق موقفه من صاحب القاموس بالذات فيقول :

---

(١) الجاسوس على القاموس ، الشدياق ، من المقدمة ص ٢ — ٣ .

٠/٠

" اني رأيت جميع كتب اللغة مشوشة الترتيب كثر ذلك او قل . وخصوصا كتاب القاموس الذى عليه اليوم المعول ، فان مؤلفه ، رحمه الله ، التزم فيه بالايجاز ، حتى جعله ضربا من الالغاز " (١) . ويبين المؤلف طريقته في النقد بقوله :

" لكني التزمت القصد ، فيما اوجهه عليه من النقد ، بل ارد عنه اعتراض المحشي والشارح حين اجد مجالا للرد ، فاني لست ممن يبخسون الناس اشياءهم ، او يتعامون عن احسانهم فلا يرون الا اسواءهم " (٢) .

هذا ، وقد وزع المؤلف نقوده في الكتاب على اربعة وعشرين نقدا ، حصرناها في ثلاثة اتجاهات :

١ ـ خطأ التوهم
٢ ـ قصور العبارة ، او غموضها في التعريف .
٣ ـ سوء الترتيب .

١ ـ خطأ التوهم :

تناول الشدياق في هذا المبحث كلا من الغلط والتوهم الواردين في قاموس الفيروزابادى ، وما جاء عن طريق المقابلة ، في غيره من المعاجم القديمة ، منتقدا على التحديد ،

٢ ـ فيما قيده صاحب القاموس في التعاريف وهو مطلق ، كقوله : بكرات الناقة قل لبنها . ويرى الشدياق ان كلام المؤلف " يوهم ان ذلك لايقال الا لاناث الابل وليس كذلك ، ففي الصحاح والعباب بكرات الناقة والشاة " (٣) .. وهكذا ، التأتأة مشي الطفل ، فظاهره ان لايقال لمشي غير الادمي من صغار الحيوان وليس كذلك ، ففي العباب اكثر مايقال في التيس " (٤) .

---

(١) و (٢) : نفس المصدر السابق . ص ٦
(٣) و (٤) : الجاسوس ، الشدياق ، ص ٢٧٠ .

./.

ب — فيما اهمل وضع الاشارة اليه ، واخطأ موضع ايراده . وكان من عادة صاحب القاموس ان يضع قبل المعتل الاخر واوا او ياء لكنه — كما يقول الشدياق — " ذهل عن مراعاة ذلك في بعض المواد . اذ لم يضع قبل مادة بنى واوا ولا ياء ، وكذلك التأى بمعنى الافساد . لم يضع قبلها شيئا " (١) .

ج — في خلطه الفصيح بالضعيف والراجح بالمرجوح وعدوله عن المشهور :
يرى الشدياق ان هذا النوع من الغلط اكثر من ان يحصر . وقد نقل هنا شيئا من نقد الامام المنادى في حرف الهمزة مانصه :
" جفأ البرمة في القصعة كفأها . والوادى والقدر رميا بالجفاء اى الزبد كاجفأ . لكنه ضعيف قليل كما يشير اليه قول الصحاح وغيره واجفأت لغة فيه . وبعده وجفأ الباب اغلقه كاجفأه . اجفأت الباب لغة في جفأته واجفأت القدر لغة ضعيفة في جفأتها وبه يعرف مافي كلام المؤلف من الاجمال والابهام وخلط الصحيح الفصيح بالضعيف المرجوح من غير تمييز " (٢) .

د — فيما وهم فيه لخروجه عن اللغة ، " كقوله الصومعة كجوهرة بيت للنصارى وهي مختصة للراهب " (٣) . وقوله السقلب جيل من الناس وهو سقلبي ج سقالبة ثم قال في فصل الصاد الصقلاب بالكسر الاكول والابيض والاحمر والشديد من الروس ومن الجمال الشديد الاكل والصقالبة جيل تتاخم بلادهم بلاد الخزر بين بلغر وقسطنطينية ويقارن الشدياق هذا التعريف بعبارة العباب حيث ورد ان الصقالبة جيل حمر الالوان صهب الشعور يتاخمون الخزر وبعض جبال الروم ...

وهنا يورد الشدياق تعليقا من عدة اوجه :

---

(١) الجاسوس ، الشدياق ص ٢٨٦ — ٢٨٧ .
(٢) الجاسوس الشدياق ، ص ٣٢١ .
(٣) ، = = ص ٤٠٠ .

./.

" ان المصنف ذكر اولا الصقالبة بالسين ثم اعاد ذكرهم بالصاد وهم جيل واحد والاشهر بالصاد . فلو قال الصقالبة الصقالبة او بالعكس لكفى .

انه لم يقل ان هذا اللفظ معرب .

ـ انه عرّف بلغر انها مدينة الصقالبة وهو تناقض لانه قال ان بلاد الصقالبة تتاخم الخزر . ومعلوم ان الخزر في نواحي الاهواز بين فارس وواسط والبصرة وجبال الكور المجاورة لاصبهان .. على ان بلغر ليست مدينة بل مملكة .. الخ ..

هـ ـ في خطأ صاحب القاموس وتحريفه وتصحيفه ومخالفته لائمة اللغة ، كقوله في مادة فتأ " في فتأ ما فتأ مثلثة التاء مازال كما افتأ . "

ويرى الشدياق ان عبارة الجشي الكسر هو المشهور الذى عليه الجمهور ، ولم يذكر اكثر النحويين غيره والفتح قريب منه نقله الجوهرى عن ابي زيد وذكره كثير من النحويين كابن مالك وابي حيان وغير واحد .. واما بالضم فلا يعرف لاحد من النحويين ، وانما وجد في بعض الدواوين اللغوية واستبعدوه وانكروه وهو جدير بالانكار ، فانه غريب لم يذكره احد من مشاهير اللغويين ولا قاله احد من النحويين (١) .

و ـ في غلط صاحب القاموس ، في تذكير المؤنث وتأنيث المذكر خاصة كقوله في زعبل : " الزعبل كجعفر ـ ضـ لم ينجع فيه الغذاء فعظم بطنه ودق عنقه " وينقل الشدياق تصحيح الشارح " ودقت عنقه " .

وهكذا شمل الشمال فهو عند الفيروزابادى شيء كمخلاة يغطى به ضرع الشاة اذا ثقلت ، ويرى الشارح تصحيح العبارة بـ " اذا ثقل " اى الضرع " (٢) .

وفي " نضا النضى كغنى كسهم بلا نصل ولا ريش . ومن الرمح مافوق المقبض من صدره والعنق او اعلاه او عظمه ، يقول الشدياق : " صوابه او اعلاها او عظمها " (٣) .

---

(١) نفس المصدر ص ٤٠٩ .

(٢) و (٣) نفس المصدر ص ٥١٧ .

./.

٢ ـ قصـور العبارة او غموضها في التعريف :

اندرج تحت هذا القسم كل من النقود الخاصة في ابهام تعاريف صاحب القاموس والتباسها او ماجاء في عبارته من قصور وعجمة وتناقض مع تبيان للمناحي التي قصر فيها المصنف عن الجوهري . وما اهمل الاشارة اليه ، واخطأ موضع ايراده . ثم مادخل في غفوله عن الاضداد ، وما كان من اضطرابه في مسائل القلب والابدال .

آ ـ ويذكر الشدياق امثلة عما نقله صاحب القاموس عن العباب والمحكم فابهمه ، ورواه فاعجمه . كقوله في مادة كلأ ، " والكلأ كجبل العشب رطبه ويابسه : (١) . " وعبارة الصحاح : الكلأ العشب وقد كلئت الارض واكلأت فهي ارض مكلئة وكلئة اي ذات كلأ ، وسواء رطبه ويابسه " (٢) . ويعلق الشدياق على هذه العبارة بقوله : " فالضمير في رطبه ويابسه يرجع الى الكلأ لا الى العشب ، لان العشب هو الكلأ الرطب وبه صرح المصنف في تعريفه في مادته ومثله في الصحاح والمصباح " (٣) .

ب ـ كما انتقد الشدياق : خلل القاموس المحيط في ابهام المصادر ، فكثيرا ما يستغني مصنفه عن ذكر الفعل بذكر المصدر او اسم الفاعل والمفعول او اسم المكان وكثيرا ما يذكر المصدر ويعطف عليه اسماء جامدة ، مما يجعل المطالع لا يطيق التمييز بينها ، فيظن ان المصدر اسم والاسم لا يستلزم ان يكون له فعل بخلاف المصدر .

ويرى الشدياق ، انه كان اولى بالمؤلف " ان يعبر بالفعل لانه لا يلتبس بصيغة اخرى وهو الذي يعبر به ائمة اللغة غالبا ، (٤) لكن المؤلف خالفهم في ذلك كما خالفهم في تعريف الالفاظ .

ومما اورده الشدياق في باب الباء من المصادر الملتبسة بالاسماء الجامدة ، " على غير معارس اللغة " ثغب " كثير ولا سيما على وزن فعللة . فمن ذلك قول المؤلف في ثغب " الثغب الطعن والذبح واكثر مابقي من الماء في بطن الوادي والثغب محركة .

---

١ ، ٢ ، ٣ ـ الجاسوس ، ص ٥٤ ـ ٥٥ .

(٤) :: الجاسوس ، ص ١٨٨ .

./.

وهكذا في قوله " الشذب بالضم العطاء والجزاء " . " ولو ذكره بالفتح لقربه من الدلالة على الفعل " . " وعندى (اى الشدياق) انه بالضم والفتح ، فانه لغة في الشكم كما اشار اليه الشارح فهو بالفتح مصدر ، وبالضم اسم وعبارته في شكم الشكم بالضم الجزاء ، والعطاء وقد شكمه شكما بالفتح واشكمه " (١) .

جـ — ومما جاء في قصور الوضع عند المؤلف ، وذكره الشدياق ، قوله : الزفت المل والغيظ والطرد والسوق والدفع والمنع والارهاق والاتعاب ، الى ان قال وزفت الحديث في اذنه افرغه . يعلق الشدياق على العبارة الاخيرة بقوله : " فقصره الفعل على معنى الافراغ يوهم ان المعاني الاولى لا فعل لها ، فكان عليه ان يقول زفت الاناء ملأه وفلانا غاظه وطرده ودفعه ومنعه وارهقه والحديث في اذنه افرغه والابل ونحوها ساقها " (٢) .

د — ومن ذلك تخليط صاحب القاموس — المصدر باسم الفاعل . . ومن الامثلة التي ذكرها الشدياق على هذا ، قول المؤلف في قات : " قاتهم قوتا وقوتا (الاول بالفتح والثاني بالضم) وقياتة (بالكسر) . مع ان عبارة الصحاح — كما يقول الشدياق — " قات اهله يقوتهم قوتا وقياتة والاسم القوت بالضم " (٣) .

وقوله : " ذخره كمنعه ذخرا بالضم " . و " عبارة المصباح : ذخرته من باب نفع (٤) والاسم الذخر بالضم (٥) .

وقوله في الشغل : " الشغل بالضم وبضمتين ، وبالفتح وبفتحتين ضد الفراغ " ، وعبارة المصباح : شغله الامر شغلا من باب نفع والاسم الشغل بضم الشين وتضم الغين " (٦)

---

(١) الجاسوس — ص ١٨٩

(٢) = = ١٩٠ .

(٣) = = ص ١٩٥ .

(٤) المصدر ذخرا (بالفتح) واسم المصدر ذخرا (بالضم)

(٥) نفس الصفحة

(٦) = =

./.

هـ ـ هذا ، ومن ابهام صاحب القاموس في الفعل ، كما يقول الشدياق ، انه يسوى الفعل الثلاثي المتعدى بالرباعي المضاعف كقوله في خضب خضبه " لونه كخصبه . وفي شذب شذب اللحاء قشره كشذبه . وفي فتح : فتح ضد اغلق كفتّح وافتتح . " مع ان اهل اللغة ينبهون على ان المشدد يكون لمبالغة فعل او لتكثيره وربما قصر التضعيف على بعض معاني الفعل دون البعض الاخر " (١) .

ويزيد الشدياق " ولا وجه للقصر كقوله في ضرب ضربه يضربه وهو ضارب الى ان قال وضربت الطير ذهبت تبتغي الرزق ، وعلى يديه امسك ، وفي الارض خرج تاجرا او غازيا الى ان قال " الشي " بالشي " خلطه كضربه مع ان التضعيف يصح في المعاني المتقدمة عند قصد المبالغة والتكثير كما نبه عليه ابن هشام " (٢) .

ومن ذلك ايضا ، انه (اى الفيروزابادى) يذكر الفعل مستقلا بالمعنى دون تعلقه بمعموله ، وبعبارة اخرى انه اذا كان الفعل مشتركا في عدة معان علقه باحد هذه المعاني مستقلا به عن غيره وهو مناف لمعنى الاشتراك .

ومما اورده الشدياق على هذا ، قول المؤلف في بكر " ابتكر ادرك اول الخطبة واكل باكورة الفاكهة ويعلق الشدياق بقوله : " والوجه عندى ان يقال ابتكر الخطبة ادرك اولها والفاكهة اكل باكورتها " (٣) ويشير الى عبارة المصباح ونصها : " وابتكرت الشي " اخذت اوله ، وعليه قوله عليه الصلاة والسلام من بكر وابتكر اى من اسرع قبل الاذان ، وسمع اول الخطبة ، وابتكرت الفاكهة اكلت باكورتها " (٤) .

و ـ ومما يدخل في هذا الابهام والغموض ، التباس العبارة في حالة العطف ، فكثيرا مايعبر صاحب القاموس بالواو بدلا من أو ، حتى التبس الامر على شراح الكتاب انفسهم " اذ لا يعلم هل مجموع المعطوف هو المراد بالتعريف او واحد من افراده " (٥) .

ويرجع الشدياق سبب الابهام في العطف عند [illegible] تحريه مخالفة المصنفين فان عادتهم اذا اوردوا فعلا او اسما له معان متعددة ان يعيدوه دفعا للابهام ، وربما اتبعوه لفظة ايضا " (٦) .

---

١ ـ ٢ : الجاسوس ص ١٦١
٣ ـ ٤ : نفس الصفحة .
٥ : الجاسوس ، ص ٢٠٠ .
٦ ـ نفس المصدر : ص ١٦٩ ـ ٢٠٠ .

./.

في حين يورده المؤلف (اى صاحب القاموس) ويعطف عليه مالا يصح العطف به ، كقوله في زغب : " زغب الاناء كمنع ملأه وقطعه " ويعلق الشدياق فيقول : " وهو يوهم ان القطع يرجع الى الاناء فكان حقه ان يقول زغب الاناء ملأه والشيء قطعة " وفي قمح : " قمح الماء نزعه وصرعه وقلعه وقطعه وضربه " . وحق التعبير ان يقال " قمح الماء نزعه " ويزيد الشدياق : " بل الصواب قمح الدلو نزعها وفلانا ضربه وصرعه والشيء قلعه او قطعه " (١) .

ز — اما ابهام المؤلف في المجمع ، فينتقده الشدياق من عدة اوجه ، احدها ان صاحب القاموس ، اذا ذكر للكلمة عدة معان قصر الجمع على بعضها دون البعض الاخر ، " فيوهم بذلك ان البعض الذى تركه لاجمع له " (٢) .

مثال ذلك قوله : " الأبد محركة الدهر ج اباد وابود والدائم والقديم والولد الذى اتت عليه سنة " (٣) .

ويعدد الشدياق ما ذكره المؤلف من الجموع على فعل بضمتين من دون ذكر مفرده الا ماندر ، كقوله : " الحجج الطرق المحفرة ، الزلج الصخور الملس ، المجج السكارى " .. (٤) .

ويتابع الشدياق ، فينتقد ماذكره المؤلف على صيغة المفرد دون جمعه ، كقوله " رجل لكوك بتشديد الواو وهو القصير الملزز او السمين " (٥) . والاردب كقرشب مكيال معروف لاهل مصر " .

وهكذا في امثلة كثيرة ، تفوق الاستيعاب ، كالمرح ، والقمح ....

---

(١) نفس المصدر — ص ١٩٩ — ٢٠٠

(٢) نفس المصدر ص ٢٠٤

(٣) نفس الصفحة

(٤) نفس المصدر ، ص ٢٠٧

(٥) نفس المصدر ص ٢١٠ .

./.

ويلحق بهذا الابهام " ايراده المذكر من دون التنبيه على مؤنثه " (١) .

ح - ومما انتقده الشدياق في هذا الفصل ، عدم تنبيه صاحب القاموس على الاضداد حين ورودها ، واغفاله تبيانها ، مع انه " كثيرا ما تكلف لاستخراج الضدية من الفاظ ليست من مظانها ، او غير محتملة لها .

ومن الاول قوله ، وأدأ الشيء " حركه وسكنه ، لفأه اعطاه حقه كله او اعطاه اقل من حقه . وهنا ينقل الشدياق عن الامام المناوى قوله : " فهو من الاضداد كما في العباب عن ابي تراب " (٢) .

ومن الثاني قوله : " الزعم مثلثة القول الحق والباطل والكذب ضد " ويعلق الشدياق فيقول : " فان اصل وضع الزعم مرادف لمعنى القول ولذلك اقتصر عليه الجوهرى فكما ان القول يشمل الصدق والكذب فكذلك الزعم وقس عليه اشباهه " (٣) .

ط - ويدخل في هذا النقد ، ماجاء في القاموس من خلل ، ذكره الشدياق في فصل القلب والابدال ، واهمل المؤلف ذكره خلافا للمحكم والعباب والصحاح وغيرها . او ماحاول تعريفه في هذا الخصوص ، فاخفق على الطالب اصله لما وقع فيه من التباس . ومن ذلك قوله : " الفنأ الكثرة " ، " وهو الفنع نبه عليه اللسان " (٤) . و " ناناه " فسره " بكفه " وهو " نهنهه نبه عليه في الصحاح " .

ى - هذا ، وقد انتقد الشدياق ، فيما قصر فيه صاحب القاموس عن الجوهرى ، وهو امر يسود الكتاب اجمالا ، و " لك ان تقول انه في كل مادة لانه كان من همه استيعاب اسماء المحدثين والفقهاء والبقاع ومنافع الأدوية ونحو ذلك " .

---

(١) ص ٢١١

(٢) ص ٢٩٨

(٣) ص ٢٩٨

(٤) ص ٢٩٩ .

./.

ويتابع الشدياق قوله : " ولم يهمه استيعاب الالفاظ اللغوية ، نعم ، ان قاموسه اجمع للشوارد والحواشي من الكلام من الصحاح ، الا ان الصحاح اوضح منه عبارة واكثر شرحا وبيانا " (١) .

ويرى الشدياق ، ان لامناسبة من حيث الفوائد اللغوية والنحوية والصرفية ، بين الكتابين (يعني القاموس المحيط والصحاح) ، " فان القاموس المحيط عطل عنها الا مالدر " (٢) .

ويذكر الشدياق قول المصنف في درأ مانصه : " وتدارأوا تدافعوا في الخصومة وتدارأوا تدافعوا في الخصومة .. وادرأتم اصله تدارأتم " . في حين يقول الجوهري " تدارأتم اى اختلفتم وتدافعتم وكذلك ادارأتم واصله تدارأتم ، " فادغمت التاء في الدال واجتلبت الالف ليصح الابتداء بها " (٣) .

كما عاب الشدياق اجحاف صاحب القاموس لعبارة الصحاح ، ويذكر امثلة على ذلك كقوله في ربأ " ربأهم ولهم صار ربيئة لهم اى طليعة .. والمربأ والمربأ والمرباة والمرتبأ المرقبة " فذكر المرتبأ (الكلام هنا للشدياق) من دون الفعل والاولى عكسه ، وعبارة الصحاح ارتبأت القوم اى رتبتهم " (٤) ، ومثله قوله في رفأ " رفأ السفينة كمنع ادناها من الشط والموضع مرفأ ويضم " .

يقول الشدياق " فكان عليه ان يقول رفأ السفينة ادناها من الشط كأرفأها لان الضم في اسم المكان يرد من الرباعي حكاه ابن الاثير وغيره ، حتى ان الجوهري اقتصر عليه ، ولهذا قال المحشي العجب كيف تعرض للمكان ولم يتعرض لاصل فعله الرباعي " .

---

(١) نفس المصدر ، ص ٣٣٧ ـ ٣٣٨

(٢) نفس الصفحة

(٣) = =

(٤) نفس المصدر ص ٢٢٨ .

./.

وهكذا في " نسأ انتسأ في المرعى تباعد " و " عبارة الصحاح — كما يقول الشدياق — " انتسأت عنه تأخرت وتباعدت ، وكذلك الابل اذا تباعدت في المرعى " (١)

ولم يكن نقد الشدياق مقتصرا على معجم القاموس المحيط فحسب ، بل كثيرا ماكان ينتقد في ثنايا ابحاثه العامة ، مسائل لم يأنس اليها في المعاجم الاخرى . ومن امثلة ذلك ماقال في الصحاح : " فمن امثلة اهمال الضبط وقصور التعريف في الصحاح قوله المهاد الارق وهو بالضم " وفي النسخة المطبوعة بطهران بالفتح " (٢) وقوله في موضع آخر من الصفحة :

" غير ان الجوهري لم يضبط الالفاظ بذكر مثال او بالنص على الحركات خلافا للمصنف وانما اعتمد على مجرد وضع الحركات بخطه كابن سيده والازهري وغيرهما " (٣) وهو ماجعله يخلص الى القول :

" ومن ثم يصح ان يقال ان للقاموس مزية على سائر كتب اللغة الاصول بالنظر الى هذا الضبط " (٤) .

هذا ، وللشدياق ملاحظات نقدية اخرى رشحت من نقده الاساسي لصاحب القاموس ، كقوله في معرض المقابلة بين المعاجم القديمة :

" لاجرم ان للصحاح مزية على القاموس في وضع العبارة والاستدلال بالآيات والحديث والشواهد من كلام العرب والقواعد الصرفية والنحوية واللغوية وكثيرا مايمحو مؤلفه منحى تعليم المركب من الكلام فضلا عن تعريف المفردات " (٥) .

---

(١) نفس المصدر ص ٢٢٨

٢ — نفس المصدر ص ٨٢ .

٣ — نفس الصفحة

٤ — = =

٥ — نفس المصدر ، ص ٨١ .

ومثل هذا قوله : "وللصحاح مزية اخرى وهي ان مؤلفه شافه العرب وضبط كلامهم وكلام الائمة الذين نقل عنهم ، وعلى الترتيب الحسن الذى ابتدعه فهو اول من رتب اللغة على هذا الاسلوب وبه اقتدى الصغاني وابن منظور والمصنف." (١)

٣ـ سوء الترتيب :

بين الشدياق في مقدمة الكتاب ما اصاب المعجم القديم من خلل واضطراب سيما في ترتيب المادة ومشتقاتها فكل من الف في اللغة ، خبط في خلط الافعال ومتفرعاتها خبط عشواء . وما زاد الامر سوءا اغفال الشراح والمحشين عن ذلك وغض نظرهم عنه . ويرى الشدياق ان في كتب اللغة جميعا قديمها وحديثها ومطولها ومختصرها ومقصورها "خلط الافعال الثلاثية بالافعال الرباعية والخماسية والسداسية وخلط مشتقاتها . فربما رأيت فيها الفعل الخماسي والسداسي قبل الثلاثي والرباعي ، او رأيت احد معاني الفعل في اول المادة وباقي معانيه في آخرها " (٢) .

ويورد الشدياق امثلة على ذلك من الصحاح والقاموس المحيط وتاج العروس فيقول :

"ففي مادة عرض التي هي في القاموس اكثر المواد اشتقاقا وتشعبا ذكر الجوهرى المعارضة التي بمعنى المقابلة بعد المعارضة التي بمعنى المجانبة بثلاثة وثلاثين سطرا وصاحب القاموس اورد احتمل الصيغة اى تقلدها في اول المادة ثم احتمل اى اشترى الحميل للشيء المحمول من بلد الى بلد في آخرها ، وبينهما اكثر من ثلاثين سطرا . والشارح اورد في تاج العروس اختلج بمعنى تحرك بعد اختلج بمعنى نكح بنحو ستة وخمسين سطرا . (٣) .

لذلك ، يرى الشدياق ، انه " اذا اردت ان تبحث في القاموس مثلا عن اعرض عنه لزمك ان تقرأ كل ماورد في مادة عرض من اولها الى آخرها ، فيمر بك عرّض واعترض وعارض واستعرض او العكس ثم اسماء فقهاء ومحدثين وحيوانات وجبال وانهار وحصون قبل ان تصل الى اعرض وربما لم يكن ذكره مستوفى في موضع واحد فترى في موضع اعرضه وفي موضع اخر اعرض عنه وهلم جرّا . (٤)

---

(١) الجاسوس ، الشدياق ، ص ٨٠
(٢) الجاسوس ص ١٠
(٣) نفس الصفحة .
(٤) نفس الصفحة

ومما ذكره الشدياق من نقد في هذا المجـال :

آ ـ ماكان من اضطراب في ترتيب المشتقات ، فهم يبتدئون المادة باسـم الفاعل او المفعول او الصفة او اسم المكان والالة او المصدر عوضا عن الابتداء بالفعل او المصدر . وكقول الجوهري في اولى مادة جزر الجزور من الابل يقع على الذكر والانثى . ثم قال بعد اربعة عشر سطرا : وجزرت الجزور واجتزرتها اذا نحرتها وجلدتها " ويعلق الشدياق على هذا قائلا : " فالجزور على هذا مفعول بمعنى مفعول فما معنى ذكره قبـل الفعل " (١) .

ويتابع الشدياق نقده هذا في موضع آخر من الكتاب حاصرا نقده فـي القاموس المحيط لجهة ترتيب المشتقات هذه فيقول :

" ومن خلله ان لا يذكر المشتقات باطراد وترتيب فيخلط الافعال بالاسماء والاصول بالمزيـدات . " (٢)

ثم يقول معلقا : " والاولى تمييز بعضها من بعض " .

ويمضي مدللا على ذلك " وربما ذكر في اولى المادة احد معاني اللفظة ثم ذكر باقيها في آخرها . كقوله " الحبة واحدة الحب ج حبات ، وبالضم الحبة ، وبالكسر بزر البقول والرياحين او نبت في الحشيش صغير او الحبوب المختلفة من كل شي " ... وحبة القلب سويداؤه او مهجته او ثمرته ، ثم قال بعد سبعة عشر سطرا ذكر فيهـا التحبب والحبحبة والحبحاب والحبحبي والحباحب والحبة الخضراء البطم والحبـة السوداء الشونيز والحبة القطعة من الشي " ومن الوزن في م ك ك والجوهري اوردها كلها في موضع واحد . وذكر في اولى المادة الحب بالضم الوداد الحباب ثم قال " الحب بالكسر والحبة بالضم المحبوب " (٣)

ومثله قوله في اولى مادة شرف ، الشرف محركة العلو والمكان العالي والمجد ثم قال (اى صاحب القاموس) بعد خمسة وثلاثين سطرا وشرف ككرم شرفا محركـة علا في دين او دنيـا (٤) .

---

(١) نفس المصدر ص ١٤
(٢) = = ص ٢٧٥
(٣) نفس الصفحـة .
(٤) نفس المصدر ، ص ٢٧٨ .

./.

ب ـ كما انتقد الشدياق صاحب القاموس فيما ذكره مكررا في مادة واحدة . ومن امثلة ذلك قول المؤلف في مادة حـلا "حلا فلانا درهما اعطاه اياه ثم قال بعد اسطر وملأ درهما اعطاه اياه " .

ويعلق الشدياق فيقول : " فان قلت ان هذا مشدد ، والاول ثلاثي فلا تكرير قلت " كان عليه ان يعطف الثاني على الاول كعادته ، بان يقول ملأ درهما اعطاه اياه كحـلاه " (١) . وهو على ذلك الكثير من الامثلة التي اوردها الشدياق في النقد العاشر من الكتاب.

ج ـ ومما حسبه الشدياق من الخلل ايضا : تقديم المجاز على الحقيقة ، او العدول عن تفسير الالفاظ بحسب اصل وصفها . حيث يقول في لفظة كتب :

" فان الجوهري ابتدأ هذه المادة بقوله : " الكتاب معروف وصاحب القاموس يقوله : كتبه كتبا وكتابا خطه ، ومثله صاحب المصباح والزمخشري ، مع ان اصل الكتب في اللغة للسقاء . يقال كتب السقاء اى خرزه بسيرين ، وهو من معنى الضم والجمع ومنه الكتيبة للجيش ثم نقل هذا المعنى الى كتب الكتاب . وحقيقة معناه ضم حرف الى آخر ، ويتابع قوله : " وانما قلت ان اصل الكتب للسقاء لان العرب عرفت السقاء واحتاجت الى الشرب منه والى اصلاحه قبل ان تعرف الكتابة ...

الى ان يقول : .. " وقس عليه درس الكتاب ، فان اصله من درس الحنطة ونسخ الكتاب فان اصله من نسخت الشمس الظل " (٣) .

ويقول في موضع آخر من الكتاب : " غير ان المصنف (اى صاحب القاموس) زاد عليهم كثيرا في هذا النوع (اى تقديم المجاز على الحقيقة) حتى ادته الزيادة الى مخالفة سائر اللغويين . " (٤) .

---

(١) = = ص ٢٩٣

(٢) = = ص ١٠

(٣) = = ص ٢٦٣ .

./.

ويأتي الشدياق على ذكر امثلة كثيرة ومنها قول المؤلف في فـآء :

" الفيء ماكان شمسا فينسخه الظل والغنيمة والخراج والقطعة من الطير والرجوع كالفيئة والفيئة والافـآءة والاستفاءة والتحول ... والفيئة طائر كالعقاب والحين " (١) .

ويرى الشدياق ان حق التعبير كان يستوجب ان يبدأ بالرجوع لان الظل مأخوذ منه . ألا ترى ان الجوهري ابتدأ هذه المادة بقوله فاء يفيء رجع وافاءه غيره رجعه الى ان قال : والفيء مابعد الزوال من الظل ، وانما سمي الظل فيئا لرجوعه من جانب الى جانب ... ثم يقول " وعبارة لسان العرب الفيء ماكان شمسا فنسخه الظل ، وانما سمي الظل فيئا لرجوعه" وهنا يبدي الشدياق ملاحظة من عدة اوجه فيقـول :

- " ان الفيء اصله مصدر فآء بمعنى رجع ومثله باء ومقلوبة آب .

- " ان المصنف لم يصرح بالفعل مخالف في ذلك الصحاح واللسان وليس في عبارته ايضا مايدل على كون الفيء مصدرا سوى قوله : والتحول وهي دلالة بعيدة .

- ان المحشي قال : اغفل المصنف الرباعي متعديا ، وذكره الجوهري ، فقال : فاء يفيء فيئا رجع وافاءه غيره رجعه " (٢) .

هذا بعض ماتناوله الشدياق من نقد للمعجم القديم ، وقد دار - جله - حول خلل وقصور وابهام القاموس المحيط . اما اقله فقد توزع بين المعاجم الاخرى كاللسان والصحاح والمحكم ...

وفي هذا الوقت ، كان قد صدر للمعلم بطرس البستاني معجم " محيط المحيط" ومختصره " قطر المحيط " ولما كان الشدياق لم يستطع الحصول على الاول ، في حين وقع بين يديه المختصر ، فقد هب منتقدا - بمرارة - عمل البستاني ، سيما وان هذا الاخير كان قد اعتمد في عمله على قاموس الفيروزابادي .

---

(١) و (٢) : نفس المصـدر : ص ٢٦٣ .

./.

وقد جرى الشدياق في تعقب اثر البستاني كلمة كلمة ، مبينا اغلاطه وتوهمه واضطرابه عدا عن هنات التصحيف والتحريف التي فاقت الحصر والتي لم تسلم من غضب الشدياق .

ومما ذكره الشدياق من اغلاط البستاني في قطر المحيط قوله :

" قال مؤلف القطر : أب يئب ويؤب أبا وابيبا واباباً وابابة هزم بحمله . والشيء حركه وللسير تهيأ . والى وطنه أبّا وابابة (بالكسر والفتح) اشتاق ويده الى سيفه ردها ليسله . الى ان قال : وابت ابابته : استقامت طريقته .

ويقارن الشدياق ، كلام البستاني بما ورد في القاموس المحيط ، حيث يقول : " وعبارة القاموس : اب للسير يئب ابا وابيبا واباباً وابابة تهيأ ، والى وطنه ابا وابابة (بالفتح والكسر) اشتاق ، ويده الى سيفه ، ردها ليسله . الى ان قال : اب ابه قصد قصده ، وابت ابابته ويكسر استقامت طريقته . . واب هزم بحمله لا مكذوبة فيها ، والشيء حركه .

وهنا يعلق الشدياق بقوله " فالمفهوم من اصطلاح القاموس بعد ذكره لاب ابه اى قصد قصده ، ان مصدر اب بمعنى هزم بحملة واحدة هو الاب . وان المضارع مضموم خلافا لترتيب صاحب الجنان (١) ، على انه لم يرو في أبت ، ابابته غير الفتح .

ومن ذلك ، انتقاده له في قوله :

" ابل : الابل الشديد التأنق في رعي الابل والشاء " حيث ضبط البستاني الباب من الابل بالفتح ، فصوبها الشدياق بالكسر .

ثم احتكم الى النص الاصلي في القاموس ، بغية كشف مواطن الضعف اللغوى عند البستاني فيقول : " قال في القاموس : " ابل كنصر وفرح ابالة وابلا فهو آبل ، وابل حذق مصلحة الابل والشاء . وانه من آبل الناس من اشدهم تألقا في رعيتها . فقوله فهو آبل ، وأبل ، الاول اسم فاعل يعود الى وزن نصر ، والثاني على وزن كتف يعود الى فرح ، فهو من اللف والنشر المرتب . وهنا يعلق الشدياق فيقول :

---

(١) الجنان : اسم الجريدة التي كان يصدرها البستاني .

" فكان هذا المحبنطي (اى البستاني) ظن من قول القاموس: وانه من آبل الناس بان اسم الفاعل بفتح الباء " . وعبارة الصحاح وابل الرجل بالكسر يأبل ابالة مثل شاكس شكاسة وتمه تماهة فهو أبل (كلتف) ، وآبل اى حاذق بمصلحة الابل ، وهو من آبل الناس اى من اشدهم ، تأنقا في رعيه الابل واعلمهم بها " (١) .

٣- النقد المعجمي عند سعيد الشرتوني :

الحق الشرتوني بمعجمه " اقرب الموارد الى فصح العربية والشوارد " ذيلا ضم اليه مافاته في الكتاب او ماكان قد اهمله وذهله في الكلم الوارد في كتب اهل العربيـة ، كما استدرك به كل مانّ عن التدوين مما اغفلته اقلام العلماء من اصحاب هذا العلم ، وهي الضوال التي من الله على المؤلف - كما يقول - باستدراكها على المتقدمين في العلـم والزمـان .

ومما ينبغي قوله ان الشرتوني قد ابتغى من وراء ذلك كله ان يكون مصنفه على الصحيـح اجمع من سواه لما نطق به العرب من الكلم الفصيح " (٢) . وهو ما استوجب عملا شاقا كابده المؤلف ، وجعله يقوم بمعارضات بين مؤلفه ، من اوله الى آخره ، والاصول المنقحة ، والامهات الصحيحة .

بيد ان ذلك هيأ امامه الفرصة النقدية ، لذكر مافات المعجم القديم ، واصلاح هفواته ، حيث عقب المؤلف كل نقل ، يسند من امام متبع او كتاب معتمد " (٣) .

ويقول الشرتوني بعد هذه المقابـلات :

" ولقد تبينت بهذه المقابلة ان العهدة في جل ما انتشر من الاغلاط ، انما هي على القاموس المحيط " .

---

(١) مقالة للشدياق : تحت عنوان " تصويب السهام التفليط على قطر المحيط " . انظر الجوائب ، عدد ٥٦٤ - ٢٠ ك١ سنة ١٨٧١ ، وسلسلة الاعداد التي تبدأ بالعدد ٥٦٦ ك٢ سنة ١٨٧٢ .

(٢) مقدمة ذيل اقرب الموارد ، الشرتوني ، ص ٤ .

(٣) نفس الصفحـة .

./.

ويبين المؤلف ، سبب ذلك في " ان الثقة به (اى بالقاموس المحيط) قد تمكنت من صدور الذين لم يقفوا على الكتب الكبيرة المصححة فقلدوه في معظم ما تساهل فيه من اطلاق المقيد وتقييد المطلق وفيما ضل فيه سبيل الصواب (١) .

ولا نحسبن ماذهب اليه الشرتوني من نقد القاموس المحيط جل عمله الذى اراد . بل كان المؤلف يحسب كل زلة في اى كتاب ، ايا كان مصنفه دونما اعتبار الا للنزاهة في الحكم والخلوص في العمل .

وعلى هذا ، يكون النقد عنده قد اشتمل على اكثر المعاجم القديمة كاللسان والاساس والمصباح وسواها .

هذا وقد وضع المؤلف جداول ناهزت على التسعين في آخر " ذيله " تحت عنوان " تنبيه وتكملة واصلاح " .

طريقة نقده :

يوضح الشرتوني منهجه النقدى فيما اورده في الذيل او الجداول فيقول :

- " اذا عثرت على غلطة من الكتب الموثوق بها كاللسان والاساس وكان كتابي بريئا منها نبهت عليها تفاديا من ان يحكم علي بالخطأ وانا المصيب بل تحاشي ان يحسب الصواب خطأ والخطأ صوابا ... (٢) .

- " ان كل ما اسندته في جانب الصواب الى فريتغ او محيط المحيط فانما ذلك اشارة الى وجوب الفحص عنه والحذر منه مالم ير لثقة . (٣)

- ان كل ماكان قد امه سيداً في هذا الذيل فهو من تلك الضوال التي وجدها بل الدرر التي استخرجها - كما يقول - من لجج المؤلفات العربية بعد ان طال على نقدها الامد ...

---

(١) نفس المصدر السابق .

(٢) مقدمة الذيل ص٤

(٣) نفس الصفحة .

- اما الجدول ،فينبه الشرتوني ان ليس كل ماذكره فيه بمنزلة واحدة في نظر المنتقد بل بعضه ورد بصورة الاطلاق وهو مقيد . وبعضه ذكر كأنه مسلم موثوق به " مع ان بعض الائمة - كما يقول - انكروه وبعضه ذكر على غيراستيفاء ، وبعضه وقع في غير موضعه كالخلط الذى وقع بين مادة فشغ وفصح ، وبعضه وقع الغلط في ضبطه او تفسيره .

- ويعرّف الشرتوني مصطلحاته الثلاثة " تنبيه وتكملة واصلاح " التي عنون بها الجد اول فيقول :

- آ - اما التنبيه : فلتقييد ما اطلق كقول القاموس العصام الكحل ، فقلت العصام الكحل في بعض اللغات .

ب - واما التكملة : فلما ذكر على غير استيفاء كفعل لم تستوف مصادره ومفرد لم يذكر كل جموعه مثال الاول . رتك رتكا ورتكا . فقلت رتك رتكا ورتكا ورتكانا . ومثال الثاني : والثغب الغدير يكون في ظل جبل لا تصيبه الشمس فيبرد ماؤه ج ثغبان بالكسر والضم . فقلت ج ثغاب واثغاب وثغبان الخ ..

ثم يقول :

او من حرف مشترك لم يحط بمعانيه مثال ذلك (المثماء) ايضا الضبع المنتنة فقلت المثماء المرأة القبيحة المسيئة . و - الضبع المنتنة .

او حرف اعجمي لم ينبه على انه معرب كقول (صاحب القاموس) الابزام والابزيم بكسرهما الذى في رأس المنطاقة وما اشبهه ، وهو ذو لسان يدخل فيه الطرف الاخر فكملت العبارة بقولي " معرّب " .

ج - واما الاصلاح : فلما وقع خطأ في ضبطه نحو الكشر محركة الخبز اليابس والصواب الكشر بفتح فسكون كما في اللسان والتاج .

ويرى الشرتوني لو ان كل كتاب لغة ذيل باصلاح تام لما وقع من اغلاط التأليف والطبع وهو مايراه في الاساس والتاج والصحاح حيث يقول :

./.

" وهذا الصحاح قد وقع في طبعه اغلاط عدة .. وهذا اللسان الذى هو اصح مارأيت من مطبوعات مصر ضبطا ورواية تجد فيه مايحتاج الى الاصلاح وان كان قليلا بالنظر الى كبر الكتاب " (١) .

ويتطرق الى انتقاد معجم البستاني فيقول :

" واما محيط المحيط فاذا صرفت النظر عما دس فيه من الكلمات العامية بلا تنبيه على عاميتها واغضيت عن جعله جملة من الالفاظ العامية مولدة وعن الحكم على بعض الفصيح انه عامي كانت العهدة في سائر اغلاطه على القاموس غير ماكان من خطأ الطبع " (٢) .

ويعدد مناحي هذا الغلط الثلاثي :

فمن الاول قوله (اى البستاني) : " الصميلة الحب الذميم الاحمر من الحمص . وقوله عربسه فتعربس اوقعه في الارتباك فارتبك " .

ويعلق الشرتوني بقوله : " فهذه الاحرف عامية وقد ذكرها كما يذكر الكلمة الفصيحة " (٣) .

- ومن الثاني قوله : " العزيمة بمعنى الدعوة الى طعام او فرح من كلام المولدين " (٤) والصواب انها بهذا المعنى عامية .

- ومن الثالث قوله : " والعامة تسمي الحلم بالمنام وربما قالوا بنام على الابدال " (٥) والصحيح ان المنام بمعنى الحلم فصيح ، وقد ذكره الزمخشرى في الاساس قال فلان يرون له المنامات الحسنة .

هذا وقد رصدنا بعض الامثلة الدالة على كل نقد من نقود الشرتوني للمعاجم القديمة مما ذكره في جداوله السابقة الذكر ، نوردها بشكل منسق خلافا لما هي عليه في الكتاب ، معتمدين مصطلحات الجدول التي ذكرها المؤلف بالشكل التالي :

---

١ - ٢ - ٣ - ٤ - ٥ : من مقدمة الذيل .

- اس — اساس البلاغة
- ت — تاج العروس
- حم — شرح الحماسة
- ص — الصحاح
- فخ — فريتج
- ق — القاموس
- ل — لسان العرب
- مح — محيط المحيط
- مص — المصباح ٠

١- مما ذكره الشرتوني في انتقاد اساس البلاغة (اس) (والمطبوع في مصر سنة ١٨٨٣ م) ٠

صفحة	عمود	سطر	خطأ	صواب
٥٦٧	٢	٤	متقارب الخَلق (اس)	ل متقارب الخَطر (١)
٦٢٧	١	١٢	(كتيبة صداى) (امرق)	ل كتيبة صدآ ، وهي القياس كاحمر وحمراء (٢) ٠
٦٤٠	٣	١٨	(رجل مصدّم) (مجرّب (اس)	ل رجل مصدم كمنبر : اى محرب (٣) ٠

---

(١) ذيل اقرب الموارد ، الشرتوني ، ص ٤٧٨

(٢) = = = = ، ص ٤٨٢

(٣) = = = = ، ص ٤٨٢ ٠

٠/٠

٢- ومما ذكره في انتقاد تاج العروس (ت) المطبوع في مصر سنة ١٣٠٧ هـ :

	ص	ع	س	خطأ	صواب
١-	٤٢	٣	٣١	(المَبِسْرات) ق ت	ل المَبسرات (١)
٢-	١٤٤	٢	٣٩	وقيل اى ملك امره واستبد به ق ت	ل و - ملك امره واستبد بـه (٢) .
٣-	٢١٥	٣	٢١	نبات الحَقْيق ق ت	ل قال الليث بنات الحقيق بتقديم الباء على النون ضرب من التمر والصواب لون الطين ضرب من التمر ردىء (٣) .

٣- ومما ذكره في انتقاد الصحاح (ص) (المطبوع في مصر سنة ١٢٩٢ هـ) .

	ص	ع	س	خطأ	صواب
١-	٢٤٢	١	٣٨	(الحاج) نبت .. الخ ص ص	ل اورده في ترجمة ح ى ج (٤)
٢-	٣٣٨	٢	٣١	(الدواغل) الدواهي بلا واحد ص	كذا وردت في نسخة من ص محرفة والصواب الدفاول كما في جميع كتب اللغة (٥) .
٣-	٣٤١	١	٢٧	الدفنى كجمزى .. الخ ضرب من الثياب المخططة ص	ق ل الدفني كمربي : ضرب من الثياب وقيل من الثياب المخططة (٦) .

---

(١) نفس المصدر ص ٤٤٦
(٢) = = ص ٤٥٠
(٣) = = ص ٤٥٥ - ٤٥٦
(٤) نفس المصدر ص ٤٥٧
(٥) = = = ٤٦٣
(٦) = = = ٤٦٣

./.

٤- ومما ذكره في انتقاد القاموس المحيط (ق)(المطبوع في مصر بمطبعة بولاق سنة ١٢٨٩ هـ)٠

	ص	ع	س	خطأ	صواب
١-	١٨	١	٢١	العيب في النفس ق	في الفم وفي التوب وفي الحجر (١)
٢-	٤٨	٢	١٦	و في حديثه : هزل/ق	ل و (بطل) في حديثه كعلم (٢)
٣-	٤٨	٣	٢٣	(بطّن) و - البعير : شد بطانه ق	(بطن) بالتشديد غلط وانما يقال ابطنت البعير ولا يقال بطنته بطنا وقال الازهرى بطنه بطنا (٣) ٠

٥- ومما ذكره في انتقاد محيط المحيط (مح) المطبوع في بيروت سنة ١٨٦٩ م، فكثير جدا منه :

	ص	ع	س	خطأ	صواب
١-	٢٤١	٢	٢٧	خظيت مح	حظيت بالمهملة (٤)
٢-	٥٧	٢	٣٦	البلى والبلج مح	البلّج والبلج (٥)
٣-	٦٢	١	١٨	الصواعق (بالكسر) مح	ل الصواعق (بالرفع) (٦)

---

(١) نفس المصدر ص ٤٤٥

(٢) - (٣) = ص ٤٤٦

(٤) - ص ٤٤٦

(٥) - (٦) ص ٤٤٦ ٠

٠/٠

٦- ومما ذكره في انتقاد المصباح (ص) المطبوع في مصر بمطبعة بولاق سنة ١٢٩٣ هـ .

	ص	ع	ص	خطأ	صواب
١-	٥٢٠	١	٣٨	سَفَر الرجل ف سفورا خرج الى السفر ق ص	ل ت سفر كنصر صفورا خرج الى السفر (١) .
٢-	٦٥١	٢	٤	رجل صفمان وصفماني ص ص	ق ت ل رجل صفمان ومصفماني (٢) .
٣-	٨٦٩	١	٣٤	وفرف الماء بيده ق غرفا ص ص	ت ضبطه من بابي ضرب ونصر وفي ت اقتصر الجماعة على الكسر في المضارع فقط (٣)

اما ماكان قد اهمله في " الذيل " وعوكما قال المؤلف - من تلك الضوال التي وجدها فكثير نورد منه نموذجين على سبيل المثال كقوله في مادة وثق :

" وثق ص قد رأيته متعديا بالى في عبارة واردة في التاج هذا نصها " من العلماء الموثوق اليهم " كأنه على معنى اطمئن اليه .

س (اخو ثقة) بمعنى الشجاع الواثق بشجاعته " (٤) .

---

(١) نفس المصدر ص ٤٧٥

(٢) = = ص ٤٨٢

(٣) = = ص ٤٩٦

(٤) = = ص ٤٣٠

./.

وقوله في مادة وجـز :

" وجـز س استوجزه استيجازا : بمعنى حذف مافيه من الفضول
كاختصره (اللسان في مادة خضر) .

س (الموجزة) الطعنة السريعة اخراج الدم ..." (١)

---

(١) - نفس المصـدر ، صفحـة (٣) .

الفصل السادس

الدرس البلاغي في القرن التاسع عشر في لبنان

اندرج البحث البلاغي في القرن الماضي ، عند الكتاب اللبنانيين ، تحت ابحاث الانشاء وطرق التعبير وصناعة النظم ، وغير ذلك من المباحث الادبية العامة ، دون ان يأخذ الكتاب البلاغي اتجاهه المستقل ، او عمله المنفرد ، البعيد عن تداخل علومه بعلوم اللغة والنقد والعروض .

بيد ان العقد الاخير من القرن الماضي ، حفل ببذور الجديد ، والتخطي الجرئ والتأليف الجاد وذلك بأعمال على يد جبر ضومط (١٨٥٨ — ١٩٣٠) ، الذى بذر بذور المذهب الذوقي في البلاغة العربية بكتابيه " الخواطر الحسان في المعاني والبيان " (١) و " فلسفة البلاغة " (٢) . وسنفرد لهذين الكتابين بحثا مفصلا .

اما دون ذلك ، فقد ساد القرن جمود رهيب ، انكمشت معه الاقلام . واجدبت العقول ونضب معينها . وهي ان اعطت — احيانا — فهو نزر يسير ، لا يجرؤ على تخطي مراحل التلخيص لما كتبه البلاغيون القدامى .

ومن ثم ، فمن النادر ان نلمح كتابا واحدا في عقود النصف الاول من القرن الماضي ، استطاع ان يتحرر من القيود البلاغية الجافة ان في تأليفه البلاغي وان في اسلوبه الانشائي ، وقد انسحب هذا الركود على العقود الثلاثة من النصف الثاني للقرن التاسع عشر . مما اغرق البلاغة واساليب الانشاء والنظم في لجج الصناعة اللفظية السقيمة ، والتزيين البلاغي الفارغ المحتوى .

---

(١) الخواطر الحسان ، طبعة اولى بمصر سنة ١٨٩٦ ، وطبعة ثانية في مطبعة الوفاء — بيروت سنة ١٩٣٠ .

(٢) فلسفة البلاغة — المطبعة العثمانية — بعبدا — لبنان ، سنة ١٨٩٨ .

./.

وهذا ماجاء على لسان احمد فارس الشدياق ، احد كتاب العصر ، حيث يشكو من طرز التأليف واساليب الكتاب في زمانه ، فيقول في الساق على الساق :

" ولكن هيهات ، فاني ارى اكثرهم قد زاغ عن هذه المحجة ، اذ المؤلف منهم بينا هو يذكر مصيبة احد من العباد في عقله او امرأته او ماله اذا به تكلف لايراد الفقر المسجعة المرصعة ، وحشى قصته بجميع ضروب الاستعارات والكنايات . (١)

ثم يقول في موضع آخر من الكتاب ، منتقدا بشدة طغيان السجع على الاساليب التعبيرية : " السجع للمؤلف كالرجل من خشب للماشي ، فينبغي لي ان لا اتوكأ عليه ، في جميع طرق التعبير لئلا تضيق بي مذاهبه ، او يرميني في ورطة لامناص لي منها . ولقد رأيت ان كلفة السجع اشق من كلفة النظم ... " (٢) .

ولو عاد الباحث الى المؤلفات البلاغية - على قلتها - فتتبع اثرها كتابا فكتابا لرأى ان بداية التأليف البلاغي تقترن بالعقود الاولى للنصف الثاني من القرن التاسع عشر ، اذ اخذت البلاغة شكل كتب صغيرة ، اقرب ماتكون الى الاراجيز والملخصات ، والشروح المدرسية البسيطة ، وهو ماقام به الشيخ ناصيف اليازجي في اكثر كتبه .

ويمكننا ، بنظرة سريعة على مؤلفات الشيخ ، تحديد اتجاهه . فهو في عمله يقتصر على امتصاص مواهب السابقين ، مكتفيا بالتلخيص والايجاز دون ادنى محاولة للتجديد او الخلق . ففي كتاب "عقد الجمان في المعاني والبيان " نراه يعتمد كليا على امهات الكتب القديمة ، يستمد منها جماع مادته ، في الشرح والتلخيص ، وجاء ايجاد مادة كتاب بلاغي ميسر يسهل على طلبة المدارس تناوله ، ويقرب الى افهام المبتدئين مبادىء هذا العلم .

---

(١) الساق على الساق ، ص ١٣٤

(٢) = = = ص ١٢٣ .

./.

ولن نذهب بعيدا في رصد هذه الاراجيز ، او الملخصات ، فهي عديمة الجدوى ، بائسة الهدف ، لاتقوى على اعطاء الدرس البلاغي اى مزيد من الجدية او الامل في ايجاد سبيل ذوقي .

غير اننا نكتفي بتبيان تاريخ صدورها ، مع الاشارة الى ان عناوين هذه الكتب قد تخدع الباحث لما لها من فصاحة وايحاء . فيظن انها تخفي وراءها مضمونا يجدر الاهتمام به . حتى اذا ماحصل القارىء على احدها وجده كتابا يثير الضحك ، فحجمها بمقدار الكف ، وريقاتها لاتتعدى الخمس عشرة صفحة او العشرين او الثلاثين . وقليلا ماتتجاوز الخمسين صفحة . من هذه الكتب :

- الطراز المعلم : ارجوزة مختصرة في البيان تقع في ٣٥ صفحة جمع فيها المؤلف نظما وشرحا المبادىء المهمة في البيان ، وفرغ من تبييضها سنة ١٨٦١ ، طبعت في المطبعة المخلصية سنة ١٨٦٨ .

- عقد الجمان : جمع فيه خلاصة المعاني والبيان والبديع بين متن وشرح والحق به بحثا هو " نقطة الدائرة " في العروض والقافية . انهاه سنة ١٨٤٨ .

وقد صدر مع ملحقه " دائرة العروض " في كتاب واحد اسمه " مجموع الادب في فنون العرب " طبع سنة ١٩٠٨ ، ثم طبع في المطبعة الاميركانية في بيروت سنة ١٩٣٢ ، و ١٩٤٨ ، على نمط جديد قام بترتيبه الاستاذ لبيب جريديني .

اما المؤلف الثاني ، الذى قام بتكريس النزعة التقليدية ، وربط البلاغة بقيود مباحث البديع الجافة فهو الخورى بولس عواد في كتابه " العقد البديع في فن البديع " (١) فقد اتجه المؤلف لاحياء البديعيات التي كانت في بديعية ابن حجة الحموى اتجاها مسرفا ، مبتعدا في عمله ايما ابتعاد عن ينابيع التعابير العربية الاصيلة ، مجددا بذلك ماقام به احمد البربير البيروتي (المتوفي سنة ١١٢٦ هـ / ١٨١١ م) الذى نظم ، في بداية القرن التاسع عشر ، بديعية شرحها مصطفى الصلاحي .

---

(١) كتاب العقد البديع في فن البديع لبولس عواد ، المطبعة العمومية الكاثوليكية بيروت ، سنة ١٨٨١ .

./.

هذا وقد اخذت بديعية الخوري بولس عواد ، شذى مختصرات مجملة لاحياة فيها ولا عذوبة . ويمكننا ان نعتبر عمل عواد هذا من قبيل تلخيص ماجاء في بديعية ابن حجة الحموي . ويعترف عواد بهذا صراحة فيقول في مقدمة الكتاب :

" ... رأيت ان اصدّر في كل باب بيتا من نظم احد الايمة البديعيين اجرى على اثره بشرح موجز مبين .

" ... ولما كان الشيخ صفي الدين الحلي ، والشيخ تقي الدين المعروف بابن حجة الحموي ، هما السابقين في هذه الحلبة والقائمين في صدر هذه الرتبة ، آثرت بذلك بديعية الحموي ... ولم يكف ان جعلت نظمه لشرحي اماما ، وقفوت اثره ترتيبا ونظاما ، حتى افترفت من خزانته غرفا واستنزفت فرائدها نزفا .. وحين تم ماتكلفته والفته .. سميته العقد البديع في فن البديع " (١) .

ومن الطريف ان يمدّ بولس عواد - كابن حجة وجماعته - البديع ليشمل الصور البيانية وكثيرا من صور علم المعاني .

كما اخذ يقلدهم في اضافة اشياء واسماء لايمكن ان تدخل في المحسنات البديعية كالقسم والاستدراك والتلفيق ... والمتتبع لفصول الكتاب يجد تسميات كثيرة لن تعود على علم البلاغة الا بالخلط والتعمية والصور الغثة كالجناس الملفق والمذيل واللاحق والمصحف والمحرف والمقلوب والنزاهة والتغويف والتشريع والتنكيت وغير ذلك من الابواب السقيمة .

هذا ، وقد ظهر بعد اربع سنوات من صدور مؤلف بولس عواد ، كتاب بعنوان " دليل الهائم في صناعة الناثر والناظم " (٢) لمؤلفه شاكر البتلوني .

وقد قسم البتلوني كتابه هذا قسمين :

القسم الاول : في ادب الكاتب وصناعته وفيه بابان : الاول : في اداب العلم والتعليم وفيه ستة فصول . والباب الثاني في صناعة الكاتب وفيه عشرة فصول .

القسم الثاني : في شذرات مختلفة من اقوال الكتاب ، وفيه فصول وختمه بخاتمة وذيل .

---

(١) من مقدمة الكتاب ، ص ٤ .
(٢) دليل الهائم في صناعة الناثر والناظم ، لشاكر البتلوني ، المطبعة الادبية - بيروت سنة ١٨٨٥ وهو في (١٩٨) صفحة .

./.

وبنظرة سريعة على فصول الباب الثاني من القسم الاول نجد الفصول التاليـــــة :

الفصل الاول : في ارتان الكتابة وقد نقل بتصرف عن المثل السائر لابن الاثيـر .

الفصل الثاني : في ادوات الكتابة وقد نقل ملخصا عن العقـد .

الفصل الثالث : في الصناعة اللفظية وهو فرعان :

- فرع في اللفظة المفردة وقد نقل عن المثل السائر .
- وفرع في الكلام وقد نقل ملخصا عن المثل السائر كذلك .

الفصل الرابع : في انقسام الكلام الى فني النظم والنثر وهو منقول عن ابن خلـدون .

الفصل الخامس: في السجع وهو منقول عن المثل السائـر .

الفصل السابع : في الفصاحة والبلاغة ، وهو فرعان :

- فرع في الفصاحة وقد نقل عن المثل السائر .
- وفرع في البلاغة وهو منقول عن عدة كتب قديمة ، وخاصة كتاب ادب الدنيا والدين ، كما يصرح المؤلف نفسه .

الفصل التاسع : في التخلص والاقتضاب وهو ملخص عن المثل السائر كذلك .

ونحن اذا تناولنا ماجاء في الفصل الثالث من فصوله عن كلامه في قضيـــة اللفظ تحت عنوان (في الصناعة اللفظية) لوجدناه ينقل عن المثل السائر تفاصيل الموضوع برمته حيث قسم قضية اللفظ هذه الى قسمين :

- القسم الاول : في اللفظة المفردة ويحتاج في صناعتها الى اشياء ثلاثة :

الاول : اختيار الالفاظ المفردة كما يفعل من يختار اللآلي .

./.

الثاني : نظم كل كلمة مع اختها في المشاكلة لها ، لئلا يجيء الكلام قلقا ، نظما يشبه صنيع ناظم العقد .

الثالث : مراعاة الغرض المقصود من ذلك الكلام على اختلاف انواعه .

وهذه الامور الثلاثة مما يجب على الخطيب والشاعر العناية بها . والاول والثاني هما المراد بالفصاحة ، والثلاثة بجملتها هي المراد بالبلاغة .

وكنا نتمنى لو ان البتلوني حاول الاستقلال — ولو قليلا — بشخصيته . لكنه على مايبدو اكتفى بالتلخيص والعرض لما جاء في كتب القدامى .

هذا ، وقد ظهر في العقود الاخيرة من القرن الماضي كتب بعض الابحاث البلاغية المندرجة في كتب علم الادب حينا والعروض حينا اخر او في كتب الانشاء وسواها ، دون ان تستقل بذاتها كما هو شأنها في كتاب "علم الادب" — الجزء الاول — للاب لويس شيخو سنة ١٨٩٧ . وكتاب "مصباح الافكار في نظم الاشعار" سنة ١٨٨٨ ، للمعلم شاكر شقير وغير ذلك من الكتب التي لم تدفع بالبلاغة الى حيّز الدرس الجاد ، او المستساغ .

وهكذا ، يبقى لنا عمل واحد ، من كل اعمال المؤلفين في القرن الماضي ، يمكن لنا ان نعتبره اتجاها ذوقيا جديدا ، استطاع به صاحبه ان يتخطى حدود التقليد والعمل الجاف .

وقد تمثل هذا الاتجاه في كتابين ، صدرا تباعا للمؤلف جبر ضومط (١) ، سمى

---

(١) جبر ضومط (١٨٥٨ — ١٩٣٠) ولد في برج صافيتا في عكار وفيها تلقى علومه الابتدائية على يد الدكتور يعقوب صروف ، ثم تعلم في مدرسة عبيه الاميركية .
ويعتبر ضومط ، رائدا من رواد البحث اللغوي في اللغة العربية وعلومها ، ونشأتها وتحولها . عمل استاذا في الجامعة الاميركية فترة من الزمن ، وهو من اعضاء المجمع العلمي في دمشق ، وواحد من الذين اضافوا لعلوم اللغة نزعة فلسفية سيكولوجية تقوم على الاساليب الحديثة ، الخاضعة للتحليل العقلي .
توفي ضومط عام ١٩٣٠ م .

./.

الكتاب الاول " الخواطر الحسان في المعاني والبيان " . حيث استعرض فيه ملامح عامة من غايته البلاغية ، دون إن يقرر نظريته بشكل دقيق ، مكتفيا بطرح بعض الافكار المهمة في المقدمة وثنايا الكتاب .

وسمى كتابه الثاني " فلسفة البلاغة " حيث تناول فيه ابحاثا بلاغية ولعلها من خير الابحاث التي اخرجت في لبنان خلال القرن التاسع عشر كله .

ويهمنا في الكتاب الاول " الخواطر الحسان " الصادر سنة ١٨٩٦ مقدمته التي حددت طريقة نهجه في الدرس البلاغي ، وكيفية تصوره له .

اما مضمون الكتاب ، فلا حاجة لنا به ، لغلبة النماذج التطبيقية المبسطة ، عليه ، تلك النماذج المخصصة من الكتب لطلبة المدارس .

وقد قسم ضومط كتابه هذا الى ثلاثة اقسام : تناول فيها تقسيم الجملة وذكر عوارض تعرض لها ولاجزائها من تقديم وتأخير ، وذكر اوصاف تتصف بها الجملة ـ خبرية وانشائية . ثم عمد الى فصل دقيق في التصورات والافكار توصل فيها الى معرفة ماهية الجملة .

ومع ان الكتاب مدرسي ، كما قلنا ، الا ان امورا جديرة بالاهتمام ، وردت اثناء كلامه عن اهمية البيان وعلاقته بالمنطق والنحو ، وهو يقول في هذا الصدد :

" لما كان البيان ينظر في الفكر المدلول عليه بالجملة من جهة وفي الالفاظ الدالة من جهة اخرى كانت وظيفته مزدوجة وابحاثه من جهة اللفظ تماس ابحاث النحو وتتصل بها ، ومن جهة المعنى تماسّ ابحاث المنطق وتتصل بها " . (١)

وفي معرض كلامه على الفصاحة يتناول قضية اللفظ الغريب في الاستعمال فيرى ان القضية محصورة في الفاظ بعينها لا تتعداها هي الفاظ الموصوف او الصفة فقط .

ويرى ضومط ، ان الموصوف اسمان :

---

(١) الخواطر الحسان ، جبر ضومط ص ٦ .

أ - اما " اسم لشيء " موجود مشاهدة عينه كثيرا " واللفظة عنده هنا ، قلما يصعب فهم المراد بها ، او بما هو من متعلقاتها ومتعلقات المسمى بها ، وذلك كمعظم الفاظ اللغة المتداولة المتعارفة .

ب - واما " اسم لشيء " كان يوجد ثم فقد من الوجود واصبحت مشاهدته نادرة لا تتهيأ الا للقلائل ، وهذا ماجعل الاسم غريبا لبعد العهد بالبيئة الماضية وقلة الفتنا لمضمونها وتقاليدها وعاداتها .

" وبالاجمال لم يبق لنا منها الا اسماء المسميات على انقراض اعيانها او بقولها بصور غير صورها الاصلية في جميع ضروب ادوات الصناعات المختلفة وانواع المساكن والملبوسات ... الخ . فاللفظة هنا غريبة صعبة منعوتة بالوحشية لانها اسم لشيء " كان يوجد ، ثم فقد ، كتلك التراكمات الاسمية للسيف مثلا ، او الليث ، او غير ذلك مما هو موجود في كتب اللغة .

في حين يرجع الكاتب بعدم سهولة فهم المراد من الصفة احيانا ، وغرابة استعمالها ، الى كون الصفة لا تنطبق على الموصوف ولا تناسبه لا حقيقة ولا مجازا .

ويورد الكاتب امثلة على ذلك ، كلفظة " المسرج " التي وردت في قول رؤبة :

ازمان ابدت واضحا مفلجا ومقلة وحاجبا مزججا
وفاحما ومرسنا مسرّجا

" فوصف الانف ، بـ " مسرج " غير مأنوس بالاستعمال ولا ترضاه بداعة او سلامة الذوق " (١) .

ويعلق على ذلك بقوله : " ولهذا السبب عينه لم ترد في استعمال البلغاء وكبار الكتبة والشعراء .. ويضيف قائلا :

" والذى يقضي بالعجب ان كثيرين يزعمون ان امثال هذه الالفاظ ينبغي المحافظة على قد استها واستعمالها ، دون غيرها من الالفاظ المتعارفة والمستعملة الان ، لما هو مألوف ومشاهد في وقتنا الحاضر . ولعجب من هذا انهم قد يطلقونها

---

(١) الخواطر الحسان ، ضومط ص ٩ .

./.

في الاستعمال من غير قيد يقيد ما المراد منها على اليقين او مايقرب منه " (١) .

وكأن الكاتب ، قد آنس الانفكاك عن التقليد المتوارث ، فينزع الى تحديد رأيه في هكذا استعمال بجرأة فيقول :

" وعليه ، فاذا استعمل كاتب ما يشاكل هذه اللفظة ، قلنا انها غريبة الاستعمال وبعيدة عن المأنوس عند الكتاب . وحكمنا بعدم فصاحتها ، بل حكمنا (اذا كانت على هذه الدرجة من الغرابة) برفض استعمالها وعدم سوغيته اصلاً " (٢)

اما قوله حول البلاغة ، فانه ينقل شيئا يتصل بمقتضى الحال عن عقود الجمان للسيوطي ، ثم يعقب عليه بملاحظات دقيقة تتجلى بدقة فهمه ووعيه قيمة الدرس البلاغي ، وهو مما سيفصله بشكل منهجي في " فلسفة البلاغة " .

ولنسمعه في تعليقه على السيوطي ، حيث يقول :

" على اني أرى ان ماذكره هذا الكاتب الشهير ، انما هو شروط كمال لابد منها في الكلام البليغ . والبلاغة وان كانت تقتضيها جميعها ، هي امر آخر من ورائها ، مرجعه الى امر في الذهن قائم بارتباط الافكار بعضها ببعض ، وسردها على وجه مخصوص يفهم منه كنه المراد والمحيطات به ، مما يريده المتكلم او الكاتب على اخصر طريق واسهله بحيث لا يتكلف ذهن السامع او القارئ شيئا من العناء ، واجهاد الفكر ، مما يمكن ان يكون في غنى عنه ، ولا يضيع عليه ايضا ، مع هذا ، شيء من ايجاد الاثر المقصود على اشده في النفس . اذا كان المقام خطابيا ، او التمكين (مع) الوضوح اذا كان المقام علميا او فلسفيا ، وهذه الغاية تقتضي بطبعها الشروط التي ذكرها العلامة السيوطي كما قدمنا " (٤) .

وهنا يربط ضومط هذا الكلام الذي ذكره حول البلاغة بفكرته التي اشار اليها في وجوب النظر الى جميع النص . وهي فكرة جديرة بالاهتمام ، وبخاصة ، اذا عرفنا ان ابحاث البلاغة توجه عنايتها في الدرجة الاولى الى جزئيات لا تتعدى الجملة .

---

(١) الخواطر الحسان ، ضومط ص ١٤

(٢) = = = ص ١٥

(٣) لعلها (من)

(٤) خواطر الحسان ، ضومط ، ص ٢٢ .

./.

وهو يقول في هذا الصدد :

" والحق ان متعلق البلاغة انما هو في المقالة او الكتاب برمته ، لا في الجملة المفردة او القطع الواحدة . وليكون الكاتب بليغا لابد من ارتباط الجمل بالقطعة والقطعة بالمقالة او الفصل ، والفصول بابحاث الكتاب على الجملة ، ثم لابد من ان يكون الارتباط والترتيب المخصوص على ماذكرناه ، ويؤدى الى الغاية التي اشرنا اليها .

ثم يقول :

" ولا يخفى ان الارتباط يكون باعتبار الزمان والمكان ، او الاستصحاب والعلة والمعلول والغاية والصورة والمادة والوهم والتخيل الى غير ذلك .

" والكاتب البليغ من احسن جميع هذه الاعتبارات ، وربط بين جمله وقطعه وفصوله على مايقتضيه الحال بانسب الروابط وادلها على الغرض المقصود بجميع اعتباراته ومحيطاته عليها أشرنا . "

ودليل المؤلف في " ان متعلق البلاغة انما هو في المقالات المستقلة بموضوع بخصوصه ، او في الكتب المشتملة على مسائل علم من العلوم ، او فن من الفنون بجملته ، انما هو مانراه من تعدد المؤلفين والكتاب في الموضوع الواحد ، وتفضيلنا مايكتبه الواحد على مايكتبه الاخر ، على حين يكون كل من الكاتبين اماما في اللغة . واذا تتبعنا ماكتبوه لم نجد في احدهما نقصا او اخلالا في المقامات التي ذكرها العلامة السيوطي من توكيد وتركه ، وذكر وحذف . وتنكير وتعريف ، وفصل ووصل ، وايجاز واطناب . بلى ، قد نرى بعض الاختلاف بين ايجاز واطناب ، الا اننا نحكم بالذوق ان ليس شيء منهما بذاته (داع) (٢) الى الحكم ببلاغة المقالة او الكتاب ، بل قد نكتفي بايجاز الواحد ولا ننكر اطناب الاخر ، مع بقاء الحكم بان هذا المؤلف ابلغ من ذاك . وليس هذا الا لاحكام الارتباط بين قطع هذا المؤلف وفصوله دون ذاك ، وترتيب مخصوص في هذا دون ذاك يكون معهما الكتاب الذى الفه زيد ابلغ من الكتاب الذى الفه عمرو ، وبالضرورة اكثر قبولا منه عند القرّاء ، واوقع في نفوسهم " (٣) .

---

(١) الخواطر الحسان ، ضومط ، ص ٢٢

(٢) هكذا في النص ، والاصح (داعيا)

(٣) الخواطر الحسان ، ضومط ، ص ٢٢ - ٢٣ .

./.

هذا ويتطرق المؤلف تحت عنوان " الايجاز في المقالات والرسائل " الى ذكر الايجاز في المقالة ، اى الى تناول العمل الادبي كله ، بايجاز شديد ، لانه معنى هنا كالقدامى بالايجاز في الجملة ، فيعتبر " هذا النوع من الايجاز هو العمدة وعليه مدار البلاغة في الحقيقة ، والفرق بينه وبين مامر انما هو في الجملة الواحدة ، بمعنى ان تخلو من كل كلمة يمكن الاستغناء عنها وهذا في المقالة او الرسالة بمعنى ان تخلو من كل جملة يمكن الاستغناء عنها في كل جملة من جمله على جدتها ان تخلو من كل حشو لا فائدة منه " (١) .

اما كتابه (فلسفة البلاغة) الصادر سنة ١٨٩٨ فهو من خير الابحاث البلاغية درسا وتطبيقا التي اخرجت في لبنان خلال القرن التاسع عشر كله . والكتاب ، يمثل خطوة تجديدية في الدرس البلاغي ، بعيدة كل البعد عن التقليد الاتباعي ، ومهما قيل في امر افادة المؤلف من اراء الكتاب الاجانب كـ " هربرت سبنسر " وهو ما اشار اليه المؤلف نفسه ، (٢) فان تطبيق مبدأ عام ، وهو مراعاة ذوق السامع ، على ابحاث البلاغة العربية كلها في شكل نظرية شاملة ، تناولت مبدأه في قسمين :

— الاول : يرجع فيه ابحاث البلاغة الى فكرة الاقتصاد على انتباه السامع .
— والثاني : يرجع فيه ابحاث البلاغة الى فكرة الاقتصاد على متأثرية السامع .

لمما يسترعي الانتباه ، ويدعو الى التقدير ، وبخاصة اذا عرفنا ان ضومط قد اجاد هذا التطبيق اجادة تنم عن رسوخ قدمه وتفهمه العميق لجزئيات تلك الابحاث التي عرض وكلياتها ، وعلى انه يرتكز في ذلك كله على الذوق والبرهان العقلي حقا ، كما ذكر في كلامه على ايجاد مبدأ عام تستند اليه جميع قواعد البلاغة .

" واذا لاحظنا ان هذا التطبيق عربي في جميع اعطافه واقسامه وانه تناول البلاغة في دائرتها العربية التي لاتعدو الجملة ، وان اتخذ مبدأ عاما واحدا في ادارة القول حولها ، كصنيع اصحاب النظريات ، من الفرنجة ، او حاول مرة في

---

(١) ص ٢٤ ، خواطر الحسان

(٢) فلسفة البلاغة ، ص ٨٨ .

./.

كلامه على تنسيق الجمل في القطعة ان يعدو دائرة الجملة مثيلا ، فان افادة صاحبه من مصادر اجنبية غربية لاتقلل من قيمته ، بل هي تدل على مايجب ان تكون عليه العلاقة الثقافية بيننا وبين الغرب ، حين نريد تطعيم افكارنا بشيء من افكارهم ، والتعبير عما في حياتنا من تيارات مختلفة " (١) .

ولم ينس ضومط في كتابه هذا فكرة مطالعة كتب البلغاء من العرب القدامى وقد عدها مهمة لدارس البلاغة ولمنشئها معا " وما قدمنا ما قدمناه الا تنبيها لك على اهمية مطالعة كتب البلغاء والنظر فيها نظر مراجعة وتأمل حتى لا يفوتك شيء من معانيهم ولا من الفاظهم وعباراتهم ولا من الاساليب التي يتوخونها للوصول الى مقاصدهم . فانك اذا اغفلت ذلك واعتمدت على مجرد معرفة اسباب البلاغة والمبادىء التي ترجع اليها في كتب القوم لم تفدك هذه المعرفة " (٢) .

وقد بلغ من شدة التنبيه للمبدأ العام ، الذى طبقه على ابحاث البلاغة ان حاول تطبيقه كذلك على اطراف من الشعر ، وبخاصة مارآه من فروق بين الشعر والنثر (٣) ، فكان في ذلك ملحقا الشعر ، والشاعرية والفرق بين الشعر والنثر بالبلاغة .

وعلى هذا ، يكون ضومط قد حدد الغاية من كتابه في اهتمامه لقوتي السامع اذا سمع العبارة الكلامية ، قوة الفهم او الادراك ، وهو مدار القسم الاول حيث ارجع ابحاث البلاغة الى فكرة الاقتصاد على انتباه السامع ، وقوة للتأثير والانفعال ، وهو مدار القسم الثاني الذى اراد فيه ارجاع ابحاث البلاغة الى فكرة الاقتصاد على متأثرية السامع .

ويرى ضومط ان الموضوع لايوفى حقه " اذا اغفلنا الكلام عن الاقتصاد على المتأثرية ، لان الاقتصاد عليها ان لم يكن اهم من الاقتصاد على انتباه السامع فهو مساو له " (٤) .

---

(١) تاريخ النقد في لبنان ، هاشم ياغي ، ص ٢١٥
(٢) فلسفة البلاغة ، ص ١١ — ضومط ،
(٣) = = ، ضومط ص ١٢٥ .
(٤) = = ، = ص ١٤٣ .

٠/٠

ولمزيد من التيقن في العمل التطبيقي ، يعمد ضومط ، الى جلب شواهد منتقاة في التعريف البلاغي ، تؤكد ماوصل اليه من فهم خاص وتدعم نظريته الذوقية هذه . آملا ان يتوصل على اضوائها الى دعم نظريته الذوقية هذه ، و" الى مبدأ البلاغة وضابطها الكلي الذى تتفرع عنه جميع قواعدها " (١) فيذكر ماقاله عبد الحميد بن يحيى من ان البلاغة " تقرير المعنى في الافهام من اقرب وجوه الكلام " ثم ماقاله بعضهم من أنها " التقرب من البعيد ، والتباعد من الكلفة والدلالة بقليل على كثير " وما قاله ابن المعتز من ان " البلاغة البلوغ الى المعنى ولم يطل سفر الكلام " وما قاله احدهم من ان " البلاغة ايجاز في غير اعجاز واطناب في غير خطل " وما قاله اليوناني والفارسي وغيرهما من تعريفات لاتبتعد عن الغاية المرجوة من الاختيار الذى حدد الكاتب مداره العام ومايتعلق ونظريته المذكورة . وهذا ما اتضح من استنتاجاته حيث قال : " فاذا تأملت هذه الاقوال ، والتعاريف وجدت من ورائها جميعا هذا المبدأ وهو :

" الاقتصاد على انتباه السامع " ويفسره بقوله : " بمعنى الا تلجئ الذهن في انتقاء مفردات جملك ولا في تنسيقها وسائر مايتعلق بها الى صرف ماهو في غنى عن صرفه من قوة انتباهه لادراك المعنى المقصود بها " (٢) .

وعلى هذا فاللغة عنده " آلة لنقل الافكار " (٣) يصدق عليها (" مايصدق على الالات الميكانيكية من انه كلما كانت اجزاؤها ابسط تركيبا واتقن ترتيبا زادت فاعليتها وانتفع من القوة المستخدمة هي في نقلها وايصال اثرها . وكلما ضاع من القوة فيها اما لكثرة اجزائها او لعدم المناسبة بينها او لاخلال في وصفها وترتيبها نقص على نسبة ذلك من تأثيرها ونتيجتها " . فلا يكون للقارئ او السامع من ثم ، في كل هنيهة مسيئة الا مقدار معين من قوة الانتباه ، وهذا المقدار لابد من صرف جزء منه في سمع الكلمات واحضار صور المعاني الموضوعة بازائها ولا بد ايضا من صرف جزء آخر منه في ترتيب تلك الصور بحسب مالها من العلاقات بعضها ببعض ، وما بقي من تلك القوة فينفق في تحقيق الفكر المودع في الجملة

---

(١) فلسفة البلاغة ص ١٢
(٢) = = ص ١٢
(٣) = = ص ١٣ .

./.

وتثبيته في الذهن " وعليه فبقدر ما يزيد هذا الباقي الاخير تزيد صورة الفكـــر وضوحا ورسوخا في الذهن فيكون من ثم اثره في تحريك النفس اقوى وافعل ايضا " (١) ويستغرق ضومط في شرح هذا المفهوم الذوقي للبلاغة ، حتى يستوفي المعنى في قول يشتمل على ماوضعه في الكتاب من فصول ، دون ان يغفل عن دور البلاغي في تنميق تلك الصورة من الانشاء او هندستها ، يقول في هذا : " لابد لمهندس البلاغة من النظر في آلته الكلامية والتحول بقدر الامكان في ازالته كل ماينقص قوة كلامـــه وشدة تأثيره :

ان من جهة الالفاظ اولا .

وتنميق هذه الاجزاء ثانيا .

ثم تنسيق الجمل التي لها مناسبة وتعلق ببعضها البعض ثالثا .

وحسن استعمال التشبيه والاستعارة وغيرهما من انواع المجاز رابعا .

فان في كل ذلك مجالا للكاتب ان يقتصـــد على انتباه السامع وبالتالي ان يكون لكتابته وقع في النفوس وتأثير فيها وفقا لما تقتضيه البلاغـــة " (٢) .

انطلاقا من هذا النسق العام ، يشرع ضومط في بحثه ، عاقدا فصله الاول على " الاقتصاد على انتباه السامع في اختيار الالفاظ " (٣) .

فينبه الى طبيعة انصراف الانتباه حين التلقي ، فيرى انها تتوزع بقوتين ، تصرف منه قوة على تلقي اللفظ وادراك مقاطعه ، وقوة ثانية على استحضار معناه لدى الذهن .

وهذا مايستلزم بالضرورة ، سهولة اللفظ وقلة الحروف في الكلمة ، لينصرف الانتباه من ثم ، الى استيعاب المعنى المراد منهـــا .

ثم ينتقد ماذهب اليه البيانيون ومن بعدهم الشعراء المتأدبون ، من تشدد على رفض استعمال الفاظ كالمستشزرات والنقاح بدل المرفوعات والعذب وعلى من يأتي بالطلخاء دون الحمقاء " (٤) مبديا ثلاث ملاحظات مهمة :

---

(١) فلسفة البلاغة ، ص ١٣
(٢) = = ، ص ١٣ و ١٤
(٣) = = ، ص ١٥
(٤) = = ، ص ١٦ .

./.

" اولا : اذا لم يكن لك من اللفظ مايؤدى المعنى الذى تقصده الا مثل هذه الالفاظ اصبح من باب الضرورة استعمالها بخلاف ما اذا كان هنالك لفظ ، كالجرشي والنفس مثلا فان العدول الى استعمال الجرشي بدلا من النفس ضرب من العيّ او التقعـر .

" ثانيا : لاينبغي ان يلتبس عليك الفرق بين جزالة اللفظ وعسر التلفظ ، او كراهته في السمع فتحسبهما من باب واحد ، فانهما متباينان جدا كخلق الله الانسان ضعيفا ، ويراه . " والفارق بين جزالـــة اللفظ وبين كراهته في السمع انما هو حسن الذوق(٢) .

" ثالثا : اذا كان المقام مقام استعظام او مقام مدح او ذم او مقام تمني او ترجي (١) او تأسف ، او تحسر واشباه هذه من الانفعاليات، فاختيار المفخمة من الالفاظ على الرقيقة والكثيرة المقاطع على قليلتها اولى وانسب ولا سيما اذا كانت تلك الالفاظ هـــي العمدة في الدلالة على تلك المعاني المسوقة لها الجملة "(٣)

ويذكر امثلة توضح ماذهب اليه ، كقول المتنبي :

يطأن من الابطال من لاحملنه ومن قصد المرّان مالايقـوّم .

" فانه لو قال لا " يدسن من الابطال بدلا من يطأن ماكان لها من الوقع ماتراه للفظة يطأن مع ان الدوس هو الوط" الشديد " (٣) .

ويعقب ذلك بقولة دقيقـة :

" وربما يخال في اول الامر ان هذا مناقض لما قدمناه من مبدأ الاقتصاد على انتباه السامع .

---

(١) هكذا في النص . وهي (تمن او ترج)

(٢) فلسفة البلاغة ص١٧ .

./.

... الا ان النقد الصحيح يري المتأمل انطباق كل ذلك عليه وسببه ان الالفاظ المفخمة لها دلالتان : دلالة (بوضعها) "١) او بجوهرها على المعنى المراد ، ودلالة بطبعها او بصفتها على المبالغة في ذلك المعنى .

اذن يتنبه بوضع اللفظة الى معناها ، وبنفس ذلك الوقت يتنبه بفخامة لفظها الى فخامة المعنى المدلول عليه بها او المبالغة فيه ، وفقا لما يريد المتكلم ومن الواضح ان في ذلك اقتصادا .

وما يصدق على الالفاظ المفخمة يصدق على الالفاظ الكثيرة المقاطع ، فانه يتهيأ معها للمتكلم ان يكيف صوته بها بما يصور العظمة او المبالغة " (٢) .

ويفصل الكلام بعد ذلك في المعاني التي تقبل المبالغة والمعاني لا تقبلها ، فيحصر المبالغة في الذهنيات المعنوية لا في الماديات الحسية . "فالجبل مثلا لانه من المعاني المحسوسة لا يقبل المبالغة باللغة الطبيعية ، لان لكل جبل علوا معينا واتساعا معينا ، وكذلك الفاقة .. بخلاف الحزن والفرح فانهما نوعان من الوجدانيات يتفاوت كل منهما في الشدة والضعف " (٣) وماكان من هذا القبيل كالتمني والترجي والتندم .

ثم يوضح انه يفضل في انتقاء الالفاظ ، المألوف على غير المألوف ، من حيث المأنوس والمتداول في التعبير بين الكتاب والقراء .

— اما الفصل الثاني " الذى عقده حول الاقتصاد على انتباه السامع في وضع الالفاظ في الجملة " فأهم ماورد فيه ، تلك الملاحظات التي ابداها ثم بينها بامثلة من الشعر والنثر من وجوب تقديم الصفة على الموصوف لطبيعة العلاقة في القيود والمقيدات المفردة . يقول : والذى نريد الاشارة اليه : انما هو ذكر بعض ملاحظات اذا نحن راعيناها كنا اقرب الى الاصابة في ترتيب العبارة اللفظية بحيث تطبق على الصورة الذهنية .

واول ما نبدأ به القيود والمقيدات المفردة .

---

(١) وردت خطا في النص ، (بوضعها)

(٢) فلسفة البلاغة ، ص ٢١

(٣) = = ، ص ٢١ .

./.

ومنها الصفة والموصوف (وليست الصفة النحوية فقط ، " بل ما يكون قيدا للموصوف يبين على الحقيقة صفة من صفاته ، او حالا من احواله المعنوية " (١)

وبيانا لما ذهب اليه من القيود والقيدات المفردة ، ومنها الصفة والموصوف لها طبيعة توجب تقديم الصفة على الموصوف يقول قائلا " اى التركيبين ابلغ اذا لم يمنع مانع من احدهما : (اقدمت سود الرايات مثلا ، ام اقدمت الرايات السود) فان لفظة (سود) صفة في المعنى للرايات تقدمت عليها ام تأخرت عنها " ص ٢١

فيجيب : " قلنا الدليل يرجح الاول على الثاني " وحجته في ذلك لسببين : اولا " ان الصفة اعم والموصوف اخص واذا اجتمع الاخص والاعم وتساوت في تقديمها وتأخيرها سائر الاعتبارات الاخرى . فالاعم اولى ان يقدم على الاخص لانه يهيء الذهن لتصور الاخص .

ثانيا : ان الموصوف لا يدرك الا بالصفة بمعنى ان ما نلحظه من الموصوف اولا ، انما هو الصفة كاللون والشكل فتقديم الصفة اذن طبق لصورة الادراك الحقيقية عند الذهن ، فهو اذن ابلغ " (٢) .

وبعد مزيد من الادلة على نظرية وجوب تقديم الصفة على الموصوف ، يخلص ضوء الى ابداء ملاحظتين مهمتين :

الملاحظة الاولى : " ان اللغة لا تطاوعنا دائما على تقديم الصفة لانها رسخت على صور وهيئات . ان اقدمنا على هدمها حبا بالاقتصاد انعكس بنا الامر الى الاسراف ومن ذلك هذه النعوت الجملة فانه لابد فيها من ضمير يربطها بالمنعوت وهذا الضمير لما كنا قد اعتدنا الخصوصية في اللغة وطول الالفة بها ان فرده الى متقدم اصبحنا لا نلحظ رجوعه الى المتأخر الا بعد ان يعيينا التفتيش عنه في الكلام المتقدم .

---

(١) فلسفة البلاغة ، ص ٣٠ - ٦١

(٢) = = ، ص ٣١ .

./.

وفي ذلك اسراف في انفاق قوى الذهن لغير طائل ، ومعاكسة لمبدأ البلاغة لانه يزيد على الاقتصاد الحاصل من تقديم النعت فصار اذن من ضرورة البلاغة ان نقدم المنعوت " (١) .

ـ الملاحظة الثانية : " ان من الصفات مايتقدم ادراكها في الذهن على الموصوف ومنها مايتأخر . ويمثل ذلك بقوله : " فطول القامة وحسن الوجه .. وما شأن ذلك من الصفات المقارنة لموصوفاتها هي مما تسبق صورها في الذهن على صور موصوفاتها " . (٢) .

ومن باب الصفة والموصوف ، الفاظ التوكيد واسماء الاشارة ، فيرى ان الوجهة الابلغ تقتضي بان تتقدم على المؤكد والمشار اليه ، كتقديم لفظ التوكيد ، (جميع) في " خرج اليه اهل اورشليم وجميع الكورة المحيطة بالاردن " . فانها ابلغ منها مع تأخيره " (٣) .

وفي الفصل الثالث ، يتناول ضوط مبحث الفعل وقيوده وسبب ، ليفصل القول في تقديم السبب الذى من اجله يقع الفعل ، ومتى يتأخر ، ثم في المجرور والمفعول به وتقديمها ومتى يجوز تأخيرهما ، ثم في تقديم زمان الفعل ومكانه .

ومع ان جل هذه المباحث ، قديم ، فان ضوط يبقى شديد الحذر من ظن ظان بما اقدم عليه ، وكأنه سطوة التقليد مازالت تهدهد فوق رأسه ، بدليل قوله : " وغاية مانقوله ان اللغة قد جرت مع الايام على صور معينة ، ورسخ فيها كثير من تلك الصور على هيئات اصبح تغييرها صعبا او مستحيلا ، ولذلك فقلما نطمع الان في ان نطابق دائما بين الواقع المتبع من الاوضاع وبين الاحكام النظرية التي ذكرناها آنفا من تقديم القيود على المقيدات مطلقا .

"والمعول عليه عملا انه اذا تهيأ لك من غير كلفة ولا تعقيد ان تقدم على الفعل والموصوف بعض قيودهما او كلها فقدم ما اكتب لك من غير تخوف ولا تحرج فان النظر

---

(١) فلسفة البلاغة ، ص ٣٦

(٢) = = ، ص ٣٦

(٣) = = ، ص ٣٧ .

./.

العقلي يقضي لك به " (١) ٠

ففي هذا القول ملاحظة جيدة لكنها مرنة تسير في حذر وقلق شديدين ٠

اما الفصل الرابع ، فعقده الكاتب حول قيمة التنسيق بين جزئي الجملة المسند والمسند اليه ٠ ويرى ان تنسيق الموصوف والصفة والفعل ومشتقاته تساوق تنسيق مفردات كل من المسند اليه والمسند اذا نظر الى كل منهما على حدة ، ثم ينظر في تنسيق المسند والمسند اليه اذا اجتمعا معا ، ويقول " والكلام هنا ليس الجواز وعدمه ، بل في اى التنسيقين اكثر بلاغة في جميع المواطن حيث لا يقتضي استعمال للغة وتقاليدها ، الراسخة تقديم احد الجزئين على الاخر ٠

ويرى ضومط دون ريب ان مقياس البلاغة راجع الى أى التنسيقين اكثر اقتصادا على انتباه السامع ، وباختصار اى التنسيقين اكثر انطباقا على الصورة الذهنية المدركة عند العقل ٠٠٠ " (٢) ٠

منتهيا الى تقرير ان " تقديم المسند على المسند اليه هو الموافق في اغلب المواقف للبلاغة ولمبدأ البلاغة ، اعني الاقتصاد المشار اليه " (٣) ٠ ممثلا لذلك بشواهد كثيرة كقول الشاعر اشجع بن عمرو السلمي :

قصّر عليه تحية وسلام ... فيه لاعلام الهدى اعلام
نشرت عليه الارض كسوتها التي ... نسج الربيع وزخرف الاوهام

و (قصر) وهو المسند . لتوجه التفات الذهن اليه ، ذكر اولا ، بل اقتضت البلاغة ذكره وحذف المسند اليه ايضا ٠

" وهذا شأن كبار الشعراء ، فانك ترى الغالب في (كلامهم) انه يتقدم المسند على المسند اليه ولا سيما في مواقف التهييج والانفعالات " (٤) ٠

الا ان ضومط يستدرك ، فينبه الى ان ماذهب اليه من شرح للقاعدة يرد في الغالب وليس دائما ٠

---

(١) فلسفة البلاغة ص ٤٠
(٢) اى تنسيق المسند والمسند اليه ، وما تكلم عنه في تنسيق الموصوف والصفة والفعل ومتعلقاته ٠
(٣) فلسفة البلاغة ، ص ٤١
(٤) = = ، ص ٤٤ ٠

٠/٠

وفي كلامه بعد هذا ، على تنسيق الجملة الشرطية ، يرى ان يتقدم لفظ الشرط على لفظ الجواب ، حتما تقتضيه البلاغة ، وهذا احد الامثلة التي اوردها وانتقدها وفق ما ارتآه ، من اسس سابقة في التنسيق ، فهذا قول الشاعر : (١)

ولو ان ليلى الاخيلية سلمت علي ودوني جندل وصفائح
لسلمت تسليم البشاشة اوزقما اليها صدى من جانب القبر صائح

فلا يرى فيهما سلامة الانشاء لعدم استيفائهما شروط البلاغة في التنسيق وذلك لثلاثة اسباب :

— اولا : انه كان عليه تقديم الحال وهو قيد .
— ثانيا : انه كان عليه تقديم الفعل وهو المسند .
— ثالثا : فيهما لفظة زائدة عن الحاجة وهي لفظة "صائح" (٢) .

ثم يعمد من ثم الى نثر البيتين امتحانا منه لقيمتهما البلاغية ، انطلاقا من المبدأ القائل "ان شعر البليغ لاينثر" (٣) ولا يرى ذلك في البيتين السابقين ، مما جعله يقرب "انهما لاينطبقان على القواعد التي مرت" (٤) . ويقابلهما بعد ذلك ، بقول المتنبي : ان كان سركم ماقال حاسدنا فما لجرح اذا ارضاكم الم .
منتهيا الى القول بصعوبة نثر البيت : "مهما تكلفت فالبيت اذا نثر لايمكنك ان تغير اوضاعه كما هي عليه واذا ميزتها انقلب الكلام الى الركاكة ويعلل ذلك بقوله : لانه (اى المتنبي) قدم الشرط وأخر الجواب ، ثم قدم المسند على المسند اليه في كل من الشرط والجواب .

"ولما كان تقديم الحال (اذا ارضاكم) لاتؤذن به اللغة وضعه اقرب مايكون لصاحبه . اما تنسيق الجمل المتعددة في القطعة (٥) ، فيقول فيه :

---

(١) فلسفة البلاغة ص ٥٣
(٢) = = ص ٥٤
(٣) = = ص ٥٤
(٤) — = ص ٥٤
(٥) = = ص ٥٧ .

./.

" لنا هنا ملاحظة اخرى خارجة عن تنسيق الجملة الواحدة ، ولكنها غير خارجة عما يوجب البلاغة ، وهي تنسيق الجمل . فكما ان الجملة الواحدة لا يوافق البلاغة فيها ان تنسيق كان ، بل لابد من تنسيق يصور المعني المراد منها على اخصر طريق واسهله ، (و) (١) هكذا الجمل المتوالية لابد من تنسيقها ، بحيث يكون فهم مجمل المعنى المراد منها يدركه العقل ، مع اقل تعب ممكن ، وهنا لابد من انطباق الصورة اللفظية الكلامية على الصورة المعنوية الذهنية . فان هذا الانطباق هو (كما رأينا) سر من اسرار البلاغة ، بل هو ركنها الذى تستند اليه " (٢) .

وبعد ان يبين هذا القول ويوضحه يستدرك في فصل طويل عنوانه " التنسيق القريب والبعيد والمتوسط " (٣) .

يرى ضوط ان التنسيق القريب فطرى في الشعراء ، وكبار الكتاب او في الاذهان المتوقدة .. ويكثر في كلامهم اذا تحركت نفوسهم وجاشت خواطرهم .

اما مايريد في التنسيق القريب فهذا " ماتقدم فيه الصفات على الموصوفات ، والقيود على المقيدات ، والمسند على المسند اليه ، وفعل الشرط على جوابه ، والجمل الثانوية او شبهها على ماهي قيد ، او شبه قيد له في الجملة الاصلية .

اما التنسيق البعيد فهو ذلك التنسيق الطبيعي عند كافة الناس . ولا سيما اذا لم تكن اذهانهم متنبهة او على شيء من النشاط والارتياح " بدليل انه بديهي عندهم غالب في جميع مناحي كلامهم " (٤) . ويرى بالتنسيق البعيد ماكان على عكس القريب .

اما التنسيق المتوسط ، فيرى انه عمدة الخطباء والشعراء " وعليه معول الكتاب البلغاء " .

---

(١) الواو غير مذكورة في النص الاصلي .

(٢) فلسفة البلاغة ، ص ٥٧ و ٥٨

(٣) = = ، ص ٦٣

(٤) = = ، ص ٦٣ .

./.

"وهـو ماتوسط بين القريب والبعيـد ، فلا تتقدم فيه القيود كلها علـى المقيدات ولا تتأخر كلها عنها " (١) .

ويعقب كلامه هذا بامثلة توضيحية ، وشواهد عملية ، تناولها مرتبـة بمجموعات ثلاثية تقابل تنسيقه المتوالي للقريب فالبعيـد فالمتوسط ، مقارنا بينها عسى أن ينتهي المطالع بحكم من تلقاء نفسه ، فـ " شهادة ذوقه امكن في النفس واقرب الى حكم البلاغة " يقول في احد نماذجـه .

(١) ايها السيد الكريم ، اننا كلنا اجمعين في هذا اليوم المبارك لك ، بدوام البقاء والترقي ندعو .

(٢) ايها السيد الكريم اننا ندعو لك كلنا اجمعون في هذا اليوم المبارك بدوام البقاء والترقي .

(٣) ايها السيد الكريم اننا كلنا اجمعين ندعو لك في هذا اليوم المبارك بدوام البقاء والترقي .

ثم يعلق بقوله : " رتب كل صورة في بابها على افضل ترتيب تراه فيبقى الحال على ماترى امامك من ان الصورة الثالثـة اسهل فهما والطف في النفس موقعا " (٢) .

وفي فصل واسع يورد ضوابط رأيه في انواع المجاز ، ويبين " انها انما يحسن وقعها اذا انطبقت على مبدأ الاقتصاد " (٣) .

ويعالج في انواع المجاز :

١ـ التشبيـه (٤) : حيث يوضح ان التشبيه في كل صوره العالية الواقعة مواقعها فيه اقتصاد على انتباه السامع ، ويرى ان تقديم المشبه به ابلغ الا اذا " لم يعارض في التقديم مانع " (٥) .

٢ـ ترشيح التشبيه : وهنا يبدو اثر نقله عن الفيلسوف " هربرت سبنسر " فيقول معلقا على قولـه له :

---

(١) ـ ٢ و ٣ ص ٦٤
(٢) فلسفة البلاغة ، ص ٦٦
(٣) = = ، ص ٧٣
(٤) = = ، ص ٧٣
(٥) = = ، ص ٨٥ .

./.

وقد تغالى الفيلسوف هربرت سبنسر في مدح هذا الضرب من الكلام ، لما فيه من الاختصار والاقتصاد على انتباه السامع ، وذكر ان من احسن من اجاد هذا النوع من العبارة امرسون الكاتب الاميركاني الشهير [illegible] في خطابه الاول من الزمان ٠ تلك القطعة

وقد اورد الفيلسوف الانكليزي شاهدا ، الا انها لما كانت عريقة في البلاغة الانكليزية تركت ترجمتها مخافة ان اخرجها عن صورتها الاصلية ٠ ولكني رأيت قطعة في الجزء الرابع من احياء علوم الدين للامام الغزالي ، هي في حسن استعمال هذا النوع اعلى طبقة من قطعة امرسون كما يتحقق ذلك لعارف بالانكليزية والعربية اذا قابل بينهما " ٠ (١) ٠

هذا ، ويعني ضومط بترشيح التشبيه ، ذلك الضرب من الكلام الذي يبدأ به الكاتب بالتشبيه بذكر طرفيه ثم يوهم تناسي احدهما واكثر مايكون المشبه ويأخذ في ذكر احوال المشبه به ، كأن ليس في الكلام غيره " الا ان هذه الاحوال يلحظ العقل عند ذكرها ان لها مايقابلها في المشبه " ٠

كقول احدهم " فمثال المال مثال الحية التي فيها ترياق نافع وسم ناقع فان اصابها المقزم الذي يعرف وجه الاحتراز عن سمها وطريق استخراج ترياقها النافع كانت نعمة ، وان اصابها السوادي الغر فهي عليه بلاء وهلاك " (٢) ٠

فقد ذكر المشبه (المال) والشبه به (الحية) ثم تناسى المشبه واخذ يذكر ما يختص بالمشبه به " الا ان العقل يلحظ ان هذه لها احوال تقابلها في المشبه " ٠

٣ـ اما في كل من الاستعارة والمجاز المرسل والكناية ، فهو يسعى نحو توضيح سر البلاغة مرجعا اياه الى الاساس الذي بني عليه كتابه وهو الاقتصاد ٠

ملحق القسم الاول

وقبل ان ينتقل ضومط الى القسم الثاني من مبدئه العام في ان البلاغة تكمن في الاقتصاد على متأثرية السامع ، يعقد فصلا حول الشعر ، متناولا فيه اربعة مباحث هي على التوالي ،

---

(١) فلسفة البلاغة ، ص ٨٨

(٢) ص ٨٩ ٠

٠/٠

١ـ ماهـو الشاعـر (١)

٢ـ تحديـد الشعـر

٣ـ ما الذى يدخل في صناعة الشعر ويمكن للشاعر اعتماده على انه من مواد صناعته • (٢) •

٤ـ لماذا الشعر ابلغ من النثـر •

ونورد هنا رأيه في الشاعر لما فيه من ملاحظة واعية بالعمل الشعرى ودور الشاعر • حيث يرى ان الشاعر هو من "يشعر بما لا يشعر غيره من المناسبات بيـن المعاني" ، وبين هذه "وبين العبارة الدالة عليها" ، فضلا عما يشعر به من مناسبة المعاني وعبارتها لمقتضى الحال في الزمان والمكان كما عليه ان يشعر بالمشابهـة حيث لا يرى غيره الا المنافرة والمضادة •

" وبعبارة اخرى نقول : ان الشاعر يرى نفسه في الطبيعة وما فيها مـن صور الموجودات ، ويرى الطبيعـة تتخيل في نفسه بصورة الاحساسات والانفعالات ليس بين صور هذه في نفسه وصورها في المرآة • الا ان هذه محسوسة بالحـس الظاهر ، وتلك من المعاني والوجدانيات " (٣) •

ولعل اهم ماورد في هذه الملحق حديثه عن الشعر " ولماذا كان ابلغ مـن النثـر " (٤) ويجيب على ذلك برجوعه الى مبدئه العام الاول وهو الاقتصاد على انتباه السامع " مبدأ البلاغة الاصلـي " •

فيقول : " ان الاقتصاد في الشعر اكثر مما هو في النثر ، فلذلك هو ابلـغ واليك بيان ذلك :

" الفارق بين النثر والشعر امران ، احدهما معنوى والاخر لفظي •• اما " الفارق المعنوى المترتب على طبيعة الشاعر ، وعلى الحالة التي يكون عليها عند النظم ، فهو قائم بامور ثلاثة يكثر وروده في الشعر اكثر مما ترد في النثر وهي :

---

(١) ص ١١٤
(٢) ص ١٢٨
(٣) ص ١٢١
(٤) ص ١٣٩ •

• /•

اولا : الايجـاز

ثانيا : كثرة التشابيه والكنايات وسائر انواع المجاز والاستعارة ٠

ثالثا : كثرة ورود تقديم القيود على المقيدات ٠

وهنا يذكر ان الايجاز والمجاز وكثرة تقديم القيود كلها تبين ان الاقتصاد فيها على انتباه السامع اكثر من اضوارها ٠

ثم يوضح بمثالين : ان الفارق اللفظي ، وهو الوزن بين الشعر والنثر ، فيه اقتصاد اكثـر " ٠ (١)

هذا هو مجمل ما بحثه ضومط ، من مسائل بلاغية ، نظرية وتطبيقا ، وانتقادا في القسم الاول من مبدئه العام اى " الاقتصاد على انتباه السامع " مدار اهتمامه الاول لقوة الفهم او الادراك ٠ اما مدار اهتمامه الثاني المنحصر بقوة التأثير والانفعال عند السامع ، والمكمل لمبدئه العام فقد اجراه حول :

" البلاغـة في الاقتصاد على متأثريـة السامع " (٢)

ويوضـح قيمة ذلك فيقول ممهـدا :

" لا يقتصـر السامع اذا سمع العبارة الكلامية على ان يفهم معناها فقط ، بل هو يفهم معناها ، ويتأثر بها معا " ٠

ففيه اذن قوتان : قوة للفهم او الادراك ، وهو ما اردنا بانتباه السامع ، وقوة التأثير والانفعال ، وهو مانريده بالمتأثريـة " (٤) ٠

ثم يقول : " وعلى مانرى لا يوفى الموضوع حقه اذا اغفلنا الكلام عن الاقتصـاد على المتأثرية لان الاقتصاد عليها ان لم يكن اهم من الاقتصاد على انتباه السامع فهو مساولـه " (٥) ٠

---

(١) ص ١٤٠

(٢) صفحة ١٤٣ ٠

(٣) هكذا في النص وهي (للتأثير)

(٤) صفحة ١٤٣ ٠

(٥) ٦ ٠/٠

ويقرر مفهومه الدقيق لهذا المبدأ من خلال ملاحظات اربع يعمد بها لبحثه :

ـ الملاحظة الاولى : القوة المتأثرة اذا تأثرت ابتداء بمدرك من المدركات فلا بد ان تكون على حالة من القوة ، والضعف هي غير بعد ان تتأثر استئنافا بمدرك ثان غير الاول .

والبلاغة كما لا يخفى تتوقف على كيفية تأثرها استئنافا ، فانه ان بقيت التأثرات التالية شديدة استمر الكلام على بلاغته ، والا شعر السامع بركاكته وتبرم به"(١) .

ـ الملاحظة الثانية : " القوى العقلية والبدنية الفاعلة والمنفعلة هي في حالتها الطبيعية اقوى على العمل بدءا منها عليه استئنافا ، فاذا اشتغلت ضعفت"(٢)

ويستنتج ضوءا من هاتين الملاحظتين الاولى والثانية :

" ان على الكاتب التحول في كتابته والانتقال فيها من صورة الى صورة في سائر ما يأخذ به من ضروب الهيئات الكلامية ، لا يطيل في شيء مما يأخذ به من الوصف ، ولا يكثر من موالاة معنى بعينه من معاني مدح او ذم . ولا يستهويه نوع من انواع مجاز او مبالغة مهما حسن بنفسه ذلك النوع ، كما انه لا يتكلف ضربا واحدا من ضروب العبارة الكلامية او تنسيقا واحدا من تنسيقات الجملة ولا سيما في كل متحرك له النفس ويهيج من انفعالاتها .

فاذا "وصف فليذكر ان الوصف وان بلغ النهاية في الاناقة والجودة فله حد ، وكذلك المدح والذم وما اليهما " .

" كذلك فليحرص اذا انساق الى السجع او التوازن او الارسال الا يطيل المسجوع ولا يكثر من المتوازن ، ولا يستمر على ضرب واحد من ضروب المرسل " (٣) ويطبق ضوءا ما استنتجه هنا من هاتين الملاحظتين على الواقع والمشاهد في النصوص ، فيقول :

---

(١) ص ١٤٣

(٢) ص ١٤٤

(٣) ص ١٤٧ و ١٤٨ .

./.

" انظر في كتاب الكامل للمبرد ، والمقامات للحريري ، فان الغرض من الكتابين واحد الا ان القارئ لا يمل (من) مطالعة الكامل كما يمل (من) مطالعة المقامات " .

وبعد ان يذكر مزيدا من الامثلة التطبيقية ، يصل الى تعليق حول نص للامام الخفاجي فيقول :

" وليس انتقادنا هنا على الفاظ الامام رحمه الله ، فأنها منتقاة ، ولا على معانيه ، فانها واضحة ظاهرة ، ولا على نفس التشابيه ، والاستعارات ، انما الانتقاد موجه الى الاقتصاد على متأثرية السامع ، لان التشابيه والاستعارات (والغرض منها التزيين) كثرت وتوالت بدون فصل ، فاشتدت على القوة المتأثرة حتى فتر من نشاطها " (١) .

— الملاحظة الثالثة : " النفس اذا فعل عليها مؤثران احدهما ضعيف والاخر اشد منه ، وتوالى عليها المؤثران ، الضعيف اولا ، والاشد ثانيا ، شعرت بأثر المؤثرين كل على حدة ، وادركت ايضا نسبة احدهما الى الاخر بخلاف ما اذا سبق ورود المؤثر الاشد عليها . (٢) .

— ويستنتج المؤلف من هذه الملاحظة انتقاد الانتقال " من الحسن الى الاحسن ومن المنبه الى المؤثر ، ومن المؤثر الى المهيج ومن الواضح الى ما دونه في الوضوح " (٣) .

ثم يقول : " واما الخطباء في المحافل والمنتديات السياسية فمعظم بلاغتهم متوقف على الانتقال من منبه الى مؤثر الى مهيج ، حتى اذا وصلوا الى المهيج امسكوا عن الكلام ، وتركوا السامعين وشأنهم " (٤) . مستشهدا على ذلك بنصوص لشكسبير وطارق بن زياد .

---

(١) ص ١٥٢

(٢) ص ١٤٦

(٣) ص ١٥٣

(٤) ص ١٥٤ .

./.

ـ الملاحظة الرابعة : " الانتقال من احد الضدين الى الاخر يظهر كلا من الضدين في اشد مظاهرهما " (١) .

كـ " النقطة البيضاء في الرقعة السوداء يظهر كأنما زاد بياضها وكذلك السوداء في الرقعة البيضاء تظهر كأنما ازداد سوادها " (٢) .

اما استنتجه من هذه الملاحظة فيبدو من استهلاله بقول الشاعر :

ونذمهم وبهم عرفنا فضله وبضدها تتميز الاشياء

ثم بقوله " كما ان ذكر احد المتضادين او المتقابلين ينبه الذهن لادراك المضاد او المتقابل الاخر ، حتى اذا ذكر ادرك العقل صورته على غاية من الوضوح ، فكذلك الانفعال المصاحب لذكر احدهما ، يهيء النفس لمزيد التأثر من الانفعال المصاحب لذكر الاخر " (٣) .

ففي قول الشاعر :

لشتان مابين اليزيدين في الندى يزيد سليم والاغر بن حاتم
فهم الفتى الازدي اتلاف ماله وهم الفتى القيسي جمع الدراهم
فلا يحسب التمتام اني هجوته ولكنني فضلت اهل المكارم

" مقابلة زادت النفس كراهة ونفورا من الثاني ، وحبا وميلا الى الاول على ماهو ظاهر بشهادة الحس والذوق " (٤) .

---

(١) ص ١٤٦
(٢) ص ١٥٦
(٣) ص ١٥٧ .

وفي نهاية حديثه يزيد قائلا : " ان بين الاقتصاد على انتباه السامع وبين الاقتصاد على متأثريته نسبة كنسبة الفصاحة الى البلاغة ، كما لابد في البلاغة من مراعاة الفصاحة ، هكذا في الاقتصاد على متأثرية السامع لابد من مراعاة الاقتصاد على انتباهه .

اذا تم للكاتب مراعاة هذين الاقتصادين ، كان كلامه على اعلى طبقة من طبقات البلاغة " (١) .

" وبالاجمال يصدق (على الكاتب حينئذ) كل مايصدق على أهل الكائنات الحية من ان اجزاءها ، على تخالفها (وايجاب) كل منها اثرا خاصا به هي ايضا كاجزاء البدن الانساني ، كل منها مرتبط بصاحبه على اتم ارتباط وافضله ، بحيث يتألف من مجموعها (كما يتألف من مجموعه) وحدة كلية فيها دهشة للناظرين ، ومجال فكرة للمتأملين " (٣) .

---

(١) ص ١٥٩ .
(٢) هكذا في النص وهي (وايجاد)
(٣) ص ١٦٠ .

الفصـــل السابـــــع

مسائـل الصرف والنحو فـــي القـرن التاسع عشـــر في لبـــنان

ظهر في القرن التاسع عشر ، كتابان في الصرف والنحو ، اثارا عاصفـــة نقديـــة عنيفـــة ، كان من نتائجهـــا ان تحرك البحث النحوى ، وانفك من عقـــال جمود سيطر عليه عدة قرون سبقـــت بحثنا .

اما الكتابان فهما "غنية الطالب ومنية الراغب لاحمد فارس الشدياق" و "نار القرى في شرح جوف الفرا" لناصيف اليازجي .

١ـ كتاب "غنية الطالب ومنية الراغب"(١) لمؤلفه احمد فارس الشدياق :

يرى الشدياق ان الدافع الذى حدا به الى تاليف الكتاب هو انه لما رأى العربية متشعبة القواعد ، مبددة الفرائـــد ، وان كثيرين من ذوى الفهم والفطنة يحجمون لاجل ذلك من تعلمها مع حرصهم عليها وتشوقهم اليها ، خلج ضميره ، وشغل تفكيره (كلام بلغاء) ان يتصدى لتسهيل مصاعبها ، وتيسير مطالبها ، في مؤلف خال من التطويل ، والتعليل والتأويل . وانه الف لذلك هذه الرسالـــــة السهلة الترتيب ، الواضحة التبويب .. وانه يضمن للطالب ان يتناول الصرف والنحو في ثلاثـــة اشهر ، وعلل ذلك بعلل ، وفصل فيه تفاصيل خاصة .

هذا وقد قسم الشدياق كتابه الى ثلاثة اجزاء : الاول في الصرف والثاني في النحو والثالث في حروف المعاني . وكل منهم مشتمل على عدة دروس "فاذا تعلم الطالب منها في كل يوم درسا واحدا لم يمض عليه ثلاثة اشهر الا وقد احرز العلـم كلـه" .

---

(١) كتاب "غنية الطالب ومنية الراغب" للشدياق ، مطبعة الجوائب سنة ؟

كما يوضح انه استقى مصادره من كتب السلف ، الموثوق بعلمهم وفضلهم على العلوم العربية ، فيصرح باخذه عن شرح الشافية ، والشذور ، وشرح الالفية والكافية ، وشرح شواهد التحفة الوردية وشرح درّة الغواص والكليات .

يضاف الى هذه المصادر — جميعا — كتاب " بحث المطالب " للمطران جرمانوس فرحات ، الذى يعود اليه الفضل في وضع الحجر الاول في بنيان الفصحى في لبنان ، في اواخر القرن الثامن عشر .

ورغم ان الشدياق لم يصرح باستفادته من هذا الكتاب ، فاننا نعلم تمام العلم ان جرمانوس فرحات كان مثلا اقتدى به رجال القرن التاسع عشر . حتى ان كتابه " بحث المطالب " صار معينا تستقي منه الكتب النحوية عناوينها .

وعلى كل حال ، ما ان ظهر كتاب "غنية الطالب " لاحمد فارس الشدياق ، حتى اثار ضجة في النوادى الادبية ، فهب الشيخ سعيد الشرتوني يخطي" الشدياق في كتاب سماه " السهم الصائب في تخطئة عنية الطالب " فانبرى الشيخ ابراهيم الاحدب للرد على الشرتوني في كتب عنوانه : " رد السهم عن الصواب وابعاده عن مرمى الصواب بالتقريب " .

ولنستمع الى الشرتوني وهو يحكي لنا اسباب تخطئته للكتاب :

" وانما حملني على تخطئة هذا الكتاب اني لما رأيته قد شحن بالخلل والخطل ، وذهب فيه الفساد كل مذهب ولم يثبت فيه برهان ولا نقل ، لم يسعني الا ان انبه على مافيه من الاوهام والسقطات غيرة للعربية وخشية ان يفشو هذا الداء بين الطلبة ، اعاذنا الله واياه . (١) .

ويحدد الشرتوني — من ثم — طريقة العمل ، في انتقاده للشدياق ، حيث يستند في كل اعتراض على صحيح النقل عن اشهر ائمة العربية . معتمدا في ذلك اوثق الاراء — حسب رأيه — واصح الاقوال في المشهور . " دون مايقصد به مجرد التعنت من المذاهب المختلفة التي لم يعوّل عليها الجمهور . (٢) .

---

(١) كتاب السهم الصائب في تخطئة غنية الطالب ، لسعيد الشرتوني ، طبع في بيروت بالمطبعة الكلية سنة ١٨٧٤ ص ٩ .

(٢) نفس المصدر ، ص ١٠ .

./.

ويضيف الشرتوني على هذا ، فيقول :

"قبل الشروع في تخطئة الكتاب نقول انه لا بد لمن تعمد الاخذ على احد ان ينظر الى حيثية المأخوذ عليه ثم يعامل على قدر حاله . فمن كان من اهل التدقيق والتحري دقق عليه في المسائل وانعم النظر في كلامه . ومن كان يقذف بالكلام مجازفة من غير روية ولا خبرة اكتفى معه بايراد المسائل الباهظة والمآخذ الصريحة دون ما يقصر باعه عن البلوغ اليه . والا كانت التخطئة تعنتا في غير محله " (١) .

وعلى هذا يكون الشرتوني قد جرى في تخطئة الكتاب وفق رأيين اعتقد بهما :

اولهما : تنبيهه على ماكان مخلا باصول الصناعة مما يؤدي الى فساد قواعدها وذلك بايراد النصوص الصحيحة من كتب العلماء .

والثاني : ضربه صفحا عما كان مخلا بقوانين التأليف وصحة الايقاع مما يشير الى ضعف الشدياق في التأليف — حسب رأيه — وعدم مرونة على ايراد العلميات .

ويذهب الشرتوني الى ابعد من هذا ، فيرى انه لو اراد ان يتكلف الكلام على جميع مواضع الغلط في الكتاب لكان ذلك شيئا مملا ، اذ قلما تخلو عبارة عن النقد في وجه من الوجوه " .

ومن الطبيعي ان لا تمر اتهامات الشرتوني دون دفع من لغويين اخرين ، راوا في الشدياق قمة لغوية وادبية لا تجارى . فهذا الاحدب ، كما صرحنا ، يقوم بكتابه " رد السهم عن التصويب " برد افتراءات الشرتوني ، مزلا عليه علمه وسلوكه . ونقتطف من مقدمة كتابه شيئا من هذا الرد ، لنرى منهج الاحدب ، ونقارنه من ثم بمنهج الشرتوني عبر امثلة من كتابيهما .

يقول الاحدب :

---

(١) نفس المصدر — صفحة ١٠ .

٠/٠

" اما بعد فاني مازلت منذ شعرت بمبادىء الفنون ، وورد ت من معين سلسالها ماتقربه العيون ، اتجنب الدخول في مصاف المناظرين ، واخلد عند قيام حرب المناظرة على ساقها ان اكون من القاعدين ..

" وطالما قرع سمعي تطاول قصير الباع ، عريض القفا ، بالتعريض ، ليقع مني عند المجادلة بجديد الكلام في الطويل العريض ، فكنت اتصام عن سماع الخنا مع اني اسمع من سمع ، واعرض عن التعرض لاولاد الزنا بما لا يطيب في سمع ، واغضي عن دعوى كل دعي في الاداب .. حتى وقفت على اعلان في احدى الجرائد البيروتية ، نشر به قائله مايخبث في السمع وتقبح به الطوية ، يتضمن احداث كتاب باسهال الزمان ، ولين طبع من نسب اليه حيث انقاد الى التأليف بدون عنان ... " (١)

ثم يمضي الشيخ الاحدب في الثناء على احمد فارس الشدياق ، شعرا ونثرا مكبرا ان يناله ناقد لاعلم له كالشرتوني .

وكأن ريح النقد هذا قد طابت للغوي ذلك القرن ، فقام اكثرهم شهرة ، كي يساهم في هذه المناقشة ، او المماحكة على وجه احق . فهذا كتاب جديد بعنوان " رد السهم للسهم " يصدره الشيخ يوسف الاسير ، دفاعا عن الشدياق ، ودفعا لادعاءات الشرتوني ، وسنذيل نقد الاحدب بشيء مما جاء في هذا الكتاب .

وسنتناول في الصفحات التالية بعض النقود التي جاءت في كتاب الشرتوني ثم نعقب ذلك برد الشيخ ابراهيم الاحدب ، وفق توزيع ثنائي ، يعصم البحث من الفوضى التي سادت ردود الناقدين ، مبتدئين — كالعادة — بالنقود الصرفية فالنحوية مختارين لذلك نماذج من الكتابين .

١ — النقد الصرفي :

انتقد الشرتوني ماجاء في " غنية الطالب " في الصفحة ٢٥ ، قول الشدياق :

---

(١) من مقدمة كتاب " رد السهم عن التصويب وابداء عن مرمى الصواب بالتعريب " لابراهيم الاحدب . مطبعة الجوائب بالاستانة سنة ١٢٩١ هـ . ص ٢ و ٣ .

./.

(وربما جاء يريد وزن مفعلـة) من اسم جامد نحو المسبعة والمأسدة لمكان يكثر فيه السبع والاسد وقس عليه المبطخة والمقثأة) .

حيث يعلق الشرتوني بقوله : " وهو خطأ " والصحيح ان بناءه من الاسماء الجامدة مقيس من كل اسم ثلاثي كمأبلة ومسبعة ونحوهما .

" وان كان الثلاثي مزيدا فيه كتفاح حذفت الزيادة فيقال متفحة وقس على ذلـك " (١) .

ويحتكم الشرتوني الى علماء اللغة لتأكيد ماذهب اليه فيقول :

" قال العلامة الصبان ... وقد صاغوا مفعلة من الثلاثي اللفظ او الاصل لسبب كثرة مسماه او محلها مثالها لسبب الكثرة (الولد مجبنة مبخلة) اى سبب لكثرة الجبن من الحرب وكثرة البخل ولمحل الكثرة مأسدة ومسبعة ومقثأة ومعفاة اى محل لكثرة الاسد والسبع والقثاء والافعى " .

" وقال الامام الهمام صاحب العزى .. واذا كثر الشيء بالمكان قيل فيه مفعلة من الثلاثي المجرد فيقال ارض مسبعة ومأسدة ومذأبة ومبطخة ومقثأة ."

وهكذا يبني الشرتوني حكمه على اعتبار ان عبارة الشدياق يفهم منها القلة مع ان المؤلف لم يعن هذا كما ان البناء غير قياسي .

وقد انتقد الشيخ ابراهيم الاحدب قول الشرتوني هذا بقولـه :

" لا خطأ في عبارة المؤلف (اى الشدياق) بل هو المخطيء (اى الشرتوني) بادعاء انه مقيس لاني تتبعت كتب التصريف التي بيدى كميزان الادب للعصام والعزى وشرحيـه للسيد والسعد والمراح وشرحه ولامية الافعال وشرحيها ... فلم ار احدا صرح بان بناء مفعلة من الثلاثي الجامد مقيس بل الذى رأيته في شرح العلامة الرضـــى للشافيـة انه غير مقيس . ونص عبارته بعد الكلام على اسم الالة : واعلم ان الشـــي

---

(١) السهم الصائب ، ص ٢٤

(٢) السهم الصائب ، الشرتوني ، ص ٢٤ .

./.

اذا كثر في المكان وكان اسمه جامدا فالباب منه مفعلة بفتح الميم والعين كالمأسدة والمسبعة والمدأبة اى المواضع الكثيرة الاسود والسباع والذئاب وهو مع كثرته ليس بقياس مطرد فلا يقال مضبعة ومقردة ولم يأتوا بمثل هذا في الرباعي فما فوقه نحو الضفدع ، والثعلب ، بل استغنوا بقولهم كثير الثعالب او بقولهم مكان مثعلب ومعقرب .. بكسر اللام في الاول على وزن اسم الفاعل الخ ...

ويتابع الاحدب قوله : "فان كان المؤلف (اى الشدياق) يقول بعدم قياسيته فحسبه الرضى قدوة مع كون عبارته لا تصرح بما ادعاه . واذا كان للمعترض (اى الشدياق) مأخذ يعتمد عليه يصرح بانه مقيس ينبغي ذكره حسب عادته عند اثارة جعجعة بدون طحن " (١) .

اما الشيخ يوسف الاسير ، فقد علق على ذلك بكتابه (رد الشهم للسهم) حيث قال في هذه المسألة :

"قال صاحب السهم (يعني به الشرتوني) "ومن سقطات صاحب الغنية قوله في ص ٢٥ وربما جاء وزن مفعلة من اسم جامد نحو المسبعة والمأسدة لمكان يكثر فيه السبع والاسد وقس عليه .

ونص اعتراض السهم عليه . اقول مقتضى كلامه : ان وزن مفعلة يجي "قليلا من مطلق الاسم الجامد وهو خطأ ، والصحيح ان بناء الاسماء الجامدة مقيس الخ ... هذا نص اعتراضه (اى الشرتوني) .

"وجوابه (العبارة هنا للاسير) ان هذا الاعتراض يدل على عمى بصيرته وسوء سريرته وتوغله في جهله .. وذلك ان اخذ من رب الواقعة في قول الغنية ، وربما جاء والحال ان رب للتكثير غالبا ... وعلى فرض انها للتعليل فعلتها من الجامد بالنسبة للمشتق كمضربة ومشربة ومأكلة الى ما لا نهاية له . والمشتقة من المشتق لا تكون غالبا الا لما يكثر ايضا كمكتبة لما تكثر فيه الكتابة حتى لو وقف الانسان في مكان وكتب فيه كلمة او كلمتين . فقلما يقال لذلك المكان مكتبة . وقول السهم : "والصحيح ان بناء من الاسماء الجامدة مقيس" يقتضي ان صاحب الغنية قال : انه لا يقاس . وعمى عن قوله

---

(١) رد السهم عن التصويب ، الشيخ ابراهيم الاحدب . ص ١٥ .

(اى الشرتوني) وقس عليه " (١) .

ـ ومما انتقد الشرتوني ايضا صاحب "غنية الطالب" ماجاء في الصفحة ٢٧ من كتابه ، اذ قال : (وان كانت الهمزة في اسم مؤنث بالالف الممدودة تكتب واوا نحو حمراوان وسود اوان ولا يجوز غيره) . فيعلق الشرتوني على العبارة الاخيرة بما نصه : "قوله ولا يجوز غيره زيادة في اللفظ ادت الى نقص في المعنى فما كان اجدره بتركها لان القلب في مثل ذلك هو الاعرف . قال الملا جامي رحمه الله : وربما صححت فقيل حمراآن وحكى المبرد عن المازني قلبها ياء نحو حمرايان . والاعرف قلبها واوا " .

ويتابع قوله : "على ان السيرافي .. اوجب تصحيح الهمزة اذا كان قبل الفه واو لئلا يجتمع واوان ليس بينهما الا الالف . فتقول في عشواء عشوآءان بالهمز ولا يجوز عشواوان ويجوز الكوفيون في ذلك الوجهين كما افاده الاشموني في شرح الالفية " (٢) .

ويرد الاجدب منتقدا قولة الشرتوني " ان تركها اجدر به لان القلب في مثل ذلك هو الاعرف ، وقد جاء التصحيح وقلبها ياء " . فيرى ان ماذهب اليه الشرتوني لا يسلم من اعتراض ، فقول الشدياق "ولا يجوز غيره " هوكقول الصحاح في "ردى "وقد صرحوا بان التصحيح او القلب ياء شاذ . قال الاشموني وشذ حمرايان وعاشوران في قاصعاء وعاشوراء بحذف الهمزة والالف معا والجيد الجرى على القياس قاصعا وان وعاشوراوان " .

ثم يقول في معرض رده على الشرتوني :

"واذا كان القياس لا يجوز ماذكر فكيف يعترض من قال لا يجوز فان اراد المعترض (اى الشرتوني) بقوله وقد جاء التصحيح وقلبها ياء انه جاء قياسا منع بما نقلناه . وان اراد انه جاء شاذا سلم بدعوى المؤلف . ولا يجوز غيره .

ويضيف : "وقد صاغ افعل التفضيل بقوله : هو الاعرف من المجهول ، اتباعا لعبارة الجامي . وقد علمت انه شاذ . فكان الاجدر به ان لا يستعمل مايعترض به على غيره " (٣) .

---

(١) كتاب : رد السهم للسهم ، للشيخ يوسف الاسير ، طبع في مطبعة الجوائب بالاستانة سنة ١٢٩١ هـ . ص ٢٣ .

(٢) السهم الصائب ، الشرتوني ، ص ٣١ .

(٣) رد السهم عن التصويب ، ص ١٩ ـ ٢٠ .

./.

٢ـ النقـد النحـــــوى :

ومما انتقد به الشرتوني صاحب "غنية الطالب" قول الاخير في الصفحة ٣٧ من كتابه حول حذف الخبر (ووجوبا في نحو لولا زيد لهلك عمرو اى لولا زيد موجود . واذا كان الخبر خاصا صح اثباته كقول الشافعي رضي الله عنه :

ولولا الشعر بالعلماء يزرى لكنت اليوم اشعر من لبيـد)

فينتقده الشرتوني بقولـه :

"مقتضى كلام المؤلف صحة اثبات الخبر وحذفه اذا كان خاصا على الاطلاق كما ترى ، وهو عن الصحة بمعزل .

والصواب ، ان الخبر بعد لولا يحذف وجوبا اذا دل على مطلق الوجود ، ويجب اثباته اذا دل على وجود مقيـد بصفـة .

"ثم صوب التفضيل بما نقله عن الاشموني مما هو مشهور : قال العلامـــة الاشموني في شرح بيت ابن مالك :

وبعـد لولا غالبا حذف الخبر حتم وفي نص يمين ذا استقـر

" اى في غالب احوالها ، وهو كون الامتناع معلقا بها على وجود المبتدأ الوجود المطلق نحو : لولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لفسدت الارض ، اى لولا دفع الله الناس موجود . حذف موجود وجوبا للعلم به وسد جوابها مسده .

" اما اذا كان الامتناع معلقا على الوجود المقيد ، وهو غير الغالب عليها فان لم يدل على المقيد دليل وجب ذكره ، نحو : لولا زيد سالما ماسلم ... وان دل عليه دليل جاز اثباته وحذفه نحو : لولا انصار زيد حموه ماسلم . وجعل منه قول المعرى :

يذيب الرعب منه كل عضب فلولا الغمد يمسكه لسالا .

" وذهب الجمهور الى ان الخبر بعد لولا واجب الحذف مطلقا وبناء على انه لا يكون الا كونا مطلقا . واذا اريد الكون المقيد جعل مبتدأ . فتقول: لولا مسالمـــة

./.

زيد ايانا ماسلم اى موجود ه ٠٠٠ " (١) ٠

وهكذا يكون اعتراض الشرتوني منحصرا في انكاره صحة اثبات الخبر وحذفه اذا كان خاصا على الاطلاق ، مصوبا التفضيل بما نقله عن الاشموني مما هو مشهود ٠

ومن الطبيعي ان يكون رد الاحدب قويا على هذا الاجتهاد ، حيث يقول مدافعا — بدوره — عن الشدياق :

" قلت لاغبار على عبارة المؤلف (يعني الشدياق) ولا يعترضها الا كل جاهل لايفهم معاني الكلام ٠ وذلك لان قول المؤلف صح اثباته بمقابلة وجب حذفه ٠ فتصدق بوجوب ذكره عند عدم الدليل على الخاص ٠ بخلاف وجود الدليل كبيت المعرى الذى ذكره المعترض كما لايخفى ٠

" وعبارة الجامي على الكافية هنا كعبارة المؤلف حيث قال مشيرا الى وجوب حذف الخبر بعد لولا ، هذا اذا كان الخبر عاما ٠ واما اذا كان خاصا فلا يجب حذفه ٠ كما في قوله : ولولا الشعر بالعلماء يزرى ٠٠ فمفهوم قوله " لا يجب حذفه " انه يجوز ، او يجب ذكره ، ولا شك انها كعبارة المؤلف ، فكيف يكون ذلك خطأ " (٢) ٠

هذا ماجاء من ردود على كتاب غنية الطالب لاحمد فارس ، انتقينا نموذجا من كل باب رجاء اكتمال الصورة النحوية والنقد النحوى الذى ساد في اواخر القرن الماضي ٠

اما الشيخ ناصيف اليازجي (٣) ففصل في الصرف ، والنحو غير مافصل الشدياق وغيره ٠ كان مثله الاعلى الحوك على نول القدماء ، فنظم مثلهم ونثر ٠ كان اكبر همه ان يكون له كتاب مثل الفية ابن مالك ، فنظم كتابه (نار القرى في جوف الفرا " الذى عرف في الاوساط المدرسية بالارجوزة ٠

وتكملة لما بدأنا به من رسم صورة عامة لملامح التأليف الصرفي والنحوى في القرن التاسع عشر نقوم برصد تاريخي لمؤلفات الشيخ ناصيف اليازجي في هذا المضمار ٠

---

(١) السهم الصائب ، ص ٤٨ — ٤٩ ٠
(٢) رد السهم عن التصويب ، ص ٢٧ — ٢٨ ٠
(٣) الشيخ ناصيف اليازجي (١٨٠٠ — ١٨٧١) م ٠

٠/٠

١ــ "فصل الخطاب في اصول لغة الاعراب " : كتاب نثرى قسمه قسمين ، كتاب التصريف وكتاب النحو . وهو مختصر تستعين به الطلبة الاصاغر . ويقع الكتاب في مائة وثمان وستين صفحة ، من القطع الصغير . طبع في بيروت سنة ١٨٥٤ في ١٢٤ صفحة صغيرة ، واضاف الى شرحه بعض زيادات وطبع سنة ١٨٦٦ في ٢٥٧ صفحة ، ثم طبع سنة ١٨٧٧ في المطبعة الاميركية .

٢ــ "لمحة الطرف في اصول الصرف " ارجوزة في سبع عشرة صفحة مشروحة بقلم المؤلف ، فرغ من تبييضها سنة ١٨٥٤ ، مقتصرا فيها على ماتجب معرفته بالضرورة من علم الصرف . طبعت في المطبعة المخلصية للروم الكاثوليك ببيروت سنة ١٨٧٠ .

٣ــ " نار القرى في شرح جوف الفرا " ارجوزة في الصرف والنحو ، ضم اليها ماتفرق في كتب ائمة النحو . والكتاب ، في الاصل ، اسمه " جوف الفرا " لكن اليازجي قام بشرح ماجاء في نظمه ، " خدمة للمتأدبين الاخذين بعلم العربية " .

فصارت الارجوزة والشرح في كتاب واحد سماه " نار القرى في شرح جوف الفرا " فرغ المؤلف من تبييضه سنة ١٨٦١ وطبع في بيروت سنة ١٨٦٣ في ٣٨٩ صفحة متوسطة الحجم ، ثم اختصره ولده ابراهيم سنة ١٨٨٢ في ٢٩٦ صفحة واعرب شواهده المعلم شاهين عطية سماه " الدرر في عقود الجوهر " .

ولما كانت هذه الارجوزة تأخذ الفية ابن مالك معيارا تحتكم اليه ، وطريقة تحتذيها ، فقد صار من الواجب ان نقارن بين الارجوزتين كي نخلص الى حكم عام ، مختارين فصلا واحدا من الارجوزتين على وجه التقابل والموازنة . فقد جاء عن خبر لولا ما بحرفيته في النصين :

٠/٠

(ابن مالك في الفيته)

١ــ وبعد لولا غالبا حذف الخبر
حتم وفي نص يمين ذا استقر

٢ــ وبعد واو عنيت مفهوم مع
كمثل كل صنع وما صنع

٣ــ وقبل حال لا تكون خبرا
عن الذى خبره قد اضمرا

٤ــ كضربي العبد مسيئا واتم
تبييني الحق منوطا بالحكم (١)

ناصيف اليازجي في (جوف الفرا)

١ــ ويخلف الخبر ايضا في القسم
نصا جواب كلعمرى لم اسم

٢ــ وبعد لولا وهو كون مطلق
وشبه جملة به يعلق

٣ــ والحال لا تصلح اخبارا كما
في نحو ضربي الغلام محرما

٤ــ وعطف واو لاصطحاب مثله
ايضا ككل فاعل وفعله (٢) .

نلاحظ مما تقدم ان الفرق بين الابيات ، ان قول ناصيف اليازجي : "ويخلف الخبر ايضا الخ .. عنى به ان الجواب بعد القسم يقوم مقام الخبر ويغني عنه ، كما يغني مرفوع الصفة عن خبرها ، نحو اماض هم لانه عطفه عليه واتى بايضا وهو خطأ ووهم ، للفرق الظاهر بين اغناء مرفوع الصفة عن خبرها " سد جواب لولا ، وجواب القسم والحال ، وما بعد واو المعية عن الخبر ، لان مرفوع الصفة لا يقدر معه خبر ، فلا يقال اصل اماض هم اماض هم قاعد مثلا بخلاف ماذكر فانه محذوف مقدر كلولا زيد لقام عمرو اى موجود ، فاصله لولا زيد موجود لقام عمرو ، وكذا في سائر ماذكر . ولذلك قال ابن مالك في الاول واول مبتدأ والثاني فاعل اغنى في اسارذان وقال وبعد لولا غالبا حذف الخبر الخ ....

ولم يدرك ناصيف اليازجي هذا الفرق العظيم .

وقوله : "وبعد لولا وهو كون مطلق " فيه قصور لان الخبر يحذف ايضا حيث كان كونا مقيدا ، ودل عليه دليل نحو لولا انصارزيد ماسلم اى حموه ، وفيه مذهب آخر وهو انه لا يكون الا كونا عاما . وقوله : "وشبه جملة به يعلق " مراده ان شبه الجملة وهو الظرف ، والمجرور بحرف يغني عن الخبر مع ان ادخال ذلك في ماذكر غلط ، لان فيه ثلاثة اقوال ، قيل الخبر هو المحذوف

---

(١) شرح ابن عقيل على الفية ابن مالك ــ المجلد الاول ، ص ٢٤٦ ــ ٢٤٧ الطبعة الرابعة عشرة ١٩٦٤ دار الكتاب العربي ببيروت .
(٢) جوف الفرا ، لناصيف اليازجي .

./.

وقيل هو الظرف او المجرور ، وقيل المحذوف مع الظرف او مع المجرور ، ولذلك قال ابن مالك ، واخبروا بظرف او بحرف جر ناوين معنى كائن او استقر .

— وقول اليازجي : " والحال لا تصلح اخبارا " قد شكل اخبارا بكسر الهمزة ، وصوابه كما قال ابن مالك :

وقبل حال لا تكون خبرا عن الذى خبره قد اضمرا .

وذلك ان الحال قد تصلح لان تكون خبرا عن المبتدأ المحذوف خبره معها ، وحينئذ لا تسد مسد الخبر . فلا يجب حذفه ، وقد لا تصلح لان تكون خبرا عنه فتسد مسد الخبر ، فالاول نحو : ضربي العبد شديدا . والثاني : نحو ضربي العبد محرما او مسيئا . واليازجي في جوف الفرا يقول : " والحال لا تصلح اخبارا والاخبار الاتيان بالخبر ، فاخطأ واوهم ، كما اخطأ في قوله وعطف واو مثله ، لان العطف مصدر لا يسد مسد الخبر ، فان قيل ذلك لا يجوز المجاز فيما هو تعريف ، او كالتعريف مع عدم القرينة الموضحة ، ومع ذلك كله ينبغي ان يكون جوف الفرا ادق من الفية ابن مالك لانه متأخر وجامع لكل كتب النحو كما يقرر اليازجي نفسه .

وهكذا ، تلوب محاولات ناصيف اليازجي حول الفية ابن مالك ، دون ان تبلغ المرام لفظيا ، بل كثيرا ما عقد المعنى ، وارهق اللفظ او زاد المعنى حشوا دونما طائل كقوله في الضمير مثلا :

ومن ضمير الرفع مالا يذكر فكان في رافعه يستتر

وقال ابن مالك :

ومن ضمير الرفع مايستتر كافعل او افق نغتبط اذ تشكر

فقد جمع ابن مالك معنى بيت اليازجي في شطر ، وشل في شطر مع السلامة من الحشو والزيادة ، فان زيادة " فكان " عند اليازجي مضرة كزيادة " لا يذكر " فان الضمير المستتر مذكور حكما .

هذا ، وقد اثار كتاب " نار القرى في شرح جوف الفرا " موجة من النقد صارمة حمل لواءها الشيخ يوسف الاسير وذلك في كتابه " ارشاد الورى في تخطئة جوف الفرا "(١)

---

(١) كتاب " ارشاد الورى في تخطئة جوف الفرا ، مطبعة الجوائب الاستانة سنة ١٢٩٠ هـ . وقد قدم له احمد فارس الشدياق ويقع الكتاب في (٨٠) صفحة .

ولعل السبب الاول في هذا النقد ، هو ان الارجوزة لم تستطع — كما رأينا — تحقيق ماكان يرنو اليه الشيخ ناصيف اليازجي من مجد نحوى يضارع به مجد ابن مالك ، او محاكاته في الفيته الخالدة .

وسنقوم بدراسة الكتاب مع نقده ، كي تتبين الصورة بكل ملامحها .

يقول الشيخ يوسف الاسير في مقدمة كتابه المذكور :

" اما بعد ، فاني قد اطلعت على كتاب ناصيف اليازجي المسمى (بنار القرى في جوف الفرا) فاردت بيان مبانيه وايضاح معانيه ... فشرحتهما شرحا يميز بين الحق والباطل . حيث قرنت كلامه بكلام الائمة ليظهر الحالي من العاطل . وما قصدت بذلك الا الثواب بارشاد مطالعيه الى سبيل الصواب " (١) .

ثم يبدأ الشيخ الاسير بنقد مقدمة الكتاب ، متتبعا اثر اليازجي كلمة فكلمة ، وعبارة فعبارة ، حتى اوفى على نهاية الارجوزة كلها ، محتكما في ذلك النقد الى كتب الثقات من اهل اللغة الاقدمين ، جاعلا من النقد الجزئي عماده الاول .

هذا ، وكثيرا ماكان الشيخ الاسير يرجز الابيات ، معارضة لنظم اليازجي او تحديا له . مما جعل ارجوزة اليازجي ارجوزتين ، يتخللهما شرح الاسير وتعليقه ونقده . وهو نهج جدير بالاهتمام ، لان الاسير في عمله هذا يذهب مذهب المناظرة والمناظرين الاوائل حيث يفرع اسباب القول ويتناول احكاما نحوية دقيقة ويتعرض لمسائل في غاية الصعوبة . تماما كتلك المناظرات التي كانت تسود اجواء الكوفة والبصرة . ولئن دلت هذه الابحاث على شيء فانما تدل على مدى التعمق اللغوى والتخصص النحوى الذى كان عند علمائنا في القرن الماضي .

غير ان الشيخ الاسير ، قسا في بعض احكامه ، وذهب مذاهب حقد وكراهية في بعضها الاخر . فهو كثيرا مايقف على بعض العبارات التي لاتحتاج الى تأويل او اجتهاد ، معملا بها وكده كي ينفذ الى وهن يعتريها او قصور اصابها .

---

(١) من مقدمة الكتاب ، ص ١ .

./.

ولتبيان ذلك كله ، سنختار من هذه النقود نموذجين اثنين ، نظرا لتشابه المنهج العام في الكتاب .

ينتقد الشيخ الاسير ماجاء عند اليازجي في فصل (احكام الاعراب والمعربات) قولـــه :

" بالحركات مفردا اعرب وما ... بجمع ذى ذكور سلما
ومعرب الفعل الذى يجرد ... عن مضمر باد اليه يسند
وما سواها اعربته الاحـــرف ... وذاك في الاعراب فرع يخلف "

حيث يرجز الاسير ، منافسا صنيع اليازجي قبل انتقاده(١) :

وبالعلامات الاصول المفـــردا ... اعرب كذا المضارع المجردا
وجمع تكثير وما بالالـــــف ... والتاء جمعيته بذى اكتـــف
وما سواها بالفروع يعـــرب ... وقيل كل بالاصول معـــرب

ويشرح الشيخ الاسير ماجاء في رجزه ورجز اليازجي ، فيقول مبتدئا بشرح ابياته : " علامات الاعراب الاصول اربع ، الحركات الثلاث وحذفها وهو السكون ، والعلامات الفروع ستة الحروف الاربعة وحذف حروف العلة وحذف النون ، وبالاصول الاربعة تعرب اربعة انواع من الكلمة الاسم المفرد وهو عنا ماليس مثنى ولا جمعـــا ولا ملحقا بهما ولا من الاسماء الخمسة كزيد وهند والفعل المضارع المجرد من الضمير البارز المرفوع ومن نون النسوة ونون التوكيد المباشرة كيضرب .. وجمع التكسير .. والجمع الذى جمعيته بالالف والتاء .. وما سوى هذه الاربعـــة يعرب بالفروع وهو المثنى والملحق بـــه ... والجمع الذى على حد المثنى وهو جمع المذكر السالم وما الحق بـــه ... والاسماء الخمسة .. والافعال الخمسة ... والفعل المضارع المعتل المجرد حال انجزامه .. والسكون المقدرة ايضا وهو مذهب سيبويـــه والمرتضى عند المحققيـــن ."

---

(١) ارشاد الورى في تخطئة جوف الفرا ، الاسير ، ص ٢٢ — ٢٣ .

./.

ويأتي الشيخ الاسير على شرح ابيات اليازجي مع نقد لها فيقول :

" وقوله "بالحركات مفردا اعرب " معناه اعرب بالحركات مفردا من المفردات فقط لان تقديم المعمول يفيد الحصر .. والنكرة لاتعم في سياق الاثبات الا مانـدر .

" وقولـه مايجمع الـخ .. معناه واعرب بالحركات فقط شيئا يجمع متجاوزا صاحب ذكور سلم ، ثم ان فرضت الشي " الذى هو معنى ما مفردا او جمعا فسـد المعنى لان التقدير على الاول واعرب المفرد الذى يجمع بالحركات وهو فاسد . وعلى الثاني واعرب الجمع الذى يجمع بالحركات وهو فاسـد ايضا ، على ان الحصر قبله يوهم انه مستأنف مع مافيه من الثقل للانتقال من كسرة ذال ذى لضمة ذال ذكور والياء حاجز غير حصين مع مافيه من الركة التي هي اشبه بعلم الركة ، لانه لم يقل احد ومايجمع دون ذى ذكور سلما لكنه يرتكب الاغراب فيرتبك في الاعراب ، وقـد فاته الاعراب بالسكون وبالحذف هنا وبيان مذهب سيبويـه المعتمد مع اسناد الاعراب للحروف وغير ذلك من المفاسـد التي يعرفها النحـوى ... (١) .

كما صوب الاسير قول اليازجي :

وكل منقوص كقاض اذ رفـع ... او جر والمنصوب للاصل تبـع
والجر كالنصب لدى قوم يرى ... وربما المرفوع كالقاضي جـرى
والجمع منه نقصه قد نطقـا ... بقصـره قلـم ينون مطلقـا

بقولـه :

ولا تنـون منه ماقد قصـرا ... وكجـوار كل منقوص جـرى
وجـرّ ذا قوم بفتحه كمـا ... اسكنه قوم لدى الرفع اعلما .

ويشرح الاسير ماذهب اليه فيقـول :

نفس المصـدر ، ص ٢٣ — ٢٤ .

" وذلك ان المقصور الممنوع من الصرف لا ينون سواء كان مفردا كمصطفى علما لامرأة او جمعا كعذارى بالالف علما او غير علم ، وان كل منقوص ممنوع من الصرف كجوار يجرى كجوار سواء كان مفردا كقاض علم امرأة او جمعا على غير صيغة منتهى الجموع كاظب علم امرأة او على صيغة منتهى الجموع علما او غير علم كسوار ودعاو ودواع " .

ويروى الاسير " ان بعض النحاة نصبه وجره بالفتحة ، وبعضهم اسكن ياءه حالة الرفع ، وكل ذلك يفهم من بيتي مع السهولة والانسجام بخلاف ابيات ناصيف" (١)

ـ نعود ، بعد هذه الجولة الى كتب ناصيف اليازجي المدرسية ، لنحصر مابقي منهـا :

٤ ـ " الجوهر الفرد " متن موجز وضعه الشيخ ناصيف للطلبة الاصاغر في خمس عشرة صفحة صغيرة الحجم . وهو عامة نبذة لطيفة جمع فيها المؤلف قواعد الصرف والنحو على اسلوب شديد الاختصار " مجرد في ماهو من اصول العلمين المشار اليهما تسهيلا للحفظ والاستظهار . طبع بالمطبعة الوطنية سنة ١٨٦٥ . ولما كان الكتاب غامض المعنى ، قليل البسط في المباني ، فقد قام ولده ابراهيم اليازجي بعمل شرح " يسهل للطالعين صعابه ، ويوطي " للسالكين شعابه " . فعلق عليه ماعن لخاطره لزومه من التمهيدات الكافلة بحل اشكاله ، والتفصيلات المحللة لعقود اجماله . وقد وضعها على اسلوب سهل قريب التناول . مازجا الشرح بالمتن . كما ضمن الكتاب فصل " اعراب شواهد النحو " تتميما للفائدة المرجوة من الكتاب على حد قوله ، وقد عرفت هذه الطبعة بعنوان " مطالع السعد في شرح الجوهر الفرد " طبع في بيروت سنة ١٨٨٨ طبعة اولى ثم في مطبعة صيدا ، طبعة رابعة سنة ١٩٠٨ .

---

(١) ارشاد الورى ، يوسف الاسير ، ص ٥٣ .

٥ — " طوق الحمامة " وهو مختصر نثرى في مبادىء النحو يقع في عشرين صفحة صغيرة . طبع في المطبعة المخلصية سنة ١٨٦٥ ايضا .

٦ — " الجمانة في شرح الخزانة " : ارجوزة مطولة في علم الصرف ، علق عليها المؤلف نفسه ، شرحا ، سماه " الجمانة " جمع فيها مبادىء من الصرف معتمدا في شروحه على كتب الائمة ، مقتصرا على مايحتمل وقوعه في الاستعمال دون الشواذ والمفروضات . طبعت في المطبعة المخلصية اولا ثم في المطبعة الاميركية سنة ١٨٧٢ في ١٤٠ صفحة . وقد اختصرها ابنه ابراهيم حيث حذف ماوجد في الكتاب من الزائد التي " لايفضي حذفها الى تقصير او اخلال " واطرح ماورد في بعض المواضع من ذكر شواذ اللغات ومرجوح الاقوال ، ونوادر الصيغ التي ترجع الى صناعة الصرفي دون حاجة الاستعمال . كما زاد في مواضع اخرى فوائد من استدراك " يتوسع به مضمون الكتاب او ايضاح تزداد به بصيرة الطلاب " . وقد طبعت هذه النسخة المنقحة في بيروت (المطبعة الادبية) سنة ١٨٨٩ .

٧ — " اللباب في اصول الاعراب " : ارجوزة في علم النحو ، لخص فيها مبادىء النحو القريبة على الطلاب الاصاغر ، وعلق عليها شرحا . تقع في (٢٨) ثمان وعشرين صفحة فقط . طبعت في بيروت سنة ١٨٨٩ .

هذا وقد صدر كثير من كتب الصرف والنحو في العقود الثلاثة من القرن الماضي ، لادباء واساتذة ، وضعوها لطلابهم ابتغاء تطويع مباحث هذا العلم وجعله قريبا لمتناول الناشئة فيقبلون عليه .

ولم نجد في اى منها من ابتعد عن غاية ناصيف اليازجي ومنهجه في التلخيص والشرح والتعليق .

لذا ، فقد اكتفينا بما جاء من صورة عامة لانماط التأليف المدرسي على يد الشيخ ناصيف اليازجي وابنه ابراهيم ، املا في ان نكون قد اعطينا هذه الكتيبات البسيطة حقها .

الفصـــل الثامـــن

النقد اللغوى في القرن التاسع عشر في لبـــنان

كثيرا ، ماكانت تقترن مباحث النقد اللغوى بتلك المناقشات التي قد يثيرها كتاب نحوى ، او مقال لغوي ، للغوى معروف ، او اديب مشهور . كما هو الحال في المعركة التي اثارها بطرس كرامة اللبناني ، مع صالح التميمي (شاعر عراقي) ، في اوائل العقد الخامس من القرن الماضي ، تلـك المعركة التي دفعت باحد ادبـــاء لبنان — يومها — وهو رشيد الدحداح ، الى تأليف كتاب " قمطرة طوامير " (١) دفاعا عن الشاعر بطرس كرامة . (٢)

وكما هو الحال في المناظرات اللغوية التي دارت رحاها بين احمد فارس الشدياق ، وابراهيم اليازجي ، وبين كل من وقف مدافعا عن هذا او ذاك . وما اعقب ذلك من مماحكات حادة اشطرت حياة النقد الى شطرين ، تمثلا باصحاب التيار المحافـــظ واصحاب التيار الذوقي الجديد .

ولو عدنا الى المباحث اللغوية الاولى ، التي اعقبت ردود بطرس كرامـــة والتميمي ، وماكان من دفاع للدحداح لرأينا ان هذه المناقشة اللغوية قد سعـــت في اضيق مجالات النقد ، حتى كادت ان تنحصر في صلة الفصاحة بالدين ، والتعصب الديني واثره في النقد ، وفي تتبع اخطاء لفظية جزئية كثيرا ما ترتبط باخطاء معنوية .

---

(١) طبع في باريس سنة ١٨٨٠

(٢) ذكر رشيد الدحداح في قمطرة طوامير اقوالا للمعلم بطرس كرامة توضح الدوافع والظروف التي ادت الى اثارة هذه المعركة النقدية . فمما قاله بطرس كرامـــه " اني لما اتيت القسطنطينية ... وتكلمت بين اربابها كما هو دأبي في مصـــر وحلب والشام ... فكنت .. اعرض بين يديهم منظوماتي وان لم تكن رائعة ، فاسمعني بعض شعرائهم ، الافاضل الكرام ، منظومات تركية اخذت من الحســـن اعلى مقام . وقد كرر في بعض قوافيها (لفظة الخال) وامرني ان انظم قصيدة ، وانسج ابياتها على ذلك المنوال ، فنظمت قصيدة لم يكن فيها غير لفظة الخـــال

./.

ومن الغريب ان تثار قضية الفصاحة وصلتها بالدين ، وان تتجه مباحث النقد اللغوى الى الاحتكام بمعايير الجنس والدين ، او ربط البحث اللغوى بمباحث الديانة والشريعة .

ومهما يكن من شيء ، فان قضية الفصاحة ليست مما يلحق بالدين ، وان ادخالها فيه تنكب عن الصواب في التفكير وان القضية برمتها لا ينبغي لها ان تدخل في نطاق النقد النزيه .

قافية ، فجاءت على نوع اللزوم محاسنها وافية (١) ... فلما كمل لظامها ... زففتها لـ ... داود باشا والي بغداد سابقا ، فتلقاها .. بعين الرضا ... وارسلها الى بغداد ... ليطلع عليها من هناك من الشعراء .. فيشهدوا فضلها وينظموا مثلها ، فتلقاها بعضهم بما تلقاني به زماني وانكسر حسنها ، لان ناظمها نصراني ، ... وقال نظما :

عهدناك تعفو عن مسيء تعذرا ... الا فاعفنا من رد شعر تنصرا
وهل من مسيحي فصيح نعده ... اذا اينع الشعر الفصيح واثمرا .

فلما وقفت على هذا الجواب المغاير طريقة الاداب ، ولم يكن فيه مايعترض على الفصيح ، الا انني على مذهب المسيح ، فاخذني العجب من صاحب هذا الادب " (٢) .

---

(١) خاليه بطرس كرامة تنتظم في ثلاثة وعشرين بيتا ، مطلعها :

امن خدها الوردى افتنك الخال ... فسح من الاجفان مدمعك الخال

ديوان سجع الحمامة ، لبطرس كرامة ، ص ٣٢٢ — ٣٢٤ .

(٢) ديوان سجع الحمامة ، المطبعة الادبية في بيروت — سنة ١٨٩٨ صفحة ٣٢١ — ٣٢٢ .

(٢) وانظر كتاب مخطوطة طاهر [illegible] الادبية في بيروت سنة ١٨٨٨

٠/٠

والذى يعنينا من ذلك كله ، ماكان من اهتمام رجال هذه المعركة في تتبع الهفوات والاخطاء اللفظية ، وما كانت تؤديه من اخطاء في المعنى . ابتغاء رسم صورة للنقد في ذلك الزمان ، بما فيه من جزئية وضيق افق .

قال بطرس كرامة مشيرا الى رائية صالح التميمي " الا فاعفنا من رد شعر تنصر " .... لقد ضربت صفحا عما في نظمه من الهفوات المتعلقة بالالفاظ والمعاني ، ولكن لابد من ذكر بعضها على وجه الاختصار حتى لايقال دعوى من غير دليل برهاني فمنها ماهو مطلع قصيدته قوله : (الا فاعفنا من رد شعر تنصرا) بوصل الهمزة ، وحقها القطع ، لان عفا لازم ولا يتعدى الا بالحرف او الهمزة وهو عداه بالهمزة فيجب قطعها .

.. وقوله : (عداه شبيب) بالباء الموحدة ، وصوابه بالتاء المثلثة ، اللهم الا ان يكون الكاتب صحف حين كتب .

وعلى هذا النحو من النقد ، يمضي بطرس كرامة ، " فيقف عند مواطن ستة اخرى في قصيدة التميمي يناقش الفاظها وبعض معانيها بهذه الطريقة التي ناقش فيها هذه الالفاظ وبعض المعاني السابقة وبالمستوى نفسه " (١) .

اما رشيد الدحداح فيتناول ابيات تلك القصيدة بيتا بيتا يستخرج منها عيوبها في رأيه ويضع عنوانا على ذلك كله كلمة (تنديد) على القصيدة ، وبيان اغلاطها بيتا فبيتا . وفي هذا العنوان دليل على الطريقة المتشددة التي اتخذها رشيد الدحداح مع التميمي .

ولعل اختيار بعض النماذج من تنديد رشيد الدحداح ان يوضح طريقته :

قال : " قوله : (الا فاعفنا) فيه وصل الهمزة ، والقطع بالامر المطاع وكلاهما من سقط المتاع . وقوله : (من رد شعر تنصرا) : فاسد المعنى لاسيما مخطي " من ثلاثة اوجه :

---

(١) النقد الادبي الحديث في لبنان ، الحركة النقدية حتى نهاية الحرب العالمية الاولى ج ١ د . هاشم ياغي ، ص ٣٣ — ٣٤ (اعتمدنا على هذا الكتاب في تنسيق هذا الفصل) .

./.

احدها : ان تنصر معناها انتقل من دينه الى النصرانية ، وقال الفيروزابادى تنصر دخل في دين النصارى • فالشعر لا يدخل في دين احد ، اذ ليس هو بعاقل •

ثانيا : ان الاستعفاء من رد الشعر المتنصر الى ماكان عليه من الفطرة وهو الاسلام لا يجوز لمسلم بل الاحرى ان يرده من الضلالـة الى الهدى •

ثالثا : خطأ التعبير ، لان الاستعفاء من الرد طلب للبقاء على القبول ، وهذا خلاف ما اراده الناظم ، وكان الصواب ان يقول : اعفنا من قبول شعر تنصر لا من رد شعر تنصر فتدبـر •

وقولـه : عداه شبيث والاخصوفاته الـخ قد تكلم فيه كذلك صاحب الخاليـة (اى بطرس كرامة) وفوّض الينا سؤال الناظم عن متعلق الضمير من عداه وفاته ، لانا ان عودناه الى الشعر المتنصر كما يقتضيه الظاهر كان المعنى فاسدا ، وان عودناه الـى المسيحي الفصيح كان المعنى اكثر فسادا ، لان الفصيح لا يقال عنه ماقال من عداه وفاته ، ولم يذكر الناظم احدا يتعلق به ، وهو مع ذلك قد اراد ناظم الخالية ولكنـه لم يذكره ، فتعويـد الضمير الى غير مسمى يجعل الكلام كلمـا • • •

ويمكننا ، من خلال تلـك النماذج القليلة ، ان نستدل على طريقة النقـد عند هذين الكاتبين ، تلك الطريقة التي لم تعرف لنفسها دربا جليا ، ولم تقدر علـى التزام منهج منفرد ، فهي اشبه بآراء لغوية متزمتة ، تجمع بين النحو والصرف والتأثيل اللغوى والبلاغة ، في نص نقدى واحد تكاد ان تضيع معه الفوارق الدقيقة بين هـذه العلوم • وكأن الكل يندرج في طريقة نقدية واحدة تقتصر حدودها على تعقب اخطاء الخصم الجزئيـة • واعتماد النص القديم مرجعا يحتكم اليـه •

ومن الغريب ان يكون هذا الاحتكام الى القديم من صنيع الشيخ رشيد الدحداح بالذات • فهو ممن اقاموا في باريس حيث عمل على نشر صحيفته البرجيس ، وممن اتيح لهم ان يعيشوا في بيئة من بيئات الحضارة الاوروبية ، كما اتيح ذلك للشدياق مثلا •

الا ان ذلك كله ، كما يبدو — لم يكن كافيا لان يصرف الدحداح عن الانغماس في تيار القديم ، والرجوع الى مراحله القديمة كما رأينا وتخطي عوامل ثلث قرن او يزيد من القرن التاسع عشر اتسمت بالجدة والتطـور اللافتيـن •

• /•

في حين كان زميله احمد فارس الشدياق في مدرسة عين ورقه وممن اطلعوا على بيئات الحضارة الاوروبيـة ، يقوم بمحاولات جريئة من محاولات التجديد في القرن الماضي ، خطت بالنقد والعلوم اللغوية خطوات جديدة ، جديرة بالانتباه والدراسة المستقصيـة .

وكذلك نرى المعلم بطرس البستاني وهو زميل آخر كان والشيخ الدحداح في عين ورقـه ، يتجهون بوضوح نحو الجديد الذى استطاع ان يلمسه في عصره مع انه لم يتح له ما اتيح لزميليـه من عيش في رحاب الحضارة الاوربيـة وينابيعها الاصليـة .

ومن هنا تزيد فكرة التطـور الاجتماعي اهمية في تفسير هذه الظاهرة .

" فليس الاتصال بالحضارة الاوربيـة وحده يكاف لتطوير اى بلد من بلدان الشرق ، وان كنا لا نغمط هذا العامل حقه ، وانما يجب ان يصحب ذلك او يسبقه استعداد كاف في المجتمع الشرقي ناتج من تطـوره الطبيعي الذى كان من الممكن ان يؤتى ثماره حتى لو لم يتم الاتصال باوربا وحضارتها ، لان التنبه الطبيعي الشرقي هو العمـاد الاصيل في التفاعل بما يمكن ان يتفاعل به من الحضـارة الاوروبيـة .

" وبعد هذه الوقفـة القصيرة ، في اعقاب الحديث عن القديم في النصف الاول من القرن التاسع عشر ، نتلفت فنرى ان عوامل الحياة العامة التي فسحت لذلك القديم صدرها طوال نصف قرن لم تبخل على بعض عوامل التطـور التي تهدف الى التجديد ففسحت لها في مجـال " (١)

ولهذا ، لا نكاد نطل على مشارف النصف الثاني من القرن التاسع عشر ونخلف وراءنا ذلك القديم الذى تمثل في عمل بطرس كرامة والدحداح ، حتى نرى اتجاها عاما يلفت الانظار في الانتاج الادبي والنقد في الحياة اللبنانية . مما سيكون له اكبر الاثـر في توجيه الحركة النقدية ، ومعرفة تفسير الاتجاه اللغوى في القرن الماضي .

ويتسم هذا الاتجاه العام بالمحاولات الجادة للوصول الى تعبير ادبي سليم مصفى عن هذه النفس الجديدة التي بدأت تحس في غموض بذاتها وبوطنيتها او قوميتهـا وسط عوامل كثيرة لم تمكنهـا من بلورة تلك الوطنيـة او القومية ، وان لم تقو على طمسها او منعها من النمـاء .

---

(١) النقد الادبي الحديث في لبنان ، الجزء الاول الدكتور هاشم ياغي ص ٣٩ وما بعدها

وكانت تلك المحاولات الجادة متفاوتة القوة والنشاط ، حتى انها انقسمت الى تيارين مختلفين في نطاق ذلك الاتجاه العام الذى انضوت تلك المحاولات جميعا تحت لوائه .

- وتيار يكتفي بالرجوع الى ينابيع التعبير السليم في عصوره الحية الاولى الصافية ، وهو مايمكن ان نطلق عليه التيار المحافظ .

- وتيار لا يكتفي بذلك بل يتجاوزه الى مرتبة التعبير الاصيل الحر عن هذه النفس الجديدة والتي اخذت تتلمس الجديد دون الوقوف عند طرائق الاباء الاولين في تعبيرهم وان صفت ، ودون الاكتراث بالصنعة والتكلف في التعبير وان جاء به الاباء ، فهو تيار يحاول ان يلبس ثوبه الذى خاطه لنفسه في دنيا التعبير ، وترك ثوب الاباء وان كان مزركشا ، وبذلك يمكن ان نشير الى مايميز هذا التيار من بذور جديد .

والتنبه لعوامل التطور في الحياة العامة امر هام جدا في كبح جماح كثير من الاحكام الجارفة على مظاهر الانتاج الادبي واللغوى والنقدى ، وفي الحيطة اللازمة التي تستهدى باضواء عوامل التطور تلك في رؤية التيارات المختلفة وان تجاورت .

ولعل ذلك ان يكون معوانا في تفسير اتجاه انتاج ادبي كانتاج الشيخ ناصيف اليازجي مثلا نحو التعبير في اصالة وصفاء عربيين لا تشوبهما ركاكة عن هذا الذى بدأ يدب في الحياة من روح وطنية او قومية عربية غامضة . وما لذلك من اثار في توجيه الحركة النقدية ، ولعله كذلك ان يكون معوانا في تفسير اتجاه لغوى كذاك الذى اتجه اليه المعلم بطرس البستاني واحمد فارس الشدياق وسعيد الشرتوني من حركة معجمية قاموسية لاستخلاص مايمكنهم من مواجهة مايلقونه في الحياة من حولهم واثر ذلك في الحركة النقدية ، مخلفين وراءهم تلك الحركة المعجمية القاموسية التي كان قد بدأها جرمانوس فرحات في القرن الثامن عشر من اجل اهداف تعبيرية دينية ، واعادها ثانية رشيد الدحداح في طبعه كتاب (باب الاعراب) (١) مصححا مدققا بزيادات جديدة في كتابه (احكام باب الاعراب) ، دون ان يتجاوز غايات جرمانوس فرحات تلك ، وممهدين كذلك لما جاء بعدهم من حركة ادبية ولغوية ، الجديد فيها اقوى مما كان زمنهم ،

---

(١) انظر فصل النقد المعجمي ، رشيد الدحداح ، ص

والتي ستجد ان ابراهيم اليازجي ، في معظم انتاجه ، لم يكن كأبيه ، الى جانب الجديد من حوله فيها ، ولم يدرك ان الذى اخذه عن ابيه من اتجاه كان يجب ان ينمو نماء جيل الابن مخلفا وراءه جيل الاب ، فكان الى جانب القديم على ماكان يتمتع به من احساس لغوى دقيق ، ومقدرة لغوية هائلة ، وترك لواء الجديد في اللغة الى غيره ممن كانوا ادق احساسا بالجديد من حوله كالدكتور يعقوب صروف وتلميذه جبر ضومط وغيرهما .

ونعود بعد هذا الى التيار النقدى الذى اتجه الى القديم اتجاها محافظا فنجد كاتبا كخليل اليازجي (١٨٥٦ — ١٨٨٩) يدعو الى الاستقاء من منابع التراث ورجاله ، لصقل موهبة الانشاء . جاعلا من مطالعة كتب المنشئين كالجاحظ وابن المقفع والبديع والخوارزمي وغيرهم ، منطلق الكاتب في التعبير السليم والكتابة الصحيحة ، لانه يرى ان الكاتب مهما ارتفعت منزلته من البلاغة واتسع صدره في مجال الكلام ليعجز عن اختلاق التراكيب الجديدة ، واستنباط الاساليب المبتكرة آتيا بغير ما اتى به الاولون من ارباب الاقلام الذين تناهبوا البلاغة وضروبها ، والبراعة وطرقها ، فلم يغادروا ثم من متردم " (١) .

ولم يبتعد عن هذا الاتجاه كثيرا الشيخ ابراهيم الاحدب في (كشف المعاني والبيان عن رسائل بديع الزمان) (٢) ، او في تحريره (الوشي المرقوم في حل المنظوم) (٣) لابن الاثير ، او في (فرائد اللآل في مجمع الامثال) (٤) . بل ظل صنيعه مندرجا في نفس الاتجاه .

ومهما يكن من امر دلالة هذه الاقوال فلا بد لنا من ان نراعي امورا ثلاثة :

الاول : ان هؤلاء الذين صرحوا بتلك الاقوال لم يكونوا وحدهم ممن ساروا في هذا التيار المحافظ ، فالذى يتصفح ماكتبه جماعة من اصحاب هذا التيار المحافظ كالمعلم اسكندر آغا ابكاريوس في " نهاية الادب في اخبار العرب) ١٨٥١ ، و " روضة الادب " ١٨٥٨ ، و " منية النفس في اشعار عنترعبس " ، ١٨٨١ ، وشاكر البتلوني

---

(١) يوسف صفير ، نفثات الكتاب في عهد النهضة الاخيرة (سنة ١٨٠٠—١٩٤٨) القسم النثرى ط ٢ — المطبعة المخلصية قرب صيدا سنة ١٩٤٨ ص ١٦—٢١ .
(٢) طبع في المطبعة الكاثوليكية للاباء اليسوعيين سنة ١٨٩٠ .
(٣) مطبعة ثمرات الفنون — بيروت ١٢٩٨ هـ ١٨٨٠ م .
(٤) فرائد اللآل في مجمع الامثال في جزئين كبيرين — المطبعة الكاثوليكية بيروت سنة ١٨٩٤ (١٣١٢ هـ) .

./.

في مقدمة كتابه " دليل الهائم في صناعة الناثر والناظم " سنة ١٨٨٥ وشاكر شقير في " مصباح الافكار في نظم الاشعار ، ١٨٨٨ " ، والاب لويس شيخو في " علم الادب " سنة ١٨٩٧ وغيرهم ، يجد أن ماتناولوه من قضايا نقدية يغلب عليها طابع القديم ، حتى ان مابدر منهم من قليل في ميدان الجديد اتسم كذلك بطريقة قديمة في التناول .

الثاني : ان تصريح هؤلاء لايعني الفهم التام لهذه الصلة التي المعنا اليها بين اتجاههم وبين مواجهة الحاجات الجديدة في الحياة من حولهم .

الثالث : ان التصريح او السكوت لدى هذه الجماعة لايقطع في امر انتماء كل منها الى متجههم انتماء كاملا فبين هؤلاء من اتجه للقديم العربي الاصيل وهو يراعي امر مواجهة الجديد من حوله مراعاة مهما نقل في نقصها وعدم توضيحه اياها لنا بالتصريح فانها دلالة سلوكية تستحق التقدير .

وبين هؤلاء كذلك من اتجهوا للقديم وبخاصة لغير الاصيل منه دون مايدلنا على انهم ادركوا ذلك الاتجاه الذى تشير اليه كما فعل بولس عواد في كتابه (العقد البديع في فن البديع) (١) ، فقد اتجه لاحياء البديعيات التي كانت في بديعية ابن حجة الحموى اتجاها مسرفا .

وسنتناول في عرض عام ، ماد ار من مناظرات لغوية بين انصار القديم ، حول كلمة " فطحل " تلك المناظرات التي غلب عليها طابع القديم ، والتي جرفت جماعة ممن اشتركوا في التيار المحافظ وبعضا ممن اشترك في التيار ذى البذور الجديدة .

وقد اشترك في هذه المناظرة كل من احمد فارس الشدياق وابراهيم اليازجي والمعلم بطرس البستاني والشيخ يوسف الاسير والشيخ سعيد الشرتوني ، والشيخ ابراهيم الاحدب ، حيث الكل انجذب الى زوبعة نقدية كثيرا ما انغلقت اسبابها على تناول جزئيات لغوية ضئيلة ، وجزئيات نحوية بحتة .

---

(١) المطبعة العمومية الكاثوليكية بيروت سنة ١٨٨١ .

وسنترك النقد النحوى لفصل آخر ، في حين يكون مدار البحث الثانـــي على المناظرة اللغوية فقط ،

ويعود سبب بعث المناظرة اللغوية الاولى بعثا عنيفا ، الى ان الشيـخ ناصيف اليازجـي ، قبل وفاته كان قد مدح الشدياق في قصيدة "فرّاء" ولما نشـر ديوانه ، عنونها هكذا : "وقال يمدح احد الادباء" ، فعلق الشدياق بعد وفاة اليازجي على ذلك "في ختام رثائه لناصيف اليازجي سنة ١٨٧١ بقوله : "ولا ادرى ماامنعه من التصريـح باسمي على صفاء الحب بيننا" (١) .

ثم يتابع الشدياق فيقول :

"ثم بعد ان استقر بي المقام بالاستانة العلية ارسل اليّ كتابا ذكر فيـــه انه بلغه ان احد سكان الاستانة يريد ان يطبع مقاماته ... فان في نيته زيادة شيء عليها وتغيير شيء منهـــا ..

"وكان أول ماخطر ببالي من التغيير الذى نواه لفظة الفطحل المذكورة في المقامة الانطاكية صفحة ٢٥٧ بقوله : "ويصبح فاضبا ولا يزال عاتبا يذكرني زمن الفطحل وينجز الوعد بالمطـل" .

ثم قال في تفسيرها (اى اليازجي) : "هو زمن قبل ان يخلق الناس ويمكن ان يكون المراد بـه زمن الطوفان لان الفطحل هو المطر الشديد ، والمراد منه انه لا يزال يذكرها بامور قديمة وهو مثل لما تقادم عهـده" (٢)

وينتقده الشدياق على لفظة "الفطحل" هذه فيقول :

"وهو وهم فان حق اللفظة تقديم "الطاء على الحاء" قال في القاموس : الفطحل كهزبر . دهر لم يخلق فيه الناس بعد . او زمن نوح عليه السلام ، او زمن كانت الحجارة فيه رطابا .. وقال في الصحاح : الفطحل على وزن الهزبر : زمن لم يخلق الناس فيه بعد ."

---

(١) مقالة للشدياق في الجوائب ، مذيلة بقصيدة رثى بها اليازجي ، تاريخ ١٠ ايار سنة ١٨٧١ ، عدد ٥١٩ .

(٢) انظر مجمع البحرين ١٨٥٥ لليازجي ، المقامة الانطاكية ، ص ١٥٩ ، طبع مكتبة الطلاب وشركة الكتاب اللبناني — اللعازارية — بيروت . وهي مجموعة تتألف من ستين مقامة . نسجها المؤلف على منوال مقامات الحريرى دون ان يأتـــي بجديد فقد كانت موهبته تنحصر في امتصاص مواهب الحريرى ، دون ادنى محاولة في الوصول الى تطوير جاد لفن المقامة يمكن ان يميزه ككاتب جيل القرن حتى يندر ان يلمح له القارىء شخصية مميزة .

ثم يقول :

" وفطحل بفتح الفاء اسم رجل . مستشهدا بما جاء في بعض نسخ الصحاح :

انك لو عمّرت عمر الحسل او عمر نوح زمن الفطحل

ويرى ، من ثم ، ان اهل بيروت يقولون للرجل المحنك : فطحل على وزن جعفر وهي ايضا — عنده محرفة . ويخلص بعد هذا الى القول : " ان قول الشيخ ناصيف في المتن والشرح فحطل بتقديم الحاء على الطاء هو من غلط الوهم الذى يغتفر للشاعر .

هذا ، وقد اورد بعض اخطاء اخرى للشيخ ناصيف ، كالمرابط ، والمرابض ، كان الشيخ قد جعل المرابض للخيل والمرابط للغنم ، مع ان رأى الشدياق هو العكس تماما وغير ذلك من تتبع الاغلاط المفردة .

ولما وقف الشيخ ابراهيم اليازجي على مقال الشدياق المذكور ، نشر ردا مطولا على صفحات " الجنان " تحاول ان نستخلص منه بعض ما يدخل في نقد ورد نقد فحطل وفطحل .

يقول ابراهيم اليازجي :

" اما وجه الانتقاد على اللفظة المذكورة فهو ان الحاء فيها مقدمة على الطاء في الواقع ، والحق العكس ، وان يقال الفطحل بتقديم الطاء . وقد اورد (اى الشدياق) على ذلك شواهد وادلة من كتب اللغة .. ومن جملة ما اورد من ذلك قال " وفطحل بفتح الفاء اسم رجل " .

" أقول (اى ابراهيم اليازجي) : وقرائن كلامه تقتضي بقاء ماسوى الفاء على حاله فيكون مفتوح الطاء ايضا على سكون الحاء . ولا وجود لهذه اللفظة على هذا الوجه اصلا . " قال في القاموس : الفطحل كهزبر ، دهر لم يخلق فيه الناس بعد ، او ....

---

(١) انظر : الجنان ١٥ حزيران سنة ١٨٧١ ، الجزء الثاني عشر . بقلم اليازجي . وانظر الشدياق واليازجي للاب شبلي ص ٦٨ وما بعدها .

" ففي قول صاحبنا (اى الشدياق) وهم ظاهر ، او حمل الكلمة على وزن جعفر وفيه [illegible] . وكان الاولى ان يعيده بفتح الحاء ايضا ، او يقتصر على ان يقول بالفتح كما جرى اصطلاح اللغويين ، ويترك ذكر الفاء التي انما هي زيادة في اللفظ تؤدى الى نقص في المعنى ، ويذكر الوجه الثاني ايضا وهو الضم .

ويتابع اليازجي رده متعقبا مثل هذه الزيادة في كتاب الشدياق " سر الليالي " في صفحة ٣ ، في كلامه عن لغات الاعاجم ، اذ قال (اى الشدياق) " فما مثلهن الا مثل الثوب المرقع والوجه القبيح المبرقع " فانه قصد المبالغة في قبحه فالتوى عليه المعنى وجاء عكس المقصود .

" ويضيف اليازجي فيقول : " هذا واذا سلمنا بعدم اشتلام عبارته ، او سلم بصحة انتقادنا ، وثبت على الوجهين ان الدلمة هي بوزن جعفر او قنفذ ، ورد عليه الاعتراض من وجه آخر وهو ان المقام لا يحتمل وزن جعفر ولا قنفذ ، لوقوع الكلمة في الفاصلة مقابلة بالمطلى ، ولا يخفى ان للفاصلة حكم القافية ، على انه لو ترك ايراد هذه اللفظة اصلا لكان اسلم من الانتقاد . وما ادرى ما الذى ساقها وهي اسم رجل رجل لا مدخل لها في المقام البتة فضلا عما تقدم .

ويخلص اليازجي الى القول انه كشف في النسخة الاصلية التي بخط والده ، فلم يجد لما توهمه الشدياق من اثر ، ويرى ان ذلك انما هو " غلط في الطبع من التوع الذى وقع للمولى في ماذكرت . ومنه ابدال البدائع بالمدائح في صحيفة الجوائب المذكورة في العمود الثاني .. وغير ذلك مما لا تخفى على ذى عينين " .

اما ان اهل بيروت يقولون للرجل المحنك ، فحطل على وزن جعفر ، كما يقول الشدياق ، وهي عنده محرفة . فالصحيح ، كما يرى اليازجي " ان التحريف قد حدث من قبله (اى من الشدياق) وانما هم يقولون فلان من الفطاحل . بتقديم الطاء على الحاء بخلاف روايته (رواية الشدياق) . ويعلق على ذلك فيقول : " فربما ورد عليه ذلك عن طريق النسيان والله اعلم " (١) .

---

(١) الجنان ، سنة ١٨٧١ ، الجزء الثاني عشر ، مقالة لليازجي . انظر الاب شبلي ايضا ، ص ٧١ .

./.

وقد رد الشدياق على هذه الرسالة بمقال له لاذع عبر جوائبه ، تحت عنوان " الرد على الخواجه ابراهيم اليازجي "(١) استهلها بقوله :

" لايخفى ان الخواجه ابراهيم اليازجي كان قد كتب في صحيفته الجنان في الجزء الثاني عشر مقالة " خطّأني بها فيما اوردته على لفظة الفحطل و ٠٠ ثم انتقل منها الى تخطئة بعض الفاظ وردت في مقدمة سر الليالي واطال لسانه بالتهكم و ٠٠٠

" اما قوله : " اما وجه الانتقاد على اللفظة المذكورة فهو ان الحاء منها مقدمة على الطاء في الواقع ، والحق العكس وان يقال الفطحل " فقوله (اى اليازجي) في الواقع ، صوابه في المقامات (مقامات مجمع البحرين لناصيف اليازجي) ٠ فان الواقع هو تقديم الطاء على الحاء ٠

ويتابع الشدياق فيقول :

" وهنا ٠٠ زعم انه يلزمني ان اقول وفطحل بفتح الفاء وسكون الطاء وفتح الحاء لانه يقول : ان قرائن كلامي يقتضي بقاء ماسوى الفاء على حاله ٠ فالعجب من هذا التبلتع فانه اذا قال احد وفحطل بفتح الفاء لم يفهم منه سوى وزان جعفر ، اذ ليس للرباعي المفتوح الفاء سوى هذا الوزن ، فما موجب هذا الهذيان كله في هذه الكلمة ؟ "

ويتابع في الرد على ماتوهمه اليازجي من غلط في كتابه " سر الليالي " في كلامه عن لغات الاعاجم : فما مثلهن الا مثل الثوب المرقع والوجه القبيح المبرقع ، حيث قال اليازجي انه (اى الشدياق) قصد المبالغة في قبحه فالتوى عليه المعنى وجاء عكس المقصود " ٠ فيقول الشدياق ردا على ذلك فلعمرى انه لا يرى في هذا المعنى التواء الا من التوت نيته وقصر فهمه وطال لسانه ٠ فان القبيح قد يكون مبرقعا ، كما ان المبرقع قد يكون قبيحا فلا تضاد بين هاتين الحالتين ٠ فمن اين جاء الالتواء ٠ وقد قال ابو الطيب :

قبحا لوجهك يازمان فانه ... وجه له من كل قبح برقع

---

(١) انظر الجوائب ، ٢٣ آب سنة ١٨٧١ عدد ٥٣٦ ٠ والعدد ٥٣٨ ٣٠ آب تحت عنوان " الرد على الخواجه ابراهيم اليازجي " ٠

٠/٠

فما الفرق بين الكلامين ؟

ويتابع الشدياق حديثه عن الفطاحل التي نسبها اليازجي لاهل بيروت فيقول : "وقوله (اى اليازجي) : "ان اهل بيروت لا يستعملون مفرد الفطاحل وانما هي مسموعة عندهم بصيغة الجمع فقط" ، يكذبه ماحرره الفاضل سليم افندى نوفل فانه قال في كتاب ارسله الى من بطرسبرغ : واما لفظة الفطحل فاني وجدتها غير مرة في رسائل قس من اهل بيروت يستعملها في محل علاّمة او فحل رجال" .

وعلى هذا النمط من المماحكة ، والجدل العقيم تستمر المناقشة بين هذين اللغويين ، حاولنا ان نكتفي منها بلفظة واحدة وهي الفطحل ، تاركين بقية المسائل التي تعانقت تعانق قصص كليلة ودمنة ، راسمين من خلال هذه الكلمة خطا افقيا تتجلى فيه ملامح هذه الزوبعة اللغوية التي لم تتعد فنجان النقد الجزئي الضيق .

ولنتابع مزيدا من هذه النماذج ، لنرى تداخل القضايا اللغوية بعضها بعضا كأمشاج ، لا يطيق معها الدارس التفريق بينها ، كتداخل النحو بالبلاغة والصرف بالتأثيل ، والنقد الادبي بالنزعة الذاتية .

وهذا احد النصوص الدالة على ذلك : مما جاء في رد ابراهيم اليازجي على الشدياق في مبحث المفاصلة :

"ثم مالبث (يعني الشدياق) ان كذب قولي ان الفحطل غلط طبع واستدل على ذلك بورود المطل بعدها يعني وقوع كل واحدة منهما فاصلة . فما ادرى كيف ورود المطل بعدها اوجب عنده تاخير الطاء وكأنه لا يجيز ان تكون احدى الفاصلتين المطل والاخرى الفطحل ، مع ان الفطاحل والفحطل على روى واحد ووزن واحد ايضا ، وماذا عسى ان تقتضي الفاصلة غير ذلك .

ويتابع اليازجي قائلا : "ولعله يحسب التزام حذف حرف قبل الروى من الامور الواجبة في السجع ولذلك لم يجز مع المطل الا الفحطل .. والصحيح ان ذلك جناس من البديع يسمونه التزام مالا يلزم وفي تسميته اكبر دليل .

"وقد تصفحت في سجعه (سجع الشدياق) فلم اجده يلتزم ذلك . واذا كان في ريب من علمه ففي القرآن (الكريم) وفي مقامات الحريرى وغيرها من افصح الكتب المفصلة مايأتيه بالبرهان الفاصل ويتكفل بجلاء المسئلة باوضح بيان .

./.

١- [illegible]

الشيخ ابراهيم اليازجي رأس المدرسة المحافظة :

ما دار بين الشدياق واليازجي ، مما قدمناه في المماحكة السابقة ، لخير دليل على ماذهب اليه من ان ابراهيم اليازجي يرجع في تقييم الاعمال الادبية واللغوية وفق ماتقرره دراسات الاولين واحكامهم اللغوية . فهو مؤتم بعلماء السلف، جاعلا من الاحتكام الى ارائهم الفيصل في كل امر . وكثيرا ماكان الرجل زميتا في مناقشاته عبر صفحات مجلته في مقالاته (لغة الجرائد) فيعمد الى تخطئة محدثيه دونما اعتبار لتطور المدلول اللفظي ، او ادنى استجابة لمتطلبات معنوية جديدة .

وقد غالى في ذلك ، حتى ذهب في امره شططا ، حين تصدى لكلام العرب الاقحاح جاهليين واسلاميين وقدماء كما تصدى لمحدثيه ، ابتغاء تقويم اعوجاج خطأهم ، كما يعتقد ، وهذا مايفسر حملته على ناشرى لسان العرب وتاج العروس واشارته الى ماوقع في ذينك المعجمين من الخطأ الذى اعتبره فاضحا ، مرجعا اياه الى الصواب .

وقد كانت نظرته هذه الصفية تعنى اولا بناحية جزئية وتمعن في تزمتها ، حتى حملت بعضا من جماعة هذا الاتجاه المحافظ نفسه الذى لمع اليازجي من بين افراده على ان ينقلب على اليازجي ، تعني به "حسن السلام" الذى رد على الشيخ في كتاب اسماه " دفع الاوهام " ، وبذلك انقلب بعض اصحاب هذه النظرة نفسها على بعضهم الاخر ، وكأنما انقلبت هذه الفئة على نفسها .

ولعل تزمت الشيخ ابراهيم اليازجي يعود الى مافشا في لغة الجرائد من لحن وهو امر اخذ يستفحل حتى وصلت بعض اساليب الانشاء الى حد الركاكة المرذولة . وهذا ما خشيه الشيخ من ان تنشأ لغة خاصة ببعض الكتاب العصريين والجرائد على ماذكره في اللغة والعصر من وجود لغة لكل عصر .

ولنستمع الى الشيخ في مقالة من مقالاته (لغة الجرائد) حيث يقول :

" والعجب هنا انك كثيرا ما ترى اناسا من متقدمي الكتاب وذوى القدم الراسخة في اللغة والانشاء يعتمدون احيانا على التقليد ، وربما قلدوا من هو دونهم من

./.

اصاغر اهل الصناعة ، حتى فشا النقل بين تلك الطبقات كلها ، واصبح كثير من الفاظ الجرائـد لغة خاصة بها تقتضي معجماً بحاله . ولما كان الاستمرار على ذلك مما يخاف منه ان تفسد اللغة بأيدي أنصارها ، والموكول اليهم امر أصلاحها ، وهو الفساد الذي لاصلاح بعده ، رأينا ان نفرد لذلك هذا الفصل ، نذكر فيه اكثر تلك الالفاظ تداولا ، وننبه على ماقيها مع بيان وجهة صحتها من نصوص اللغة . وفي يقيننا ان رصفاؤنا الافاضل يتلقون ذلك منا خدمة اخلاص لهم ، لانقصد بها الا المحافظة على اللغة ، وصيانة اقلامهم من مثل هذه الشوائب ، مع كفايتهم مؤونة البحث والتنقيب في كتب اللغة على ماهو معلوم من وعورة مسلكها ، وشكاسة ترتيبها ، مما كان ولا شك ، هو السبب في تجافيهم عن مراجعتها ، واستثبات صحة تلك الالفاظ منها " .

ثم يتناول مايزيد على اربعمائة لفظة ينقدها نقدا جزئيا نختار من بينها اربعة امثلة :

المثال الاول : قال اليازجي : " يقولون تكدّر من هذا الامر ، اى استاء منه واشتد عليه . وقد كدّره الامر واحدث عنده كدرا عظيما . ومنهم من يقول كدّره بمعنى عنّفه وقرّعه وهذه الاخيرة من اصطلاح الاتراك وكل ذلك غريب عن استعمال العرب ، وان امكن رده الى وجه صحيح " (١) .

والمثال الثاني : قال اليازجي : " ومن ذلك قول الاخر (٢) ، قباب نواقيس غرناطة ، يعني بالنواقيس الاجراس ، وانما النواقيس جمع ناقوس ، وهو كما فسره صاحب القاموس ، خشبة كبيرة طويلة تقرع بخشبة قصيرة ، يقال لها الوبيل ، ايذانا بوقت الصلاة . وكل احد يعلم ان هذا النوع لاوجود له في كنائس غرناطة ، بل هو مما لا يعرف له وجود في جميع اوربا ، غير ان الكاتب لم يكتف بذلك حتى جعل محل النواقيس في قباب الكنائس وهو اغرب " (٣) .

والمثال الثالث : قال اليازجي : " ويقولون هؤلاء قوم اغراب . يريدون جمع

---

(١) مجلة الضياء ، السنة الاولى ، الجزء ١٧ ، ص ٥١٤ .

(٢) الاخر هو شكيب ارسلان

(٣) ص ١٢٢ من لغة الجرائد .

./.

غريب . وهذا الجمع غير مسموع في هذا الحرف ، والصواب فرباء ، لان جمع فعيل على افعال من الجموع لسماعيه (١) .

والمثال الرابع ، قال اليازجي : " ويقولون : انظر ان كان في داره ، وسله اذا كان الامر كذا . فياتون بان واذا في هذا الموضع وهو من التعريب الحرفي عن الافرنجية ، وكأن الذى استدرجهم الى ذلك مايرى في الكلام الفصيح من نحو قولنا افعل هذا ان استطعت . وشتان مابين الصيغتين وان تشابهتا في بادىء الامر . لان قولنا : افعل هذا ، هو في معنى الجواب لان ، فالعبارة على تأويل ان استطعت فافعل وهذا بعيد في نحو المثالين المذكورين ، لانهما ليسا على معنى ان كان زيد في داره فانظر واذا كان الامر كذا فسله . والصواب ان تبدل اداة الشرط في مثل هذا بهل ، تقول : انظر هل هو في داره ، وسله هل الامر كذا . وقس عليه ذلك ما اشبهه . " (٢) .

وقد انبرى الامير شكيب ارسلان ، مدافعا عما نسب اليه اليازجي من خطأ في رواية (آخر بني سراج) التي ترجمها عن الفرنسية ، حيث تناول في رده امرا جديرا بالتنبه اليه وهو تطور المدلول للكلمات اللغوية بتطور الزمن ، وقد اورد هذا الامر في دفاعه عن كلمة النواقيس التي جاء في (آخر بني سراج) وخطأها اليازجي كما مر بنا ، واورد شكيب ارسلان امثلة على تطور المدلول للكلمات اللغوية كما في السلبة والشباك ، والبيت ، والجرائد ، وقال بين ماقاله : " ونعلم ان اللغة العربية يقع فيها النقل لادنى ملابسة ، ونفس صاحب الضياء (اى ابراهيم اليازجي) يقول في (الطبيب) (٣) عند بيان وجه تسمية المنطاد انه من انطاد ، صعد في الجو ، وان هذا احد معانيه ، والنسبة اللغوية يكفي فيها ادنى سبب ، هذا الذى اتذكره الان ولكن صاحب الضياء (اليازجي) يبقى محافظا على قواعد العربية مقررا لاصولها حتى يقع في المناظرة ، فهناك يجيز لنفسه كل شيء ، ولا يحترم نصا ، ولا يتبع اماما ، ولا يستثني جاهلية ولا اسلاما .

---

(١) مجلة الضياء : السنة الثانية — ١٨٩٩ ، الجزء ١٦/٣٠ نيسان ص ٤٨١ .

(٢) = = = = = = = = = ص ٤٨٣ .

(٣) الطبيب : اسم مجلة كان يصدرها ابراهيم اليازجي .

./.

وقد كان شكيب ارسلان في دفاعه وتناوله المواد اللغوية في الرد على اليازجي يسير في طريق اليازجي نفسه حتى انه قال :

" فهذا ماتوخينا ايراده من الجواب على هذا الذى اقام نفسه مسيطرا على اللغة ، وان شاء اوردنا له من اغلاطه في لغة الجرائد ، وفي الضياء ، وفي البيان ، وفي الطبيب من قبلسه ، وفي مختصر الارجوزة ، وفي شرح المتنبي ، وفي تاريخ مادى الذى صححه وفي مناظراته العديدة مع بعض ادباء العصر ، مايكون كتابا مستقلا ، وأريناه كيف يكون الانتقاد واين مواضع الخطأ ، وكيف يخبط الشيخ ، وهو ينسب الخبط الى غيره (١) " .

ولعل من الجدير بالملاحظة ، ان شكيب ارسلان كان قد رد على اليازجي في تخطئة شوقي ودافع عن شوقي في روايته (عذراء الهند) التي نقدها اليازجي (٢) بهذه الطريقة نفسها ، وقد اورد ذلك في كتابه (شوقي او صداقة اربعين سنة) (٣) ولم يفت شكيب ارسلان التدليل على سعة علم اليازجي وتعنته مع غيره (٤) في الوقت نفسه ، كما ذكر ذلك في الدفاع عن رواية (آخر بني سراج) .

اما عبد الرحمن سلام في كتابه " رد الاوهام " فقد نهج في رده على اليازجي نهج الشيخ نفسه . دون ان يخرج عن نطاق المدرسة التقليدية التي يرئسها اليازجي . مع ان عبد الرحمن كان قد اخذ على اليازجي تهوره وخروجه عما اراد في مقدمته من نصح للكتاب في لغة الجرائد . الا انه عاد فتناول اربعين مادة مما تناول اليازجي واعاد القول فيها بالطريقة نفسها ، ومستوى المعالجة اياها ، مع مدافعة عن الكتاب القدامى الذين انتقدهم اليازجي .

يقول عبد الرحمن سلام في مقدمة كتابه " دفع الاوهام " (٥)

---

(١) الضياء وابن سراج : ضمن مجلد يحوى : آ ـ كتاب لغة الجرائد السابق ذكره .
ب ـ كتاب دفع الاوهام لعبد الرحمن سلام .
ج ـ الضياء وابن سراج .

(٢) نقد اليازجي (عذراء الهند) لشوقي وبخاصة عبارتها والفاظها في سنة ١٨٩٧ ـ الروائع رقم ٤١ ص ٤٥ .

(٣) شوقي او صداقة اربعين سنة : مطبعة عيسى البابي الحلبي وشركاه بمصر سنة ١٣٥٥ هـ ـ ١٩٣٦ م ص ٥٨ ـ ٧٦ .

(٤) نفس المصدر ص ٥٦ ـ ٥٨ .

(٥) كتاب دفع الاوهام ، المطبعة الادبية ، بيروت سنة ١٣١٧ هـ / ١٨٩٩ م .

./.

" ... بيد انه (اى اليازجي) ملعتم ان سمّ القلم ودس السم في الدسم وشرع يتهور في تخطئة فريق من مشاهير الكتاب والعلماء المؤلفين تهورا لا يكاد يصدر عن مثلق انسان خلقه الله وعلمه البيان ... "

وسنختار مثالين من اربعين ردا لسلام على اليازجي .

المثال الاول : قال عبد الرحمن سلام : " وغلّط (اليازجي) الالبيرى في قولـه :

ومهما اكربتك صروف دهـر فقل ماقاله الرجل الاريب

فيرى انه لم يرد اكرب بمعنى كرب .

(قلت) اى (سلام) لامانع من استعمال اكربه الامر مكان كرب ، ففي التاج يقال اكربت السقاء اكرابا اذا ملأته . وفي مجاز الاساس ملأت السقاء حتى اكربتـه وكظظته . وفي التاج على القاموس (وكظه الامر) يكظه كظا واكظاظا وكظاظة ، بفتحهما (بهظه) وملأهما و(كربه وجهده) واثقله وهو مجـاز .

" وهنا لنا ان نقول اذا جاز ان يأتي اكرب بمعنى كظ وكظ بمعنى كرب جاز ان يأتي اكرب بمعنى كرب ، وعليه فقول الالبيرى صحيح لاغبار عليـه " (١) .

—والمثال الثاني : قال عبد الرحمن سلام : " ورد (اى اليازجي) ماورد في تاريخ ابي الفداء وذلك قوله في حوادث سنة ٦٥٨ وقتل مقدمهم كتبغا واستؤسر ابنه . وكذلك ماجاء في شرح رسالة ابن زيدون لابن نباتة في الكلام عن الاسكندر اصبح مستأسر الاسرى اسيرا . اهـ .

قال اليازجي : وانما يقال استأسر الرجل بمعنى استسلم للاسر فالفعل لازم لا متعـد .

(قلت) (العبارة لسلام) ان استعمال استأسر متعديا لاشبهة فيـه فقد صرّح بذلك المطرزى صاحب كتاب المغرب ، واورد عليه حديث عبد الرحمن وصفوان وهو (انهما استأسرا المرأتين اللتين كانتا عندهما من هوازن) .

ويعلق سلام على هذا فيقول : " فهل بعد ما اورده المطرزى مجال للاعتراض " (٢)

---

(١) سلام ، دفع الاوهام ، ص ١٦ — (٢) نفس المصدر ، ص ٢٨ .

./.

ولعل مايوضح تطرف اليازجي مع غيره في التخطئة مانقله رشيد الشرتوني في مناظرته مع اليازجي حول لغة الجرائد ، اذ نقل الشرتوني عن الجزء الثاني والعشرين من مجلة الضياء من كلام اليازجي مايلي :

" قبل ان نمسح القلم من هذا الفصل لابد لنا من ذكر امر فاجأنا به احدى المجلات الادبية بما لم نتوقعه ، ولعل ذكره لايخلو من فائدة وتبصرة .

وذلك ان بعض رصفائنا الالباء توهم اننا نريد من هذا البحث مناقشة اصحاب الجرائد ، فقام يرد علينا ، (١) ويتمحل الحجج والاعذار تصحيحا لبعض ما نبهنا عليه من الاغلاط .

" ولعله توخى منها ماكان قد اتفق له السقوط فيه . فكدّ ذهنه واسهر جفنه في البحث وتقليب الصحف ، ثم جاءنا بامور حاصلها تخريج بعض تلك الاوهام على بعض المذاهب الساقطة ، واحالة بعضها على بعض اللغات المتروكة ، وتوجيه بعضها على وجوه من التأويل والمجاز مما نحن اعلم به ... ولو ذهبنا الى التخريج كما يريد هذا الاديب لما كتبنا في هذا المعنى حرفا . اذ قلما تجد تركيبا مخالفا للصحة الا وله وجه يرد اليه . على ان التخريج انما ينحى فيما يصدر عن قائله سهوا او لضرورة ، لا فيما يرتكب عن جهل ، او في سعة من اجتنابه ، ولا على ان يجعل قاعدة يسوغ بها ركوب الشطط ، ثم تتكلف له الاعذار الباردة والحجج الواهنة ، وهذا القدر كاف في هذا المقام . "

وكأنما كان نقد ابراهيم اليازجي لغة الجرائد محورا دارت في فلكه آراء له تتصل بهذا النقد وتشبهه الى حد كبير في المستوى وطريقة التناول .

ويحدد شاكر شقير ، وهو من اصحاب التيار المحافظ في كتابه (غصن لبنان) (٢) واجبات المنشي " فيقول :

---

(١) يقصد رشيد الشرتوني .

(٢) كتاب " لسان غصن لبنان في انتقاد العربية العصرية " شاكر شقير ، طبع في المطبعة العثمانية في بعبدا (لبنان) سنة ١٨٩١ .

./.

" ومن واجبات المنشي " ان يعرف فنون الادب ، اى علم العربية لكي يصون كلامه من الخطأ في التركيب ، والبيان باقسامه لكي يحسن تأدية المعنى بالفاظ لاتخل بالفصاحة والبلاغة ، ويسبكها في قوالب حسنة قويمة (مأنوسة) والعروض واطرافه لكي يأتي بنظم لا يمجه الذوق ، والمنطق ، لكي يكتب عبارات حسنة الارتباط متينة الاساس ، موقعة توقيعا قياسيا ينبو عنها سيف الانتقاد العقلي ، وعلم اللغة لكي يضع كل كلمة في محلها الصحيح بحيث تؤدى مع القرينة المعنى المراد " (١) .

ولكن شاكر شقير مع هذا التحديد الذى لم يحس بمضي الوقت وما جدّ فيه من جديد لا يتوانى عن الترويج للسهولة في الكتابة فيقول : " فاذا نظرنا الى ايام الجاهلية واقوالهم نرى فيها كلاما يستهجنه ابناء هذا الزمان ، ولكن يستأنس به عصرهم ، وان ملأوا الدفاتر باوصاف اباعرهم ... فلا غرو لانه لم يكن عندهم غير هذه المواضيع ، يقلبون فيها كلامهم كيف شاؤوا . غير اننا نحن في عصر سلس لين رائق ذكي ، قد احاط علما بامور بديعة واحوال مفيدة فيطلب ماينا سبه من هذا الفن فيسيغه وينفر مما يخالف طبعه فيمجه ، فالسهولة والظرافة والانسجام مع السلاسة ، والايضاح والايجاز ، وما اشبه ذلك من محسنات الالفاظ والمعاني التي هي الان المحور الذى يدور عليه دولاب الانشاء ، والبضاعة في سوق الادباء " (٢) .

وهكذا نرى شاكر شقير بعد ان حاول ان يتلمس شيئا من مطالب العصر في السهولة والايضاح يعود الى طمس هذه المحاولة بقوله ان المحسنات اللفظية والمعنوية هي المحور في دولاب الانشاء زمنه ، طمسا لا يوافقه عليه حتى بعض من كتبوا من رهطه من اصحاب التيار المحافظ كشكيب ارسلان ، كما مر سابقا ، لا بل نراه هو نفسه في كتابه (غصن لبنان) ينعى على بعض كتاب عصره خبطهم في انشائهم بالسجع فيقول :

" فلمّ يتصدى بعض من حركت انامله القلم لكتابة جمل في مواضيع مختلفة ، فيخبطون خبط عشواء صارفين جهدهم الى زخرف الكلام بالتسجيع والاغراب ، ظانين

---

(١) نفس المصدر ص ٥ .

(٢) لسان غصن لبنان ص ٦ .

./.

ان طنطنة الكلام هي الفصاحة والبلاغة ، مطنبين حيث يخل الاطناب وموجزين حيث يكون الايجاز لغزا ، يطيلون شأو عبارتهم حتى تتشوش الافكار ، ويفصلون بعضها عن البعض بحيث تفقد الرابطة بينها كسلسلة قد انتثرت حلقاتها ، فيوهمون الجاهل انهم اتوا ببلاغة يظنها فوق طاقة ادراكه ، فيوقع الملامة على نفسه وقصر فهمه ، لكن لا يغتر بها الاديب لعلمه ان مثلها مثل طبل تكدّر رجرجته الهواء ، وهو من الداخل فارغ لا معنى فيه " (١) .

ثم يعلننا في كتابه (فصن لبنان) انه سينشر بعض ملاحظات في الاساليب وما يقع فيها من خطأ لدى بعض كتاب زمانه .

وكما عالج شقير في كتابه (فصن لبنان) قضية الانشاء بالمستوى الذى رأيناه ، عالج كذلك قضية الانتقاد : فعرض للغاية منه ، ولمواده ، وكيفيته .

اما اوجه الانتقاد التي عنى بها في كتابه الذى نقف عنده فتدور حول ثلاث قضايا هي على التوالي : " التعريب ، والخطأ في قواعد العربية ، واستعمال بعض الفاظها في غيرمحله " (٢) .

ويحدد شقير طريقته في التعريب ، وما يجب ان تخضع اليه هذه الصناعة من قوالب كي يمتنع الخطأ في رأيه . ثم يتناول الوجه الثاني من الوجوه الثلاثة السابقة فيقول :

" واما الخطأ في قواعد الصرف والنحو والبيان ولا سيما في استعمال الظروف والحروف فاكثر من ان يحصى ، فاني كل يوم ارى منه شيئا في كل المطبوعات تقريبا . والعلة معروفة تصعب مداواتها ، لان كثيرين من الكتاب يكونون قد تعلموا في المدرسة بعض مبادىء العربية ، والبعض منهم لا يكون له العلم بها فيستند الى فيره . وحالما يخرج الولد من المدرسة واحيانا قبل ان يخرج ، يطرح بضاعته لدى العموم ، فيطبع المقالات والاشعار ، وهو يهرف بما لا يعرف ، فهذا الذى هتك ستر العربية ومزق حجابها كل ممزق . " (٣) .

---

(١) لسان فصن لبنان ص ٥
(٢) = = = ص ٧ .
(٣) نفس المصدر ص ٨ .

./.

ثم يقـول :

" وسأبين شيئا كثيرا من هذا الخطأ ، فيتضـح للعموم لزوم لتقان قواعد اللغـة .

" وهذا الذى حملني ايضا على وضع كتاب جديد سميته " الاحكام الصحيحة في العربية الفصيحـة " وهو عبارة عن ثلاثة كتب الاول في الصرف ، والثاني في النحو والثالث في الظروف والحروف . وقد جمع هذا الكتاب فاوعى اشتات مسائل لا يعرف اكثرها الا من كثرة المطالعة ، على ان الكتاب كله لا يتجاوز اربعمائة صفحة بقطع ربـع ، وهو حتى الان لم يطبـع ...

وهنا يقتطف شاكر شقير من كتابه المشار اليه فيدلل على اتجاهه الذى لمحنا جانبا منه ، وهو رغبته في تقعيـد القواعد اللفظية للتعبير ، دون اهتمام بتطور العصر والنفوس من حوله ويتناول بعد ذلك الوجه الثالث من وجوه الانتقاد ، فيرى ان استعمال الالفاظ في غير محلها ، عمل يقتضي شرحا طويلا ، لان كثيرين يضعون الكلمة لمعنى يقصدونه ويكون معناها بالخلاف . وهو الذى حمله — كما يعتقد — على وضع كتاب اسماه " اساليب العرب في صناعة الانشاء " (١) الذى يقول في مقدمته :

" ... فلما كان هذا العصر الزاهر ميدانا تتسابق فيه اقلام الكتاب ... ولم يكن الكثير متقنا للعلوم العربية ومطلعا على اسرار اساليبها الفصيحة المأنوسة .. ورأيت كتابات عديدة يرمى الكلام فيها على عواهنه رأيت من باب اللزوم .. ان اضع كتبا مختلفة محاولا فيها تأدية قواعدها واساليب تراكيبها بطرق سهلة بسيطة .. (٢)

وسنكتفي هنا بذكر مثال واحد فقـط .

جاء في قوله عن (بيت) : " بات يبيت (ولا تقل يبات) قضى ليله يقال بات زيد عند عمرو وبات مسرورا او قلقا او في هم شديد ، او في شغل شاغل ، ولا يقال بالباء عوض في الا في الضـرورة .

---

(١) كتاب اساليب العرب في صناعة الانشاء ، مطبعة القد . جاورجيوس للروم الارثوذكس بيروت سنة ١٨٩٣ وسنة ١٨٩٤ .

(٢) من مقدمة (اساليب العرب في صناعة الانشاء) ص ٢ .

٠/٠

" واما قولهم بات بليل القد • فليس المراد به الظرفية ، والحرف فـي الموضعين متعلق بمحذوف حال من الضمير ولا يبات بخلاف قولنا بـت في منزلـي فتأمـل •

" ومن اساليبهم باتت فلانة بليلة حـرّة اى لم يعرفها زوجها وبليلـة شيبـاء اى عرفها ، والباء استصحابية • وبات يفعل كذا ، من الافعال الناقصة مختص بالزمان الليلي ، وقد لا ينظر فيه الى زمان مخصوص " (١) •

مما تقدم ، تبين ان كتاب شاكر شقير (اساليب العرب) عمل معجمي صغير ، او قاموس يحاول ان يحصر فيه ماراه مفيدا في استعمال الكلمات والعبارات العربية •

وبذلك اوضح شقير في جلاء اتجاهه في محاولة تقعيد القواعد المعنيـة الثابتة للتعابير اللفظيـة ، وما درى ان الحياة وتطورها يستعصيان على التقعيد المتحجـر ، ويتطلبان شيئا آخر ادركه جماعة من رهط مقابل لرهطه في هذه الفترة الزمنيـة التي نقف عندها وهم رهط المجددين •

ولعل ماذكرنا من اتجاه شاكر شقير العام النقدى يوضح في جلاء ناصع منزعه الذى نزع اليه في خطابه الذى وجهه لجماعة الازهر في مصر في مطلع كتابه (غصن لبنان) ودعوته لحصر التعابير العربية في قمقم خشية الخطأ الذى كان يخاف منه •

قال يخاطب السادة العلماء الافاضل في الجامع الازهر من حيث هم في رأيه " نخبة العلماء الاماثل " ويبدو هم زمام العربية بعد ان كثر عليها المتطفلون وصاروا يأتون بكل لقيطة من عباراتها مما تأباه السجية العربية والغيرة الادبية مما اوجب عليه أى المؤلف شقير — بعد التفكير الطويل الاقدام على فتح بـاب الانتقاد الخطير ، ومخاطبة علماء الازهر علهم ينظرون الى عمله (وهو الاتيان بعجالته الانتقاديـة) بعين الحلم والقبول ولعلهم يضعون لاحكام اللغة العربية الشريفة بعد الحدود حدا يقف عنده الطالب ولا يتعدى ، حتى بعد الاشارة الى مايغني من الشوارد والنوادر ، كي تصير العربية (في رأيه) على " تمادى الزمان محصورة في احكم الدوائر " (٢) •

---

(١) من مقدمة اساليب العرب في صناعة الانشاء) ص ٧٩ — ٨٠ •
(٢) لسان غصن لبنان ، المقدمة (بتصـرف) •

/ •

ثم يقول مقترحا على علماء الازهر :

"ويا حبذا لو عقد ثم مجلسا يحكم منذ الان على كل مايكتب وينشر ، ويؤيد الصحيح منه ، وينبذ كل مالا يحسن ان يذكر ، فتنهض اللغة بعد خمولها ، وترجع الى منابتها باصولها ، وتعود الى زهرتها النضارة بعد ذبولها" . (١)

بذور الجديد ونبذ التكلف اللغوى :

وقد آن لنا ان نعود الى ماكان قد بزغ في حياة النقد اللبنانية من بذور جديدة منذ اخريات النصف الاول من القرن التاسع عشر لتمضي معها وهي تسير في تيار تجدد موازٍ لما رأيناه من تيار محافظ في ظلال اتجاه عام كناقد اشرنا اليه .

ولعل اسبق رجال هذا التيار في اطلاعنا على ماكان لديه من بذور جديد هو احمد فارس الشدياق ثم تلاه اديب اسحق ويعقوب صروف ثم حبيب بنوت ونجيب الشوشاني .

ورغم ان الكثير من اعمالهم النقدية هذه ، تخرج عن نطاق بحثنا ، الا انه من الضرورة بمكان ان نرسم شيئا عن نقدهم الادبي تمهيدا لما نريد من نقد لغوى فقد استطاع هؤلاء ان يتناولوا في شيء من التجديد بعض جوانب من قضية التأليف وقضية الشكل والمضمون ، وبعض بذور تدفع الى ادب مقارن ، وبعض آراء في صورة النقد عامة ونقد الرواية او القصة خاصة الى جانب بعض الاراء التي تتصل بالتمثيل والشعر والشعراء .

ونحب ان يكون مدلول بذور جديد يتسق والجهود التي قام بها هذا الفريق من اصحاب التيار المتجدد ، فان بذورا جديدة لاتنفي ماكان يغيّر شيئا من الاراء لدى بعض هؤلاء بغبار القديم او يوقعهم في الحيرة بين القديم والجديد ، وهي لاتنفي كذلك شيئا من الالتقاء بين بعض هؤلاء وبعض اصحاب التيار المحافظ ، حول بعض الاراء ، ولكنها مع ذلك كله كانت تنعم باضواء من جديد سمحت به الحياة والظروف العامة منذ وقت مبكر من اواخر النصف الاول من القرن التاسع عشر .

---

(١) لسان فصن لبنان ، من المقدمة ص ٢ .

٠/٠

احمد فارس الشدياق :

لعل من اقوى من اسهموا في بذر بذور الجديد في حياة النقد اللبناني في اوائل النصف الثاني من القرن التاسع عشر هو احمد فارس الشدياق .

وما يهمنا من كتبه هنا ، ماجاء في كتاب (الساق على الساق) من حديث دار حول غرائب اللغة ونوادرها ، وما جاء من ملاحظات نقدية تناثرت بين صفحات الكتاب نقتطف منها ماجاء في شكواه من حالة النقد والنقاد في زمانه ، حيث يقول :

" ... حيثما سرت وأيان توجهت وجدت اناسا ينتقدون عليك كلامك . فان عبرت بالواد مثلا قالوا الافصح هنا الفاء او با وقالوا الاولى ام ... وهذا هو سبب قلة التأليف في عصرنا . فان المؤلف والحالة هذه يعرض نفسه للطعن والقدح والبلاء . ولا يراعي الناس مافي كتابه من الفوائد والحكم . الا اذا كان مشتملا على جميع المحسنات البديعة والدقائق اللغوية ومثل ذلك مثل رجل فاضل يدخل على قوم بهيئة رثة ورعابيل شماطيط . فالناس لاتنظر الى ادبه الباطني بل الى بزته وزيه . والحمد لله على قلة المؤلفين اليوم في بلادنا ، اذ لو كثروا وكثر نقدهم وتخطئتهم لكثرت اسباب البغض والمشاحنة بينهم ، وقد استغنى الناس عن ذلك بتلفيق بعض فقر مسجعة في رسائل ونحوها كقولك السلام والاكرام . والسنية والبهية . فاخفه ماكان ساكنا " (١) .

وينتقد في موضع آخر في الكتاب ماكان من تكلف بديعي وتزيين لفظي يرهق كاهل الانشاء والمنشئين فيقول :

" ولكن هيهات فاني ارى اكثرهم قد زاغ عن هذه المحجة ، اذ المؤلف منهم بينا هو يذكر مصيبة احد من العباد في عقله او امرأته او ماله اذا به تكلف لايراد الفقر المسجعة والعبارات المرصعة وحشى قصته بجميع ضروب الاستعارات والكنايات . وتشاغل عن هم صاحبه بما انه غير مكترث به . فترى المصاب ينتحب ويولول ويشكو ويتظلم . والمؤلف يسجع ويجنس ويرصع ويورى ويستطرد ويلتفت ويتناول المعاني البديعة . فيمد يده تارة الى الشمس وتارة الى النجوم . ويحاول انزالها من اوج سمائها الى سافل قوله ...

---

(١) الساق على الساق ، الشدياق ، منشورات دار مكتبة الحياة — بيروت — ١٩٦٦م . ص ١٣٢ — ١٣٣ .

./.

ثم يتناول الشدياق موضوع تلاؤم التعبير للموضوع وتوافق المبنى والمعنى فيقول :

" اني اذا اوردت كلاما عن احمق انتقيت فيه له جميع الالفاظ السخيفة . واذا نقلت عن امير تأدبت معه في النقل ما امكن . فكأني جالس بمجلسه . او عن قسيس مثلا او مطران اتحفته بجميع اللفظ الركيك والكلام المختل . لئلا يصعب عليه المعنى فيفوت الغرض من تأليف هذا الكتاب " (١) .

ومع هذا الذى اورده الشدياق من هذا الذى ندعوه في زماننا من مشاكلة للواقع في وصف الاشخاص او انطاقهم ، بما يليق ومستواهم العقلي ، وفي هذا مافيه من بذور جديدة ، ومع هذه الخطة التي رسمها للمؤلفين جميعا في التأليف ، او العناية بالجوهر وبالبناء الاصلي للمؤلفات وترك العرض والصناعة اللفظية الصارفة عن الجوهر وكذلك الاستطراد — مع هذا كله فان الشدياق لم يخل من عيب الاستطراد ولا من شيء من عيب العناية بالالفاظ بطريقته الخاصة ، ولا من بعض اخلال بهذا الذى نبه اليه من مشاكلة الواقع .

ولعل ذلك يفسر ماقلناه من ان بعض رجال هذا التيار المتجدد لا يخلون من تغيير اصاب تلك البذور الجديدة التي بذروها .

اديب اسحق ويعقوب صروف :

اما اديب اسحق فكانت بذور التجديد لديه اسطع من غبار القديم ، ولعل لنزعته النضالية الحارة اثرا في ذلك .

ولعل اكثر مايلفتنا في بذور التجديد عنده ماجاء في حديثه حول الاساليب وما فيها من شكل ومضمون ، ومهاجمة للصناعة اللفظية في كل ذلك .

قال في كلام له على سنة جريدة مصر (١) الاولى :

---

(١) الساق على الساق ، ص ١٣٤ — ١٣٥ .

(٢) جاء اديب اسحق الى القاهرة فأنشأ فيها جريدة اسبوعية (مصر ، سنة ١٨٧٧) . انظر يوسف اسعد داغر ، مصادر الدراسة الادبية — ج ٢ بيروت سنة ١٩٥٦ ص ١١٢ .

./.

" ولكن للافكار حركة مستمرة تقطع بها عقبات الاوهام لتدرك غايتها وهي الحقيقة ، وللنفوس آمال منوطة بالاستقبال .

" ومنها تهذيب العبارة ، وتقريب الاشارة ، وتنقيح الكلام ، وتقرير المعنى في الافهام واطراح مايتجافى من اللفظ عن مضاجعة الرقة ، وماكان منه غريبا تنفر منه الخواطر وتشمئز النفوس ، فانه لاعذر لمن يقول : عقنقل وفي اللغة كثيب ، وقدموس وفيها قديم ، والشهر المنصرم وفيها الماضي والسابق ، والغابر والمنسلخ ، والمنحسم ، وكثير غيرها .

" وذلك مع تجنبنا مبتذل الكلام وسوقيه ، واطراحنا فاسد التركيب وعاميه ، فانه داء اذا سرى في عامة الناس أمات اللغة ، واغلق على الطلبة معاني كتب العلم ولا أزيد بها القارىء علما انها كنوز لاتوصف نفاسة ، ولا تعد كثرة " (١) .

وواضح من كلام اديب اسحق اهتمامه بالافكار ودورها في الوصول الى الحقيقة واهتمامه الشديد بهذه الصلة التي يجب ان تكون قوية متينة بينه وبين معاصريه من جهة وبين التراث الادبي والثقافي العربي من جهة اخرى . غير ان مفهومه لهذه الصلة ، وحرصه على ذلك التراث التليد لم يمنعاه من تمثل عصره و بذور الجديد فيه فقال :

" على اننا لاننكر ان لحركة العصر حكما قاطعا ، ولاصطلاح اهله قضاء نافذا ، وان كاتبنا في هذا الزمان لايستطيع ان يتلو تلو السابقين من المولدين والمقدمين ، فان علمهم كان زائدا عن حاجات عصرهم ، اما هو فحاجات عصره تزيد عن علمه " (٢) .

ولم يبتعد الدكتور يعقوب صروف ، عن هذا الاتجاه الذى الفيناه عند الشدياق واسحق فهو قد اثار اقوالا حول النقد عامة ، وخصص كذلك اقوالا بالشعر والشعراء وبالروايات ، وحاول ان يدفع الى شيء من ادب مقارن . ولن نخوض تجربته ، لان ذلك يخرجنا عن موضوعنا الاساسي ، لكننا نسجل له موقفه من النقاد المحافظين حين عاب عليهم اسلوب التخطئة سبيلا من سبل النقد بعد ان اخذت بوادر النهضة تترعرع لاعادة " شمس معارف العرب وعلومهم " . الى ان يقول : " فلهذا ولما تقدم ... من

---

(١) اديب اسحق : الدرر — وهي منتخباته جمعها شقيقه عوني اسحق طبعة منقحة في بيروت في المطبعة الادبية — سنة ١٩٠٩ ؛ راجع ص ١٠٧ وما بعدها .
(٢) الدرر ص ١٠٩ .

./.

الاسباب كثر فينا المخطئون ، وقل بيننا الناقدون او لم يوجدوا " (١) .

هذا وقد انتقد حبيب بنوت المحامي في المقتطف بمقالة له تحت عنوان : (الروايا) اصحاب الصنعة في لغة القصة او الرواية انتقادا لاذعا ، عرض فيه كثيرا من النقاط التي يتلاقى فيها مع اسحق وصروف والشدياق ، حيث ينبذ التكلف اللغوي ويدعو الى انشاء يقوم على الذوق والطبع السليم .

وهو يقول في هذا الصدد :

" ومن الكتاب من كتب رواية بعبارة هي غاية الفصاحة ، جمعت اساليب البيان ، وانواع البديع ، والتزم السجع في كل جملة منها ، وتلاعب في صنوف التعبير وفنون التحبير مما يشكل على دارس اللغة ، ولا نعلم ما الغاية من ذلك " (٢) .

غير ان دعوة حبيب بنوت للسهولة في لغة الرواية واسلوبها لم تكن تعني الركاكة والاغلاط ، لان اتجاهه من اتجاه من رأيناهم من اصحاب هذا التيار المتجدد ولهذا قال :

" ومن الكتاب من الف رواية بعبارة في غاية الركاكة محشوة بالاغلاط الصرفية والنحوية ، لا تقرأ منها سطرا صحيحا ، ولا تتبين فيها معنى صريحا ، وهذا مما لا يجوز التسامح فيه ، حرصا على شأن اللغة ، وحذرا من توهم القارىء صحة العبارة على فسادها ، ولا يخفى مافي ذلك من الضرر .

" ولا مشاحة في ان عبارة الرواية يجب ان تكون صحيحة من حيث قواعد اللغة ، سهلة المأخذ ، قريبة المنال ، خالية من كل تعقيد ، يفهمها من درس قواعد اللغة ومن لم يدرسها (٣) .

— نجيب الشوشاني :

وقبل ان نختتم هذا الفصل نقف عند خطبة لنجيب الشوشاني عنوانها

---

(١) المقتطف ، السنة السادسة عشرة ١ ديسمبر سنة ١٨٩١ مقال بعنوان الشعر والشعراء .

٢ — ٣ ، المقتطف ، السنة الخامسة عشرة ج ١ ، ١ تشرين اول ١٨٩٠ ص ١٦ وما بعدها .

(حالة الاقـلام في هذه الايام) (١) ، كانت النظرة فيها متوازنة بحيث رأت ما وصلته البلاد من تقدم الى جانب مارأته من حاجة الى تنبيه اصحاب الاقلام لما لوحظ من اخطاء آنـذاك ٠

فقد حاول ان يقارن بين حالة الاقلام في زمنه وحالتها قبل ذلك الزمن بثلاثين سنة فوجد ان التفاوت كبير كالتفاوت بين الهلال والبدر ، لما رآه من تقدم في التأليف ، والمدارس والصحف ، والاتصال بالحضـارة ، ودخول اللغة دورا جديدا لا يقتصـر فيه على السجع والبديع والمحسنات اللفظية ، فقد اخذ النـاس يميلون الى اتخاذ الحقائق ، وقال ان من يوازن بين مقال قبل زمانه بثلاثين سنة ومقال في زمانه يجد البون كبيرا ، اذ يجد ما آلت اليه الكتابة من فصاحة العبارة وحسن الانشاء ، وجمال الاسلوب ، واختيار في الالفاظ يفي بكل ذلك ، مع تقـدم كبير جدا في جملة المدارك ٠

---

(١) وهو الخطاب الذى القاه نجيب الشوشاني في منتدى المدرسة البطريركية في احتفالها السنوى في ١٩ تمـوز سنة ١٨٩٢ ٠

٠/٠

خلاصة وتعقيب

يتبين مما تقدم ، ان الدراسة الادبية اللبنانية عامة ، والنقدية منها خاصة ، في القرن التاسع عشر ، قد غرقت في النصف الاول من ذلك القرن في نتاج ادبي ونقدي قديمين ، وان رواسب القديم قد تراكمت في ذلك النصف الاول من القرن تراكما حجب عن النظر كل جديد .

غير ان عوامل التطوير كانت تفعل فعلها في حياة الناس ، وان لم تلفت ثمارها النظر ، الا بعد ان اخذت بذور الجديد تلمع وسط غبار من قديم ، منذ مطلع النصف الثاني من القرن التاسع عشر ، واتساقا مع نواميس الحياة نجد العقود الاربعة الاولى من النصف الثاني من ذلك القرن تتسم باتجاهين :

— الاول : اتجاه محافظ في الادب والنقد وان احسن ان من واجبه العودة الى مستوى الاداء العربي الرفيع في العهود العربية القديمة الزاهرة .

— والثاني : اتجاه فيه من بذور الجديد قدر واضح لا تنكره العين ، ولا يعز على الدارس ان يتلمسه .

ولا يكاد الدارس يشرف على اوائل العقد الاخير من القرن التاسع عشر ، حتى يرى ان الحياة الادبية واللغوية اللبنانية ، والنقدية منها خاصة ، قد تبلور فيها الجديد واتضح ، بحيث برز للعيان طلائع من الجديد تتسم بالعافية والقوة ذبل امامها القديم وذوى ، بل اضطر الى ان يتخذ جانب لافت منه موقف المتكيف مع الدعوة السافرة القوية الى الجديد .

ويمكننا تحديد ميزات النقد اللغوى التي سادت القرن الماضي بالميزات التالية :

اولا — الاهتمام بعامل الزمن :

اخذ لغويو القرن الماضي ، بحسبانهم عامل الزمن ، واثره في تطور اللغة والنقد اللغوى ، فآمنوا بحتمية وجوده ، ومراعاة احواله لكل عمل لغوى يريدون .

/٠ .

ولعل الشدياق وجرجي زيدان واديب اسحق ويعقوب صروف اول من نعا الى هذا في ابحاثهم • ولن تغرب عن بالنا نظرية النشوء والارتقاء في اللغة التي اعلنها زيدان وآمن بها ايمانا مطلقا • ولنتذكر قوله : " فاللغة ، من ثم ، ظاهرة من ظواهر حياة الامة ، فهي خاضعة دون ريب ، لناموس النمو والتجديد ولناموس الارتقاء العام " (١) •

هذه الحتمية التاريخية بدّ متنام مع اللغة ، والوقوف في سبيل هذا النمو مخالف للنواميس الطبيعية ، فضلا عن انه لا يجدي نفعا ، من هنا برزت قيمة النقد اللغوي ، كنتيجة لعمل عقل لا يطيق الوقوف او الجمود •

هذا الاثر الزمني في تطور اللغة ، طفق يدفع بها دفعا وئيدا ، فيجعلها حيّة متجددة ، متنامية كنمو اي ظاهرة من ظواهر حياة الامة ، كالاداب ، او الشرائع او غيرها ، فهي تسير في نموها سيرا خفيا لا يشعر به المرء الا بعد انقضاء الزمن الطويل • وهي بهذا لا تبتعد عن طبيعة التغير ، اذ تأخذ قيمة امثل في توثبها وثبات قوية عبر ذلك النمو الخفي ، متأثرة بعامل المحاذاة مع الفكر والحضارة ، مما يزيدها نماء واتساعا •

وقد تمثل هذا — كما رأينا — في اعمال الشدياق اللغوية ، فقد آمن الرجل بحتمية التطور ايمانا حدا به الى الشكوى مما في اللغة من بطء يشبه ان يكون موتا • وفي انها لا تخضع للحياة ولحيوية المتكلم ، وانما المتكلم هو الذي يجب ان يخضع لها " وبالجملة فان اللغة العربية تكاد تكون تعبدية فيجب الاذعان لما ورد فيها من شذوذ واستثناء وجمود واشتقاق فهي لا تعفو للمتكلم بل يجب على المتكلم ان يعفو لها " (٢) •

لكن الشدياق — كما بينا في وضع الالفاظ — لم يقف عند حدود الشكوى هذه ، بل اجفل الى التنبه والعزم الاكيد على وضع الالفاظ الجديدة لما رآه في اسفاره وهو مايزيد على مائتي مصطلح جديد امرع بهم ابحاثه اللغوية •

---

(١) جرجي زيدان ، اللغة كائن حي ، ص ٢٣ •

(٢) الشدياق ، الجاسوس على القاموس ، ص ٢٦ •

وهو مافعله من بعده ابراهيم اليازجي وخليل اليازجي وبشاره زلزل وسواهم . ومن ثم ، المعنا الى تصدى لغويينا في القرن الماضي لمشكلة الكلام المولد وقضيـــة الاخذ باستشهاد المولدين او الوقوف عنده . فبينا رأي هؤلاء جميعا حيث اتحـــد الهدف ، واتفقوا ان الاخذ عن المولدين شرعة لغوية ، تحتمها الحياة اللغوية نفسها ، ايمانا منهم بناموس النشوء والارتقاء .

كما اننا تناولنا في فصل عام ، ماضمنوه من آراء ونظريات ومباحث في المعجم والنقد المعجمي . بعد ان تلمسوا اسباب القصور والضعف والخلل التي طغت على معاجمنا القديمة ردحا من الزمن . وهو ماقام به المعلم بطرس البستاني في محيط المحيـــط ومن بعده سعيـــد الشرتوني في اقرب الموارد ، حيث اعطيا للعربية مددا من العطاء اللغوى ووفرة من الالفاظ المستحدثـــة .

ثانيـــا: الابـــداع الفـــردى :

كان لذلك الانقطاع الانفعالي بين اللغة العربية والانسان العربي ، اجيالا حيّز في مجـــال التفكير اللغوى عند علمائنا في القرن الماضي . حيث رأوا ان الامر هذا يسرف في الاجحاف بحق الانسان واللغة على السواء ، وهو ماحدا بهم الى العمل حثيثا على تطوير اللغة ، والانتقال بها من طور الى طور احسن ، حتى تؤدى وظيفتها على خير وجه ، وتقابل بالتالي حاجات الانسان الجديد في حياتـــه الجديـــدة .

ولقد سار هذا العمل في اغلب الاحيان ، مسارا يجمع بين الابحاث اللغوية من جهة ، والدعوة الى اسلوب عصرى ، رصين ، جزل ، من جهة ثانية . وهو امر قسم اللغويين الى تيارين — كما مر معنا — تيار محافظ يرى في القديم — على علاته — كل الخير وينبذ كل جديد . وتيار ثان فيه الكثير من اثار الفريق الاول ، لكنه فتح قلبـــه لبذور الجديد فامرعت بين حناياه شيئا فشيئا ، حتى خطا باللغة والنقد اللغوى خطوات جديرة بالدراســـة وهو مارأيناه في اعمال الشدياق وزيدان واسحق وصروف وسواهـــــم .

كما افردنا بحثا خاصا للنظرية الثنائية ، وطريقها المتكامل في معجم (سر الليال) عند احمد فارس الشدياق . وماكان لذلك من اثر واضح في العمل المعجمي ، دفع به الى اوج النضوج والدقة .

ثم بينا فضل ماقام به البستاني والشرتوني في معجميهما من منهج واضح يسّر على قراء العربية مطالعة المعجم ، وقرب الى الاذهان مفهوم المادة بعد ان اندرجت — عندهما — حسب تسلسلها المنطقي من بدء لذكر المادة ثم مشتقاتها . مما عصم عطهم من الفوضى والخلل والاضطراب التي كانت تشوب المعاجم القديمة .

ثالثا — معيارية الاحكام والنقد الجزئي :

هذا ، ولم يكن النزوع الى التطور والتغير كل شيء في البحث اللغوى — يومها — بل كثيرا ماكان يمتزج الخلق والابداع الاصيلين بعقلية المحافظة التقليدية ، المتوارثة . حتى جاز لنا القول : ان الاتجاهين سارا في مسرب واحد ، فرضتهما البيئة الاتباعية وندرة الابحاث اللغوية في القرون السابقة من جهة ، وارادة الذات اللبنانية في اثبات وجودها عن طريق الخلق والابداع والتحرر من جهة اخرى .

ولعل هذا مايفسر بعض التناقض الذى شاب قسما من الدراسات اللغوية والنقدية ، التي كانت تجمع بين المعيارية او الاحتكام الى القديم والتأليف القائم على على فكرة الجدة والابتكار .

وما دار بين الشدياق وابراهيم اليازجي ومن تبعهم من مناظرات لغوية حول كلمة فطحل ، لخير دليل على مانذهب اليه . فهم يحتكمون الى كتب التراث ويؤتمون بعلمائه من جهة ، ويدعون الى الاشتقاق والنحت ووضع المصطلح من جهة ثانية .

وقد بينا في مماحكة الشدياق واليازجي مابذله كل منهما من محاولات

الدفاع عن وجهة رأيه ومذهبه اللغوى ، هذا المذهب الذى افرغ النقد اللغوى من كل محتوى ، وحصره في اضيق مجالات التفكير ، مما حول البحث الى اقتناص الجزئيات اللغوية وقتلها في مماحكة عقيمة لم تتعد زوبعة في فنجان .

كما رأينا ، ان الشيخ ابراهيم اليازجي ، من اكثر هؤلاء مغالاة وتمسكا بالقديم والاحتكام اليه ، حتى بلغت به حدود التزمت حدا مسرفا فسعى يغلّط القدماء انفسهم مما جعل انصار القديم ، ممن ينهجون نهجه ، ينقلبون عليه ، ويثيرون لمهاجمته ، كما فعل عبد الرحمن سلام في " دفع الاوهام " وشكيب ارسلان .

وقد ختمنا البحث برصد عام لنمو حركة التجديد التي ارتقت على يد الشدياق واديب اسحق ويعقوب صروف وسواهم ....

ثبـــــت المصـــادر والمراجـــع

اسم المؤلـــــف	اسم الكتـــــاب
١ ـ ابن منظـــــور	ـ لسان العـــرب • دار صادر وبيروت ١٩٥٥ـ١٣٧٤هـ
٢ ـ أبو الفرج ،محمد احمد	ـ المعاجم اللغوية ،فيضوء دراسات علم اللغة الحديث الطبعة الاولى ، دار النهضة العربية ـ ١٩٦٦ •
	ـ مقدمة لدراسة فقه اللغة ـ دار النهضة العربية ط١٩٦٦١
٣ ـ الافغانى ،سعيـد	ـ حاضر اللغة العربية فى الشام ـ معهد الدراسات العربية العالية ـ ١٩٦٢ •
٤ ـ د /أحمد ،عبد السميع	ـ المعاجم العربية (ج ١) ١٩٦٩ •
٥ ـ الاسير ، يوسف	ـ ارشاد الورى، فى تخطئة جوف الفرا ـ مطبعة الجوائب ، الاستانة • ١٢٩٠هـ ـ ١٨٧٣م
	ـ رد الشهم للسهم ـ مطبعة الجوائب ،الاستانة ١٢٩١ هـ •
٦ ـ الاخدب ،ابراهيم	ـ رد السهم عن التصويب وابعاده عن مرمى الصواب بالتقريب • طبع بالاستانة سنة ١٢٩١ هـ •
٧ ـ ابن عقيـــل	ـ شرح الفية ابن مالـــك • تحقيق محى الدين عبد الحميد دار الكتاب العربى ـ بيروت • ط ١٤ ١٩٦٤ •
٨ ـ ابن دريـــد	ـ جمهرة اللغـــة ـ دار صادر ـ طبعة بالاوفست •
٩ ـ انطونيوس ،جورج	ـ يقظة العرب ، تاريخ حركة العرب القومية • ترجمة احسان عباس وناصر الدين الاسد • دار العلم للملايين بيروت •
١٠ـ آل صفا ،محمد جابر	ـ تاريخ جبل عامل ـ دار متن اللغة (بدون تاريخ) •
١١ـ أنيس ،ابراهيم	ـ دلالة الالفاظ ـ مكتبة الانجلو المصرية ـ ط٢ ١٩٦٢م
	ـ من اسرار اللغة ـ " " " "
١٢ ـ بشر ، كمال محمد /د	ـ دراسات فى علم اللغة جزءان ـ دار المعارف بمصر ١٩٦٩
١٣ ـ بيهم ،محمد جميل	ـ قمم سوافل العروبة ومواكبها الجزء الاول •
١٤ ـ بشرى ،عبد الغنى	ـ اثر سياسة القوميات فى الحركة القومية العربية ـ عن ادارة القوات المسلحة فى القاهرة • ١٩٦٤
١٥ ـ بروكلمان ،كارل	ـ تاريخ الشعوب الاسلامية ـ الجزء الرابع (الاسلام فـــى القرن التاسع عشر • ط ٣ دار العلم للملايين •
١٦ ـ البستانى ،بطرس	ـ معجم محيط المحيط وقطر المحيط • نسخة طبق الاصل طبعت بطريقة الفوتوا وفست نقلا عن طبعة ١٨٧٠ ، مكتبة لبنان • قطر المحيط نقلا عن طبعة ١٨٦٩ •
١٧ ـ البستانى ،فؤاد افرام	ـ الروائع • الاعداد : ٤١ ، ٤٢ ، ٤٣ • المطبعة الكاثوليكية ببيروت ط ٢ ١٩٦٥ •

اسم المؤلف	اسم الكتاب
١٨ — ترزى ، حنا / د /	— الاشتقاق • منشورات دار الكتب — بيروت
١٩ — حسان ، تمام / د /	— مناهج البحث فى اللغة •
٢٠ — حتى ، فيليب / د /	— لبنان فى التاريخ • ترجمة الدكتور انيس فريحة • نشر بالاشتراك مع مؤسسة فرنكلين • بيروت — نيويورك ١٩٥٩ م •
٢١ — الحصرى ، ساطع	— آراء واحاديث فى اللغة والادب
	— آراء واحاديث فى الوطنية والقومية ط٣ دار العلم للملايين ١٩٥٧
	— ماهى القومية • دار العلم للملايين — ط٢ بيروت ١٩٦٣
	— البلاد العربية والدولة العثمانية — معهد الدراسات العربية العالية — ١٩٥٧ •
٢٢ — الحاج ، كمال يوسف / د /	— فى فلسفة اللغة • دار النهار للنشر — بيروت ١٩٦٧
٢٣ — خلف الله ، محمد / د /	— احمد فارس الشدياق ، وآراؤه اللغوية والادبية • معهد الدراسات العربية العالية — ١٩٥٥ •
٢٤ — خورى ، رئيف	— الفكر العربى الحديث • دار المكشوف — ١٩٤٣ •
٢٥ — داغر ، يوسف	— مصادر الدراسة الادبية •
٢٦ — الدحداح ، رشيد	— احكام باب الاعراب عن لغة الاعراب • مطبعة باراس وسافورنين — مرسيليا • ١٨٤٩ •
٢٧ — زيدان ، جرجى	— اللغة العربية كائن حى • دار الهلال بمصر (بدون تاريخ)
	— تاريخ آداب اللغة العربية • الجزء الرابع ط جديدة دار الهلال ١٩٥٧ •
	— تراجم مشاهير الشرق — دار الهلال •
	— الفلسفة اللغوية والالفاظ العربية • ط٢ ١٩٠٤ وطبعة جديدة عن مؤسسة دار الهلال ١٩٦٩ •
٢٨ — الزركلى ، خير الدين	— الاعلام • ط ٢ جزء ٣ •
٢٩ — السمران ، محمود حسن / د /	— علم اللغة مقدمة للقارى العربى / دار المعارف بمصر ٦٢
٣٠ — سلام ، عبد الرحمن	— رد الاوهام • المطبعة الادبية — بيروت ١٣١٧هـ
٣١ — سابا ، عيسى ميخائيل	— الشيخ ناصيف اليازجى • سلسلة نوابغ الفكر العربى / ٦ / دار المعارف بمصر ١٩٦٥ •
	— الشيخ ابراهيم اليازجى • سلسلة النوابغ / ١٤ / دار المعارف بمصر • ١٩٥٥ •
٣٢ — شيخو ، لويس	— الاداب العربية فى القرن التاسع عشر • المطبعة الكاثوليكية •

اسم المؤلف	اسم الكتاب
٣٣ ـ شبلي ، انطون	ـ الشدياق واليازجي • مناقشة علمية وادبية • مطبعة جونية (المرسلين اللبنانيين) سنة ١٩٥٠
٣٤ ـ شقير ، شاكر	ـ لسان غصن لبنان في انتقاد العربية المصرية • طبع في المطبعة العثمانية • ١٨٩١ •
	ـ اساليب العرب في صناعة الانشاء • مطبعة القديس جاورجيوس للروم الارثوذكس سنة ١٨٩٣ ـ ١٨٩٤ •
٣٥ ـ الشرتوني ، سعيد	ـ معجم " اقرب الموارد الى فصح العربية والشوارد " الجزء الاول والثاني طبعا على مطابع المرسلين اليسوعيين (المطبعة الكاثوليكية) سنة ١٨٨٩ • والذيل سنة ١٨٩٣ •
	ـ السهم الصائب في تخطئة غنية الطالب • المطبعة الكلية ـ بيروت سنة ١٨٧٤ •
٣٦ ـ الشدياق ، أحمد فارس	ـ معجم سر الليال في القلب والابدال • مطبعة الاستانة ١٢٨٤ هـ • ١٨٨٤ م •
	ـ الجاسوس على القاموس • م الجوائب ، الاستانة ١٢٩٩ هـ
	ـ الساق على الساق • دار مكتبة الحياة ـ بيروت • طبعة جديدة قدم لها الشيخ نسيب وهيبه الخازن ١٩٦٦ •
	ـ كشف المخبا عن فنون اوربا ، والواسطة في معرفة احوال مالطة •
	ـ اللفيف في كل معنى طريف • مطبعة الجوائب ط ٢ القسطنطينية سنة ١٢٩٩ هـ •
	ـ منتخبات الجوائب • مطبعة الجوائب •
٣٧ ـ الشرباصي ، احمد	ـ شكيب ارسلان ، داعية العروبة والاسلام • سلسلة اعلام العرب / ٢١ / المؤسسة المصرية العامة ١٩٦٣ •
٣٨ ـ صوايا ، ميخائيل	ـ المعلم بطرس البستاني •
	ـ ابراهيم اليازجي • منشورات دار الشرق الجديد / اعلام الفكر العربي / ١١ / ط ١ سنة ١٩٦٠
	ـ احمد فارس الشدياق • نفس السلسلة رقم ١٩ / ط ١ ١٩٦٢ •
٣٩ ـ ضومط ، جبر	ـ الخواطر الحسان في المعاني والبيان ط ١ بمصر سنة ١٨٩٦ و ط ٢ مطبعة الوفاء بيروت ١٩٣٠ •
	ـ فلسفة البلاغة • المطبعة العثمانية • بعبدا / لبنان ١٨٩٨ •

اسم المؤلف	اسم الكتاب
	— فلسفة اللغة العربية وتطورها • مطبعة المقتطف والمقطم بمصر سنة ١٩٢٩ •
٤٠ — ضيف ، شوقي /د /	— البلاغة تطور وتاريخ • دار المعارف بمصر ١٩٦٥ •
٤١ — ظاظا ، حسن / د /	— اللسان والانسان مدخل الى معرفة اللغة • دار المعارف بمصر ١٩٧١ •
٤٢ — عمر ، أحمد مختار /د /	— البحث اللغوي عند الهنود واثره على اللغويين العرب • دار الثقافة بيروت سنة ١٩٧٢ •
٤٣ — عقيقي ، نجيب	— الاستشراق • دار المعارف بمصر ١٩٦٥ •
٤٤ — عبود ، مارون	— صقر لبنان • منشورات دار المكشوف ط١ بيروت ١٩٥٠ •
	— رواد النهضة الحديثة • دار الثقافة — بيروت ١٩٦٦ •
	— جدد وقدماء • دار الثقافة — بيروت — ١٩٥٤ •
٤٥ — العاذيلي ، عبد الله	— المقدمة اللغوية • (تهذيب المقدمة) قدم لها وعلق عليها الدكتور أسعد علي • منشورات دار النعمان بيروت •
٤٦ — عواد ، بولس	— العقد البديع في فن البديع • المطبعة العمومية الكاثوليكية — بيروت سنة ١٨٨١ •
٤٧ — العقاد ، عباس محمود	— اشتات مجتمعات في اللغة والادب • دار المعارف بمصر
٤٨ — عبد السيد ، مخايل	— سلوان الشجي في الرد على ابراهيم اليازجي • مطبعة الجوائب — الاستانة سنة ١٢٨٩هـ •
٤٩ — فروخ ، عمر /د / مع مصطفى خالدي	— التبشير والاستعمار في البلاد العربية • ط٢ ١٩٥٧ •
٥٠ — الفراهيدي ، الخليل أحمد	— من كتاب العين • تحقيق الدكتور عبد الله درويش م العاني — بغداد سنة ١٣٨٦ هـ — ١٩٦٧ •
٥١ — لبكي ، صلاح	— لبنان الشاعر • دار الحضارة • ط٢ ١٩٦٤ •
٥٢ — المبارك ، محمد / د /	— فقه اللغة ، دراسة تحليلية مقارنة للكلمة العربية • مطبعة جامعة دمشق (بدون تاريخ) •
٥٣ — مكي ، محمد كاظم	— الحركة الفكرية والادبية في جبل عامل • دار الاندلس ط١ ١٩٦٣ •
٥٤ — المغربي ، عبد القادر بن مصطفى	— الاشتقاق والتعريب • ط٢ مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر سنة ١٣٦٦هـ — ١٩٤٧م •
٥٥ — المقدسي ، أنيس / د /	— الاتجاهات الادبية في العالم العربي الحديث •
	— تطور الاساليب النثرية في الادب العربي • دار العلم للملايين ١٩٦٥ •
٥٦ — الكتاب المقدس	— المطبعة الكاثوليكية — بيروت — ١٩٥١ •

اسم المؤلف	اسم الكتاب
٥٧ — مرتضى ، السيد محمد	— تاج العروس • دار ليبيا للنشر والتوزيع ط اوفست بنغازي • عن الطبعة الاولى (المطبعة الخيرية لمنشأة بجمالية مصر سنة ١٣٠٦ هـ•
٥٨ — مجد الدين الفيروزابادي	— القاموس المحيط • ط٢ مطبعة مصطفى البابي الحلبي واولاده• سنة ١٣٧١هـ — ١٩٥٢م•
٥٩ — نصار ، حسين /د /	— المعجم العربي ، نشأته وتطوره • جزءان • دار مصر للطباعة • ط٢ / ١٩٦٨ •
٦٠ — نويهض ، عجاج	— برتوكولات حكماء صهيون (ترجمة) المجلد الثاني ، ١٩٦٧ •
٦١ — النحاس ، جبران	— تنبيهات اليازجي على محيط البستاني • ١٩٣٢•
٦٢ — وافي ، علي عبد الواحد /د /	— فقه اللغة • دار نهضة مصر للطبع والنشر• القاهرة ط٦ /
٦٣ — ياغي ، هاشم /د /	— النقد الادبي الحديث في لبنان (جزءان) دار المعارف بمصر • ١٩٦٩ •
٦٤ — اليازجي ، ناصيف مع شروحات ابنه (ابراهيم)	— الطراز المعلم • المطبعة المخلصية سنة ١٨٦٨ •
	— عقد الجمان مع ملحقة دائرة العروض• وقد جمعت في كتاب مجموع الادب في فنون الادب • المطبعة الاميركانية ١٩٠٨ و ١٩٣٢ و ١٩٤٨ (بيروت)
	— مجمع البحرين • منشورات مكتبة الطلاب — بيروت المطبعة التجارية •
	— اللباب في اصول الاعراب • طبع في بيروت سنة ١٨٨٩ •
	— مطالع السعد لمطالع الجوهر الفرد • المطبعة الوطنية ١٨٦٥ • ط٤ مطبعة صبرا • بيروت — سنة ١٩٠٨ •
	— فصل الخطاب في اصول لغة الاعراب • بيروت سنة ١٨٨٦
	— الجمانة في شرح الخزانة ومختصره بقلم ابنه ابراهيم • المطبعة الادبية — بيروت — سنة ١٨٨٩ •

اسم المجلة	البحث	الرقم	السنة
١ ـ مجلة المجمع العلمي بدمشق	المعجم العربي ، عدنان الخطيب	ج ٢ م ٤٠	١٩٥٦
	الالفاظ الشدياقية لظافر القاسمي	م ٤٠	١٩٦٥
	اخطاء الشرتوني لاحمد رضا	٢١ و ٢٢ و ٢٣ / ٤١ و ٤٧ و ٤٨	
٢ ـ المقتطف	ابراهيم اليازجي	٦ : ٧	
	عن يوسف الاسير	١٥ / ١٣٢ / ١٨٨٢	
	من الشدياق	م ٣١ / ٦٢٥ /	
	الشرتوني لرشيد عطيه	٤١	١٩١٢
٣ ـ المشرق	الشرتوني	م ٢	
	"	م ٢٤	٦ :
	عن الاسير	م ١٢	
	" اليازجي (ابراهيم)	م ١٧	
٤ ـ الضياء	عن ابراهيم اليازجي	٦ : ٤٤٩	
		١ : ٦٦	
	عن لغة الجرائد	١ : ٢٥٧	
		٧ : ١٩٣	
		٣ : ٦٩٦	
٥ ـ العربي	الاعداد : ١١٥ ـ ١٣٧ ـ ١٣٩ ـ ١٣٢ .		
٦ ـ المسرة	عدد خاص عن ابراهيم اليازجي السنة ٣٣ / ١٩٤٧ جـ ٦ .		
٧ ـ المكشوف	ناصيف اليازجي والشدياق لهنري بيريس	١٠ / ١٩٢٤ ص ٤٢٩ ـ ٤٢٧	
	" " (عدد خاص)	١٥ / ٢	١٩٤٦
	الشدياق (عدد خاص)	١٧٠	١٩٣٨
٨ ـ الجوائب	عدد ٥٦٤ ٢٠ ك١ سنة ١٨٧١		
	والاعداد ك٢ سنة ١٨٧٢ وما بعدها		
	ومنتخبات الجوائب جـ١ و ٢ ط١ . مطبعة الجوائب ١٨٨٠		

فهرس المحتويـــات

الفصـــل	الصفحـــة
الباب الأول	
— الفصل الاول : الحياة السياسية فى القرن التاسع عشر فى لبنان	١ — ١١
— " الثانى : " الاقتصادية والاجتماعية	١٢ — ٢٠
— " الثالث : " الثقافيـــة	٢١ — ٢٨
الباب الثانى	
— الفصل الاول : المدارس وازدواجية اللغة فى القرن التاسع عشر فى لبنان	٢٩ — ٤٩
— " الثانى : اللغة بين ازدواجيات التركية والسريانية والفرنسية والانكليزية	٥٠ — ٥٥
— " الثالث : حركة الاستشراق واثرها فى اللغة من خلال لغويى القرن الماضى	٥٦ — ٦٨
— " الرابع : التبشير ودور الارساليات فى لبنان فى القرن الماضى	٦٩ — ٨٨
الباب الثالـث :	
— الفصل الاول : اتجاهات البحث اللغوى فى لبنان فى القرن التاسع عشر	٨٩ — ١١٨
— " الثانى : الفترة المعجمية عند لغويى القرن التاسع عشر فى لبنان	١١٩ — ١٣٣
— " الثالث : معاجم القرن التاسع عشر فى لبنان	١٣٤ — ١٥٨
— " الرابع : التعريب ووضع الالفـــاظ فى القرن الماضى عند اللبنانيين	١٥٩ — ١٨١
— " الخامس : النقد المعجمى عند لغويى القرن التاسع عشر فى لبنان	١٨٢ — ٢١٦
— " السادس : الدرس البلاغى فى القرن التاسع عشر فى لبنان	٢١٧ — ٢٤٥
— " السابع : مسائل الصرف والنحـــو فى القرن الماضى فى لبنان	٢٤٦ — ٢٦٢
— " الثامن : النقد اللغوى فى القرن التاسع عشر فى لبنان	٢٦٣ — ٢٩٦
فهرس المصادر والمراجع	٢٩٧ — ٣٠١
فهرس الصحف والمجلات	٣٠٢
فهرس الخرائـــط	أ ، ب ، ج